محنتي مع القرآن ومع الله في القرآن

الحقيقة الصعبة (٢١)

محنتي مع القرآن
ومع الله في القرآن

عباس عبد النور

(طبعة تجريبية)

دمنهور
جمهوريّة مصر العربيّة
٢٠٠٤

تقديم

عبّاس عبد النّور، من مواليد دمنهور، سنة ١٩٢٧، شيخٌ، متصوّف، تقيٌّ، مسلم الدِّين، سنّي المذهب، فقيه، مدير تكيّة، ورث الدِّين عن آباء وأجداد مشهود لهم بالتقوى، وصلابة العقيدة، وحسن السلوك. له، في مدينته، مريدون، نشّأهم على صدق الإيمان وحرارة العبادة.

التحق بكلّيّة أصول الدين في الأزهر، وبقي فيها ثلاث سنوات. وعزم على إتمام الرابعة في جامعة فؤاد الأوّل، كلّيّة الآداب، قسم الفلسفة، حيث درس على مفكّرين عمالقة، أمثال: «عبد الرحمن بدوي، زكي نجيب محمود، محمّد عبد الهادي أبو ريده، الأهواني، ويوسف مراد»، وغيرهم.

ومع هذا، لقد خاب أمله في الجامعتَين معاً، وأضاعَ، على حدّ قوله، أربع سنوات من حياته. ومن فؤاد الأوّل انتقل إلى معهد التربية العالي، فنال شهادةً في ذلك. ومُنح مساعدة من دائرة الأوقاف الإسلاميّة، فانتقل إلى باريس، إلى جامعة السوربون، ليحضّر دكتوراه في فلسفة العلم. فحاز ما أراد.

ولمّا عاد إلى مدينته، أكمل مسعاه الديني، فكان واعظاً، إماماً، وخطيباً في أحد مساجدها. ثمّ واظب على التعليم الجامعي، وتأليف الكتب الفلسفيّة العلميّة. فكانت له مؤلّفات عدّة في الفكر الفلسفي الإسلامي والعربي. طُبعت مراراً في القاهرة وفي بيروت. وبعد أن أحيل على التقاعد، تفرّغ إلى الكتابة والأبحاث في مختلف ميادين الفلسفة والأدب والدِّين.

إلاّ أنّ حياتَه الفكريّة لم تكن من دون قلق، ولا حياته الدينيّة من دون شكوك. صحيح أنّه نشأ في بيتٍ ورعٍ وتُقى؛ ولكنّ في عقله حَيرة واضطراب وتساؤلات لا حدّ لها. كان عقله يطرح موضوعات مثيرة، وكان إيمانه يكفيه الجواب على كلّ معضلة.

صراع العلم والإيمان ابتدأ عند عبّاس باكراً. صراع لم تُتَح له الفرصة ليُطرح علناً. ولو خرج من الخفاء منذ نشأته، لما وصل إلى هذا الحدّ من العنف المعبَّر عنه في هذا الكتاب الذي قلّ نظيره. لو سُمح لصاحبنا بالتعبير عن مكنونات عقله وقلبه، لكانت النتيجة هي هي، ولكن، لما كانت بهذه الحدّة والعنف.

عبّاس ليس هو المسؤول عن رفض القرآن وإله القرآن؛ ولا القرآن، أو الله، هو المسؤول أيضاً. ألمسلمون كافّة، وبنوع خاص، ألمفسِّرون «الثرثارون» هم المسؤولون عن هذه النظرة الغريبة العجيبة إلى القرآن وإله القرآن.

لقد انتزع المسلمون النصَّ القرآني من بيئته، وقدّموه لنا نصًّا إلهيًّا، أزليًّا، أبديًّا، لا علاقة له بالفكر البشري وظروف نشأته. هنا تكمن، بالنسبة إلى الشيخ الدكتور عبّاس، المشكلة كلّها. وهو لا يريد سوى العودة إلى التاريخ: نصّ رائع في حينه، ومليء بالأخطاء والضلالات في غير حينه.

فليتمهّل القارئ ليحكم. وليقرأ بمعاناة المؤلّف. وليدع عقله وإيمانه يعملان معاً. وليعلم أنّ الإيمانَ يعمل حيث لا يعمل العقل؛ ولكن ليس من دونه.

مقدِّمـة

هذا الكتاب دعوة ملحّة وصريحة من أجل قراءة القرآن من جديد لنفهمه على حقيقته، وكسر القيود والأغلال التي شوّهت تفكيرنا، وأفسدت قراءتَنا للحياة والكون والمصير، وفرضت علينا أن نرى الوجود والأشياء من منظورها الإيديولوجي الواحد . وبقدر ما كان القرآن في عصوره الأولى عامل تقدّم وبناء، أصبح اليومَ عاملَ تخلّف وتخريب، وكابوساً يجثم بكلكله على العقول والنفوس.

هذا الكتاب محاولة نقديّة للتحرير والانعتاق من الثوابت التي انتهت بنا إلى ما نحن عليه اليوم. إنّه إضاءة للحظة المعتمة الراهنة، مدعمة بالشواهد المأخوذة من النصّ القرآني، ونقدٌ له وتحليلٌ لآياته، ونزعٌ للأغطية التي تحجب الرؤية؛ بل تعطلها وتشلّ حركة الفكر الحرِّ وتخدّره، وتقتل فيه روح المعاناة، وتحولّه إلى عنصر سلبيٍّ، لا همّ له إلاّ تبرير النصّ، والدفاع عن النصّ، والإستغراق في "ذخائر" النصّ، والحِكَم البالغة الكامنة في النصّ.

كتبتُ هذا الكتاب بقلبٍ مخلص يشتاق إلى التغيير، ويريد العمل على القيام بأعمق تغيير، وبالتالي تقديم صورة عن القرآن غير الصورة المعروفة المتداولة في أسواق العامّة، بل حتّى في أسواق الخاصّة، وأحياناً خاصّة الخاصّة. فعبادة النصّ، والعكوف على النصّ، والإنحناء أمام النصّ، لا تفرّق في كثير من الحالات بين عامّة وخاصّة. فكم من عملاق تصاغر أمام النصّ حتّى بدا قزماً يرتجف هلعاً كفأر رأى شبحَ قطٍّ، هكذا يفعل بعملاقنا المغرور زئيرُ النصّ.

ولا همّ لي في هذا الكتاب إلا اقتحام عرين النصّ. يجب أن ننـزع عن النصّ أولاً قشرة القداسة التي تحيط به، وبغير ذلك لا يسلس لنا قياد النصّ. إن تعرية النصّ ، والتشكيك في قداسة النصّ ، وتطبيق المنهج العقلي على النصّ ، تفتح لنا آفاقاً لا يبلغها أولئك الذين على أبصارهم غشاوة قدسيّة النصّ. هؤلاء هم عبدة أصنام. ولا فرق بين عبدة الأصنام وعبدة النصّ .

يجب إعادة النظر في التفرقة بين المقدّس وغير المقدّس (ما هو غير مقدّس ليس دنساً بالضرورة)، أو ادْعاء الخصومة بينهما، فلا مقدَّس إلاّ الإنسان والعقل الذي يميّز الإنسان. لذلك يجب ألاّ تشغلنا قداسةُ النصّ عن حيويّة التجربة العقليّة. فالتجربة العقليّة نشاط وقدرة وقلق. وهيمنة الدِْين على الفكر والثقافة مصادرةٌ للعقل، وعزل له عن الواقع، وعن الحياة والإنسان. وبحكم هذه المصادرة، وبفعل المعرفة التي تتولّد منها، تبدو الثقافة العربيّة كأنْ لا شأن لها بالحياة إلاّ بقدر انشغال هذه الحياة بهموم الآخرة وما فيها من نعيمٍ وجحيمٍ وحُورٍ عِينٍ وفاكهةٍ ممّا يَشتهون.

لقد آن لنا أن نتخطّى الأسوار التي تضربها علينا هذه المصادرة. ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بانقلاب معرفي في كلّ ما يتعلّق بالأصول -نصوصاً وقراءات- ، إنقلاباً ينطلق من النظر إليها ومعاملتها على أنها مادّة خاضعة للعقل وأفقٌ مفتوحٌ أمام العقل، قابلٌ للنظر وإعادةِ النظر، وإلاّ بقي النصّ مهيمناً ثابتاً لا مبدِّل لكلماته، ومن ثمّ بقيت المعرفة ثابتة محدودة مغلقة.

ثمّ إنّ الهويّة ليست تطابقاً مع جوهرٍ ماضٍ تكوّن مرة واحدة وإلى الأبد ، وإنما هي عمليّة تاريخيّة وابتكار دائم ، فالإنسان يصنع هويّته ويبدعها، وهو يصنع فكره ونظام حياته. ألهويّة حياةٌ والنصٌّ موت. فكيف ترتهن الحياة بالموت؟ ألهويّة تولد في

المستقبل، والنص عود إلى الماضي، ومتحف للماضي، فكيف يعود المستقبل أدراجه إلى الماضي؟ ألهويّة وعد في طريقه إلى الإنجاز، والنصّ غلّ يعرقل كلَّ إنجاز ، فكيف يتفق الإنجاز واللاّإنجاز؟ ألنصّ إلغاء لديناميّة الإنسان، ولديناميّة المعرفة، ولديناميّة التطوّر والتاريخ. فاخترْ لنفسك ما يحلو. لا يستوي الحرّ والظلّ!

علينا ألا نُحبَس في غرفةٍ مظلمة ضيّقة والعالم من حولنا يترامى ويمتدّ إلى غير نهاية. يجب أن نخرج إلى النور ونعمل في النور، وأن نكفّ عن خدمة منطق النصّ لخدمة منطق النور، لنتعاطَ مع الواقع الحيّ ونشارك في الأحداث وفي انبثاق النور. ليت شعري! إلى متى سنظلّ نستمرئ الظلمة ونرسف في أغلال الظلمة ونرفض النور؟!

لقد غاب عنّا أنَّ النصوص لها أعمار تعيش إلى أجل مُسمّى، فإذا جاء أجَلُها فمن الواجب أن تفسح الطريق لغيرها، لا أن تلوي عنقَ الزمان والمكان لتمدَّ في أجَلِها وترفض النداءات التي تطالب برحيلها. يجب أن نتعلّم كيف نمارس عملية التحرّر من ربقة النصوص بعد عصور وعصور من تحكّم النصوص والحنين المستمر إلى ماضٍ زاهٍ عامرٍ بالنصوص وعبادة النصوص.

إنّ النصوص التي لا نجد لها اليوم معنى كانت بالأمس تُشبع حاجات أسلافنا وتُغني حياتهم. لقد وجدوا فيها نشوة روحيّة لا حدود لها، من الصعب علينا فهمها في هذه الأيام، وانخرطوا في سجال وسط تدافعٍ وتزاحم لاكتشاف درر المعاني التي ينطوي عليها كتاب الله. لقد كان ذلك مقصوراً على زمن مضى وانقضى.

فقد انكبّ أجدادنا على دراسة القرآن دراسةً مليئة بالإفتعال والصنعة والتكلّف، وحمَّلوه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز ما لا يحتمل، وانتزعوا منه من المعاني والمقاصد والأغراض ما لم يخطر على بال صاحبه، ونشروا حوله مواكب من الصور والألوان والأطياف والمشاهد، لم يحظ بها كتاب غيره حتّى اليوم.

هذا ما يفعل الإيمان بعبَدة النصوص والأوهام. لقد هوت الأنصاب والأزلام والأوثان، وفي أعقابها النصوص، وتغيّرت النفوس لتغيُّرِ الزمان، وعصرُ الخلافة ولّى، فأدبر زمانٌ وأقبل زمان .

لقد أعطى القرآن الشخصيّة العربية طابعاً أسطورياً مميَّزاً لا نظير له؛ جعلها تعيش خارج التاريخ، والأحداث من حولها تضجّ بالتاريخ: فمتى تخرج من النفق المظلم لتدخل باحة التاريخ؟ إنّ خطاب الماضي لا يصنع تاريخاً، إنما يصنع التاريخَ الحضورُ في التاريخ.

لقد طغت فكرة النصّ على سرّ النهضة وعلى حلم النهضة حتّى توقفت النهضة وخابت جميعُ الآمال في إنجاز مشروع النهضة، وانتعشت السلفية والأصوليّة والدمويّة والتجهيليّة لخنق أنفاس النهضة وتعطيل جميع المبادرات التي تؤدي إلى النهضة .

من المؤسف أن التاريخ لا يرقد ولا يركد إلاّ في بلادنا.

ماذا أقول؟ إنّه حتّى في كثير من بلدان العالم الثالث لا يخلو من التدافع والحركة. فهو في الدنيا كلها تقريباً نهر متدفق بل خضم متلاطم الأمواج ، ولكنّه في بلادنا بحيرة ساكنة لا تثور .

ولا غرض لهذا الكتاب ولا هاجس وراءه إلاّ أن يُلقي حجراً في هذه البحيرة لعلّه يثيرها ويُخرجها عن هدوئها وانتظامها.

في أعماق هذا الكتاب رسالة تفوح منها ثورة حادّة، ورغبة قويّة في التغيير، واعتراض أساسي على منهج الحياة، وخوف من مصائرها وتقلّباتها. حلم عميق يتردّد في كلّ صفحة فيه.

في الكتاب تقريع كثير وبكاء أكثر. فهو دعوة صارخة إلى أن نأخذ حياتنا مأخذاً جادًّا، ونعمل على تصحيح واقعنا وتاريخنا وإنساننا إذا كنّا عقدنا العزم حقًّا على قبول التحدّي ومواجهةالحقيقة المرّة التي نجد صعوبة كبيرة في تحسّسها والاعتراف بها. لقد ساهمنا في إنتاج التخلف بدلاً من محاولة القضاء عليه.

ألكتاب الذي بين يديك يستحق المعاناة وصبر التأمل. إنه ينهك الأعصاب وقد يثير الرعب. ولعلّ أقلّ ما يقال فيه إنّه يحمل على التذمّر. ألقرآن حجر عثرة وسدٌّ منيع أمام كلِّ نهضة أو تطور. إنْ أقول إلاّ الحق، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وما كنتُ عليكم حفيظاً. لقد بلَّغتُ الرسالة، وأدّيتُ الأمانة. فاشهدوا. وأنَا معكم من الشاهدين. لقد أتيتُكم بسلطان مبين. فماذا تحكمون؟

إننا نتحدث كثيراً في ما لا ينفعنا ، ونسكت عما ينفعنا . أريد أن أكون صديقاً للقارئ. فما كتبتُ ما كتبتُ إلاّ بقلبٍ مخلصٍ يشتاقُ إلى التغيير، وإنّي لعلى استعدادٍ أن أموتَ على مذبح التغيير .

في الكتاب صورة تختلف عن الصور المتداولة في "السوق". أريد بناء عقليّة جديدة على أنقاض العقول السائدة. أريد أن أغرس نبتة من التفكير العلماني الحرّ المستقلّ الذي لا يخاف ولا يعبأ بالتضحيات والأضاحي. أريد أن أثير جوًّا ساخناً من الأسئلة والتساؤلات حول المأساة التي نتردّى فيها ، حول أصل الداء وحول ما يوصف له من دواء.

أنا لا أشجّع القارئ على أن يوافق على ما أقول موافقة

صمّاء، وإن كنتُ واثقاً من كلِّ ما أقول ومن أنَّ كلَّ كلمة أقولها هي كلمة محسوبة موضوعة في مكانها الصحيح. ولكن حرّية القارئ فوق ما أكتب وما أقول.

الإنسان العربي هو أكبر همّي. إنّ غاية ما أتمنّى أن أزجَّ بهذا الإنسان، لا في "تيار الحداثة" فحسب؛ بل و"في أتّون الحداثة"؛ لأنّ التيار لا يُطهّر، بل قد يكون ملوَّثاً ، وأمّا الأتّون فهو كفيل بإحراق جميع الشوائب. فالنار هي المطهِّر الأكبر. فلا تلوُّثٌ في النار.

لقد أخذت نفسي بالمغامرة والحدس والسؤال وأنا أكتب هذا الكتاب. إنّي أعمل وسط تزايد الإحساس بمخاطر لا تغيب عن عقل اللبيب وروحه. فالكتاب يواجه الأسطورة.

أإلى الله المشتكى؟! والله لا يطعم جائعاً، ولا يغيث ملهوفاً، ولا يرحم مظلوماً، ولا يشفي مريضاً؟! فهل تُراه يردّ على كسالى تبلّدَ حسُّهم كأمثالنا ؟ إنّ الصالحين أحق بالإجابة منّا ، ومع ذلك فهو لا يستجيب لهم؛ فما قولك بالطالحين ؟ هذا إذا صحّ وجوده، فكيف إذا كان عدم وجوده حقاً مبينا؟

لو كان وجودُ الله حقًّا مبينا لكان لوجوده أثرٌ ما في أحداث هذا العالم الذي يجري كلُّ شيء فيه كأنّ اللهَ غير موجود . يقولون إن الإنسان مفطور على الإيمان بالله، فالإيمان به بديهي لا يسع الإنسان أن يشكّ فيه ، ويحتجّون لذلك بهذه الآية: "أفي الله شكٌّ فاطرِ السموات والأرض؟" (١٤ /١٠).

نعم في الله شكوك وشكوك. فلو كانت معرفة الله حقيقة مقررة لا تقبل الشكّ، لو كانت مغروزة في النفس بالفطرة، لما احتيج إلى مئات الآلاف من الكتب والفلسفات والديانات لإثبات وجوده، وبالتالي لما شكّ أحدٌ في وجوده.

هذا ولم يتخلّص لي الحقُّ الذي انتهيتُ إليه إلاّ بقراءة القرآن، لا قراءة تعبّد تزيد الأعمى عمًى، بل قراءة تحليل وتركيب وموازنة ومقارنة ومعارضة وشكّ ونقد وتقويم وتتبع كلّ آية فيه ، واستنطاقها على حدة ، وربطها بغيرها من الآيات . وذلك بعد فهرستها وتبويبها وتقسيمها إلى موضوعات، وألحقت كل آية بالموضوع الخاصّ بها.

فمرجعي الوحيد هو القرآن ولم أرجع إلى شيء آخر غير ه . ولم يَفتْني بطبيعة الحال الرجوعُ إلى أقوال المفسّرين وآرائهم، في هذه الآية أو تلك، مستأنساً بها رافضاً لأكثرها. ولم أعلن أي نتيجة من النتائج التي تمكّنت من الوصول إليها إلاّ بعد توثيقها بالآية المطلوبة مشفوعة -ما أمكن- بآيات أخرى مشابهة لها.

لقد كانت دراسة ممتعة حقاً خرجتُ منها بنتائج غريبة حقًّا لم أكن أتوقّعها وإن كان لديَّ إحساس غامض بها منذ راهقتُ البلوغ قبل بلوغ العشرين وأنا على مقاعد الدراسة في عنفوان الصبا وريعان العمر ، فكنت كلّما سألتُ شيوخي عنها أنكروا عليّ السؤال، وحذّروني من الزيغ والضلال. وكنت إذا حظيت بجوابٍ ما مِن أحدهم أحسستُ في كلامه التكلّف. ومع ذلك فقد كنتُ متصوِّفاً عميقَ الإيمان -يا للمفارقة- ولم أقرّر إلاّ أخيراً أن أتولّى الأمر بنفسي.

لقد مررتُ بأزمةٍ حادّة خانقة في بداية السبعينات من عمري، كانت منطلقاً لصراعاتٍ مختلفةٍ تفجّرتْ في نفسي، ومنعطفاً خطيراً قَلَبَ نظامَ حياتي رأساً على عقب. وبعد تردّدٍ كبيرٍ وحرَجٍ أكبر، رأيتُ نفسي أهلاً لوضع كلام يؤثَر عنّي ويُذكَر. وقلت لنفسي هلمّ أصدع بما تؤمر. إنّك على الحقِّ والحقُّ أولى بالإتباع وأجدر. فأقدمتُ مصرًّا على تنفيذ مشروع هذا

الكتاب، غير وجلٍ ولا متحفِّظٍ ولا هيّاب، نزولاً على إلحاح المتنوِّرين الثوريِّين من الصحاب والأصحاب، رغم ما سيجرّه عليّ من الأنواء والعواصف وهجمات الذئاب. فإذا أردتَ أن تكون رجلاً فعش في خطر. ذلك فصل الخطاب !!

الكتاب طرحٌ جديد للمشكلة القرآنيّة من منظورٍ ثوري. ولكنّه ليس خاتم الكلام ولا فصل المقال، ولا نظريّة كاملةً. وإنما هو اجتهاد يغري بالمشاغبة والنـزاع. يضاف إلى كتب أخرى أثارت الشغب وألقت ببعض الأحجار في المياه الراكدة، وهو ينتظر اجتهادات أخرى تالية أكثر شغباً، مدعومة بالشواهد والبيّنات والتحليل الشمولي، لتكون أساساً لوعي عقلاني نقدي ومنهج عمل مستقبلي واعد.

والآن، وقد بلغ الكتاب أجله أدفع به إليكم ليشقَّ طريقه اللاهب، ويواجه مصيره وحده، في عالم مشحون بالقوى وصراع القوى ومضادات القوى. فإنْ وجدتم فيه ما لا يُرضيكم فأستميحكم العذر، إنْ أريدُ إلاّ الإصلاح. وأفوّض أمري إلى التاريخ. وعاجلاً أو آجلاً سيحاسبني التاريخ.

وفي الختام دونكم الكتاب. فرِفقاً بالكتاب. وداعاً أيّها الكتاب!!

الفصل الأول

رحلتي من الإيمان إلى الشكّ

مقدِّمة

أنا على كرسي الإعتراف، فَمَنْ جلس على هذا الكرسي فليذكر ما له وما عليه . وقد التزمتُ بذلك حرفيًّا في هذا الكتاب، وفي هذا الفصل الذي أعلنت فيه **"رحلتي من الإيمان إلى الشكّ"**، وذلك ردًّا على كتابٍ تهريجي موضوعٍ للعامّة ظنّ فيه صاحبُه[1] أنّه بلغ فيه غاية المنى، ألقَمَ به جميعَ الشكّاكين والمتشكّكين من الخاصّة، لا حجراً واحداً، بل كلَّ أحجار الدنيا والعالمين، وأعني به كتاب **"رحلتي من الشكِّ إلى الإيمان"** . فليهنأ بهذه الرحلة التي وضع بها الأمور في نصابها، وأعاد الحقوق إلى أهلها !

من واجبي منذ البداية وقبل كلِّ شيء أن أنبّه القارئ إلى نشأتي وقاع تفكيري منذ راهقتُ البلوغ -بل قبل ذلك بزمان- حتّى قاربت سنّي الثمانين، لأشركَه في حَيرتي ومعاناتي واضطرام نفسي .

فقد نشأت نشأة المسلم المتحمّس، وترعرعت في أعطاف الدين والهدى، وكان طموحي، بل أكبر أحلامي، التبشير بالإسلام في بلاد الهند . ولا أدري وأنا أفكّر الآن في ذلك، لِمَ اخترتُ بلاد الهند دون غيرها للحنيفيّة البيضاء ! فأنا غارق في الدين من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي، فكنتُ منقطعاً للصلاة والعبادة وحضور حلقات الذِّكْر . وكنتُ لا أغادر مجلسَ علمٍ أو وعظٍ في أحد المساجد إلاّ لأحضر مجلساً آخر، لأجمعَ العلم من أطرافه، والدينَ من مظانّه، وأكونَ القدوة والأسوة والمثَل .

---

1 مصطفى محمود.

بل لقد ابتُليت بعد وفاة والدي بأنْ أنضمَّ إلى هيئة علماء المدينة، حفاظاً على العلم "الشريف" الذي ورثتُه كابراً عن كابر، وإشفاقاً عليه من أن يندثر في أسرتي التي ظلّتْ راعيةً له طوال خمسة قرونٍ على الأقلّ . وقد قمتُ بنصيبي الكامل في الوعظ والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيّما أيام الجمعة، وسائر المواسم الدينيّة المعروفة، بل في بعض المناسبات غير الدينيّة أيضاً .

وبي انتهى السلف "الصالح" . فأنا آخر العنقود من خدّام العلم "الشريف" في أسرتي، والثمرة الأخيرة من الدوحة التي طالما أمدَّتْ دمنهور بالعلماء والفقهاء والخطباء والقضاة والأئمّة والمؤلِّفين في الأوراد والأذكار وعلوم الدين المختلفة . ولا يبدو أنّ أحداً من أسرتي اليوم يتطلّع إلى وصلِ ما انقطعَ بي . فقد أصبح الدينُ بضاعةً كاسدة في هذه الأيّام والعياذ بالله تعالى !

وثالثة الأثافي التحاقي بالأزهر "الأنور"، وتلقّي العلم "الشريف" فيه . وكم طاردوني هناك وألحّوا عليّ بوجوب وضع العمامة ولبس القفطان ! ولكنّ الله سلّم . فحسبي ما عانيتُ منهما، تزيّنهما لحيةٌ كثّة ووجهٌ مهيب ! ولا أزال أحتفظ بذكريات "طيّبة" لشيوخي وزملائي القدامى من "الزُهر الأزاهير"، رضوان الله عليهم ونفَّعنا ببركاتهم. فهم الذخر والذخيرة، والمؤونة والخميرة!

والحقّ، لقد أُصبتُ بخيبة أمل عندما دخلتُ الأزهر، ولذلك غادرتُه في السنة الثالثة، أي قبل التخرج بعام واحد . وأنا غير آسف . وقد نصحني الكثيرون حينئذ بأن أُكمل دراستي الدرامية المشؤومة لنيل شهادة المماحكات الفارغة والعبث بالألفاظ والمعاني، وكان يمكنني بهذه الشهادة دخول السنة الثانية في كليّة الآداب بجامعة فؤاد الأول .

وكان ذلك في أوائل الأربعينات على عهد الشيخ المراغي . لقد ضقتُ بدراساتهم ذَرعاً حتّى لم أعد أحتمل المزيد، لقد أضعتُ ثلاثة أعوام من عمري ذهبتْ هدراً . فلماذا أضيف عاماً رابعاً، لا لشيء إلاّ للحصول على ورقة أنيقة الطباعة. زاهية الألوان، جميلة المظهر، تافهة المخبر، عديمة المضمون، هزيلة المحتوى، تُذكّرني كلَّ لحظة بالأيام الضائعة والأوقات الفارغة، والآمال الخائبة، والمعاناة القاتلة .

وكان طلاق بالثلاث وكان فراق، هذا مع أنّي كنت ملتحقاً بأرقى كلّيّة من كلّيّات الأزهر آنذاك، وأقربها إلى نفسي، وهي كليّة أصول الدين بشبرا ... ولكنّ الأزهر هو الأزهر !

أوّلاً - مرحلة الإيمان

في وجهي سيماء تدلّ عليّ لا يخطئها البصر، هي أوّل ما يبدو منّي ويبرز من ملامحي، تلك هي التي أشار إليها القرآن الكريم : "سيماهُم في وجوههم من أثَر السجود" (٤٨ / ٢٩). إنّها تلخّص دهراً من الصلاة والتهجّد والدموع والخشوع والعبادة والتوبة والاستغفار والمجاهدة ومحاسبة النفس .

لقد كانت الصلاة قرّةَ عيني وغايةَ مهجتي . فيها جلاء قلبي وصفاء روحي وسكينة نفسي . لقد كان قلبي معلَّقاً بالله لا يغفو عنه طرفة عينٍ ولا يطيق فراقَه . وكان مهيَّئاً دائماً لاستقبال فيضه النوراني .

وبالفعل، فقد كانت تحملني ريحُ التصوف إلى ذراه العالية، أستشرفُ منها عالم الملكوت أويقاتٍ أغتصبُها من بطن الزمن، يكتنفني فيها إحساسٌ غامر لا يصفه بيان، وينعقد دونه اللسان، وتتمرّد فيه الكلمات على الشفاه، ولا تدخل في طاعة السطور !

لقد حاولتُ عبثاً أن أخترق هذا النور الساطع الذي يفجّر كلّ شيء، أو أن أكون جزءاً منه، أو ذرّة من هذا اللُّجَيْن الذي يتلألأ كأنّه كوكب درّي. بحيرات من البلور الصافي تملأ الأفق المفتوح، ناعمةً تكاد من ذراها تترقرق نهراً مشعشعة بالنور . مرايا لا يرى المرء فيها وجهه فقط، بل يرى الأكوان والأزمان، ومواكب العصور والدهور. في هذه الساحة اللألاءة أقف دهشاً مبهوتاً يملأني شعورٌ طاغ بالحسرة والأسى، لأنّي لست رسّاماً ولا شاعراً، فأسجّل ما أنا فيه من بهجة وحبور ! ومَن يدري ؟ فربما

حتّى لو كنت شاعراً ملهَماً لتمرّدتْ عليّ حروف اللغة التي أتقنتُها دهراً فتهرب منّي لحظة واحدة .

ولا غرو، فلربما كان من شأن ذلك الجمال الروحي الخالص، ذلك المشهد الملكوتي السرمدي أن يورثني عُقلةً في اللسان يقف أمامها نُطُس الأطباء مكتوفِي الأيدي، بل هذا ما هو حاصل بالفعل . فهناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . إنّ كثيراً من الأمور التي قد تخطر على قلوب البشر يتعذّر وصفها . فكيف بأمرٍ لا سبيل إلى خطوره على القلب، ولا هو من عالمه، ولا من طوره ؟

وزبدة القول، إنّ تلك الحالات التي كانت تتجلّى لي في لحظات الإشراق هي مما لم يقم ببالِ أحد . فمن رام التعبير عنها فقد رام مستحيلاً !

إنّ ذلك كلّه كان يستغرق منّي لحظات قليلة، لا ألبث بعدها أن تعود إليّ حواسي، فأصحو من حالي تلك التي تكون في العادة شبيهة بالغشي . وهكذا تزلُّ قدمي عن ذلك المقام، ويلوح لي العالم المحسوس كأنّه مرآة صدئة قد ران عليها الخَبَث . لقد اخترق قلبي هذا الجمالُ الإلهي الذي كنتُ أشاهده، وأعادني إلى الفطرة التي خلقني الله عليها، وولج بي إلى الطبيعة البكر من خلال أفق مفتوح على التصوف وعالم الروح، بكلِّ ما فيه من خشوع ودموع وتبتل واستغراق القلب بذكر الله وإفراغه من كل ما سواه .

وهكذا بدأت رحلتي الصوفيّة، وأقبلتُ بهمّتي ومبلغ طاقتي على طريق الخيار الصعب . فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيَها فليسلك طريق التصوف، "فالصوفيّة، كما يقول الغزالي[2]، هم السالكون لطريق الله خاصة". لقد كانت روحي بحبّ الله سكرى،

2 ألمنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، ص ١٠٣.

وبتنسّمِ نفحاته نشوى . وكلّ غايتي إنما كانت أن يتحقق وجودي في الوصول إلى الله وأن أحظى بلقائه . فلا حق ولا خير ولا جمال. كلاّ. ولا محبوب إلاّ الله، وكل ما عداه سبحانه أثر من آثاره، وعطر من طيب جوده، وذرّة من خزائن قدرته، ولمعة من أنوار حضرته .

تاهت العقول في بحار جلاله، وحارت الأذهان في لألاء جماله. إحتجب عن الأبصار وهو الظاهر في وضوح آثاره، وتجلّى للأفهام وهو الباطن في خفايا حكمته وأسرار كماله . وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ويلهج بذكره . فقد أوحى الله تبارك وتعالى إلى جميع مخلوقاته أن تسبِّحه بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال . ومَن لا يحرِّكه الربيع وأزهارُه، ولا يهزُّه العود وأوتاره، فهو أصمُّ أبكمُ فاسدُ المزاج، وأعمًى مريضٌ ليس له علاج !

كنتُ متيَّماً بحبِّ الله متحرِّقاً إلى وصاله، أتلظّى بنار الشوق إليه وأوار العشق لذاته، أراه في كلِّ شيء، وأسمع صوته يناديني في كلّ مكان ! لم أترك باباً للتقرّب إليه إلاّ طرقته، ولا عملاً يرضى به عنّي إلاّ فعلتُه، بأقصى ما يتطلب منّي ذلك من التقوى والخشية والإخلاص في العمل بما يليق به سبحانه.

وكنتُ دائم الذكر له، مقبِلاً عليه، متضرِّعاً إليه، شاكراً لأنعمه الظاهرة والباطنة . وكنتُ كثير التوبة والاستغفار والبكاء والندم على ما فرّطت في جنب الله . لقد كنت مراقِباً له في جميع حركاتي وسكناتي، بل وجمحات قلبي وخلجات نفسي . فهو مطَّلع عليّ يعلم سرّي وعلني، فإذا لم أكن أراه فهو يراني، "يَعلَم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور"[3]. وكنتُ أحمده في السراء والضراء

3 سورة غافر ٤٠ / ١٩.

وحين البأس، وكنتُ أصبر وأصابر، فإذا أصابتني مصيبة قلت : "إنّا لله وإنّا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربِّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون"[4].

وكان الليل فرصتي الذهبيّة للدعاء والبكاء، والذكر والفكر والمناجاة والعبادة، والتوجّه إلى الله تضرّعاً وخيفة، وزجر النفس الأمّارة بالسوء . بل لقد ذهب بي الورع والتشدد والوسواس إلى حدٍّ أني لم أكن أسأل الله شيئاً إلاّ بعد محاسبة عسيرة للنفس على ما قدّمتْ وأخّرتْ . فقد كنتُ أستحي أن ألقى الله وعليّ شاهد بذنب !

ولا مجال هنا أبداً للادّعاء أو الغلوّ أو المبالغة، فسيماء السجود في وجهي تغني عن كلّ ذلك، فهي أكبر شاهد على ماضٍ يعبق بالدين، وقلب يعمره الإيمان .

وبينما كان الناس يكتفون من الصلاة بالفرائض، وقد تزيد عليها قلّةٌ منهم بعضَ السنن، لبعض الوقت، فقد كانت كلُّ صلاةٍ تتطلّب منّي أكثرَ من ساعة، لما أُضيفُ إليها من أذكار وأوراد وأدعية ونوافل. فكنت أصلّي مثلاً صلاة الشكر (ركعتين)، وصلاة الحفظ من كلِّ سوءٍ (ركعتين)، وصلاة التوفيق (ركعتين) .

وكنت مغرماً بصلاة السّحَر قبل صلاة الفجر، لأنّه وقت استجابة الدعاء . فقد جاء في الحديث الشريف في فضيلة صلاة السّحَر : "إنّ الله يهبط إلى سماء الدنيا وقت السّحر فيقول : هل من داعٍ فأجيبه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر" .

وكنتُ لا أسأل أحداً إلاّ الله، عملاً بالحديث الشريف: "يا بُنَي! إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، واعلمْ أنّ الأمّة لو اجتمعوا عليك ليضرّوك، فلن يضرّوك بشيء لم يكتبْه الله

4 سورة البقرة ٢/ ١٥٧.

لك، ولو اجتمعوا عليك لينفعوك، فلن ينفعوك بشيء لم يكتبْه الله لك . جفّت الأقلام، وطُويت الصحف" .

وكنت أحمد الله وأشكره على هذه النوافل والأذكار، لأنّه اختارني لهذه الساعات العذبة الطويلة أنتزعها من حياتي اليومية انتزاعاً أخلو فيها به سبحانه وأشكو فيها بثّي وحزني إليه، وأمحضه حبّي وعبوديّتي .

وكنتُ لا أُقبِل على طعام أو شراب أو حركة، ولا أذهب إلى عيادة طبيب أو زيارة صديق، ولا أدخل بيتاً ولا أخرج منه، ولا أقابل مسؤولاً ولا ألقي كلمة أو مداخلة ... إلاّ بعد ذكر اسم الله واستخارتِه والتوكّلِ عليه وطلبِ التوفيق منه .

وكان من عادتي أنّي إذا رأيتُ مريضاً أو ذا عاهة أحمد الله على سلامتي وأدعو له بالعون والشفاء . وكنتُ على يقين وثقة تامّة بأنّ مَن أحبَّ الله وأخلص له فقد ملك العالم . بل لقد اعترتْني لحظات أحسست فيها حضور الله فيّ وحضوري فيه، وأني جزء منه وهو جزء مني، فَمَنْ أقوى منّي وأعزُّ في هذا العالم؟! وذكرت الحديث القدسي الشريف: "ما يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ يدَه التي يبطش بها، وعينَه التي يبصر بها، وسمْعه الذي يسمع به" .

وكنتُ إذا أقدمت على عمل ونجحت فيه أعزو الفضل في ذلك إلى الله . وإذا فشلت فلا ألوم إلاّ نفسي وأسأله تعالى التوفيق . وكنت في الحالَيْن أحمده وأشكره وأعوذ به من شرِّ نفسي وسيّئات أعمالي . وفي هذه الحال كنت أتذكر قوله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون" (٢/ ١١٦) . فهو وحده سبحانه علاّم الغيوب. وهكذا تطمئنّ نفسي بذكر الله "ألا بذكرِ الله تطمئنُّ

القلوب" (١٣/ ٢٨)، متأسِّياً في ذلك بالأنبياء والصالحين، وحبيبه المصطفى سيّد المرسلين، وخاتم النبيّين، وخير الناس أجمعين .

ثانياً - مرحلة الامتحان

والآن جاء الإمتحان، ففي الإمتحان يُكرم المرء أو يُهان . هوذا الإمتحان الصعب، الذي تنكشف فيه حقيقة الرب والوعود التي لطالما أغدقها علينا الرب ! لقد اقتربت ساعة الحسم، فإمّا أن أستمر في الرجوع إلى الله والاتكال عليه، وشحذ الهمّة للوصول إليه، وتوزيع أوقاتي على وظائف الخير والعبادة، من تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب، وإدامة الصيام والقيام وسائر الفروض والعبادات، وإمّا أن أقطع الحبل بيني وبينه .

فقد وقعتُ في أزمات وشدائد، وركبتني ديون وهموم وغموم لا مخرج منها . لقد أقفلتِ الدنيا في وجهي وانسدّ أمامي كلّ أفق. فلم أترك باباً إلاّ قرعته، ولا طريقاً إلا سلكته . لقد "أَزَفَتِ الآزِفةُ. ليسَ لها مِن دُون الله كاشفةٌ" (٥٣/ ٥٧-٥٨) . ثمّ لمّا أحسستُ بعجزي، وسقط بالكليّة اختياري تذكّرتُ قولَه تعالى: "أم مَنْ يُجيبُ المضطَرَّ إذَا دَعاه ؟" (٢٧ /٦٢) . فقلت :

أللّهم إنّي ألتجئ إليك التجاءَ المضطرِّ الذي لا حيلة له فأجبْني . أللّهم ارحم ضعفي، وفرّج كربي، ويسِّر أمري . أللّهم لا تدع لي ذنباً إلاّ غفرتَه، ولا كرباً إلاّ فرّجتَه، ولا حاجةً إلاّ قضيتَها . يا هو، يا هو، يا ذا الجود والإحسان، ويا ذا الجلال والإكرام، أنتَ ظهر اللاّجئين، وأمَان الجائعين، ومُغيث المستغيثين، ومُجيرُ المستجيرين، ومُجيبُ دعوة المضطرِّين ! لقد ذهب الناس إلى مضاجعهم، وهجعوا في بيوتهم، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه . وأنت حبيبي، يا أحبَّ محبوب، أنتَ أملي وغايةُ مطلَبي. يا مَن قلتَ ووعدُك الحقُّ: "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكم" (٤٠/ ٦٠).

إستجبْ دعائي، فقد جئتُك مسبِّحاً متبتِّلاً، مقرًّا بعجزي، معترِفاً بذنبي . أقف ببابك مستغيثاً مسترحِماً، فارحمني يا أرحم الراحمين !

وهكذا أفرغتُ كلَّ ما في جعبتي من أدعيةٍ وتضرّع واستغاثة -أنا بها خبير بصير- كفيلة وحدها بتذليل جميع العقبات التي تقف في وجهي، بل بزلزلة الجبال مِن حولي، فكيف إذا أضفتُ إليها صدقَ النِّيَّة، وصالحَ العمل، والإخلاص للّه وحده . هذا فضلاً عن السعي الدائب وكمال الجدِّ في الطلب حتى انتهى إليّ العجزُ وسقوط التدبير .

يا إلهي! إستمع إليّ مِن قلب الجوع، من قلب الحاجة، من قلب الحرمان . من قلب المعاناة، أناديك . لقد تراكمتْ ديوني وعظمتْ كثيراً، إلهي؟ لقد ادّخرتُك لهذه الساعات السوداء، كيف أقضي هذه الديون ؟ هل أبيع بيتي وهو كلُّ ما أملك؟ أين عساي أسكن أنا وعائلتي إذن؟ يا مَن عندك خزائن السموات والأرض "وللّه خزائن السموات والأرض" (٦٣/ ٧)، "وإنْ مِن شيءٍ إلاّ عندَنا خزائنُه" (١٥/ ٢١). أللّهم تكفيني سنبلة واحدة من السنابل السبع التي وعدتَ بها مَن ينفق ماله في سبيلك "مَثَلُ الذينَ يُنفِقونَ أمْوَالَهم في سَبيلِ اللهِ كَمَثَل حبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابل، في كلِّ سُنبُلَةٍ مَائَةُ حبَّةٍ، والله يُضاعفُ لمَنْ يَشاء. والله واسِعٌ عليم" (٢ /٢٦١).

وابتهلتُ ثمّ ابتهلت، وجاء الإبتهال نحيباً، مناجاة، همْساً متواصلاً خفيضاً، وأدعيةً خاشعة، تطلب العون والرحمة والمغفرة. وعندما تأمّلتُ دعائي وجدتُه مُلِحًّا في طلب الدنيا، رغّاباً في وفاء الدين والتوسعة في الرزق وطلب المال والغنى . فلم أكفّ عن الابتهال والدّعاء . وأخذت أعتذر عن الدنيا التي أحملها فوق ظهري فأنوء بها وتنوء بي . وسقطتُ منهوك القوى

تسيل مدامعي، وأنا في حالة من الضعف والإعياء تتقطع لها نياط القلب !

وانتظرتُ ثمّ انتظرتُ، عسى الله أن يأتي بالفرج. ولكن عبثاً . وأخذتِ الشكوك تستيقظ في نفسي بعد أن كانت هاجعة مقموعة . لقد تجدّدتِ الشكوك وذرَّ قرنُها مرّة أخرى لتفتنَني في ديني . ولا أخفي أنّني عندما أخذتْ هذه الشكوك تتناوشني كنت أشعر بشيء من وخز الضمير والبعد عن الله الذي طالما أحببتُه ونذرتُ له حياتي .

تُرى هل تخلّى الله عنّي في أحلك ساعاتي؟ لقد بذلتُ الكثير لقمع هذه الشكوك ابتغاء مرضاة الله، فما له سبحانه يُخزيني؟ ومع أنّي بدأت أفقد الأمل ألقيتُ بنفسي بين يديه، وتوجّهتُ إليه بهذا الدعاء الذي كنت أخشى أن يكونَ الأخير : أللّهم! أدركْني، أللّهم! لا أطيق فراقك، أللّهم! أخاف الإنزلاق الذي لا ترضاه لي ولا أرضاه لنفسي، أللّهم! أنا على شفا جرف هار، أللّهم! أنا على شفا حفرة من النار، فأنقذْني منها يا عزيز يا جبّار .

وكم تجدّدتِ الدموع! وكم تجدّد الدّعاء والإبتهال! بل لقد لاحظتُ بعد هذه الأدعية والإبتهالات -ويا لَهول ما لاحظت- أنّ الله يستجيب بالمقلوب، فلعلّه سبحانه لا يفهم العربيّة جيداً . فبأي لغةٍ أتحدّث معه ؟ هل هذا معقول ؟ لا أدري . مع أنَّ لغة آدم هي العربيّة، ولغة أهل الجنّة هي العربيّة أيضاً . فلعلّ عربيّة آدم غير عربيّتنا ؟ أم لعلّه لا يسمعني ؟ مع أنّه سبحانه يسمع دبيبَ النملة السوداء على الصخرة الصمّاء، في الليلة الظلماء . أم هو يتصامٌّ عنّي لأسباب أجهلها ؟

ومَن يدري ؟ فقد يكون دعائي مجموعة من الأصوات الناشزة تؤذي أذنيه عزّ وجل . وإلاّ فما معنى أنّني كلّما كنتُ

أقترب منه كان يبتعد عنّي ؟ ألا يدلّ ذلك على أنّه لا يريد سماع صوتي ؟ أم إنَّ الأمر لا يهمّه أساساً، لأنّي لا أعدو أن أكون بعوضةً في هذا الكون، ولكنّني أعطيت نفسي حجماً أكبر منّي ؟

والغريب أنّ الفراق بيني وبينه لم يشتدّ إلاّ بعد قولي له "لا أطيق فراقك"! أم لعلّ "لا" النافية كانت تخرج من لساني مختنقة بالدموع فلم يسمعْها ؟ هل يمكن أن تكون كلمة "أطيق" و "فراق" لهما عنده معنى آخر غير المعنى الذي لهما عندنا ؟ أم إنّه سبحانه لا يحبّ الكلام المحدَّد والمحدود المعاني؟! وقد يكون هذا ما يفسّر لنا أخيراً وجودَ آيات في القرآن عجيبة غريبة مشحونة بالكلام الفضفاض المتناقض، واللفظ المرصوف المقفّى الذي لا معنى له والذي استطاع مفسِّرونا الثرثارون أن يكتشفوا له ألف معنى، وألف حكمة، وألف بلاغة، وألف إعجاز، كما سنرى في حينه ؟!

ثالثاً - مرحلة الإعصار

وما أنا حتّى عصفتْ بي هدأة الذهول وتملّكتْني الحيرة . وما أنا حتّى هبّ في نفسي الإعصار، وتداعى في متناول الإعصار كلُّ ما كان في نفسي قائماً ثابتاً . وبقيتُ مدّةً أعاني من أعقد أزمات الفكر وأشدها وطأة . فإنّ التشكّك في الموروث الديني والثقافي خطوة جريئة لا بدّ منها لبناء عقليّة جديدة، وفكر جديد، إذ الشكوك هي الطريق إلى الحقائق . "فمَن لم يشكّ لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلالة"، كما يقول الغزالي[5].

يا لَخيبة أملي ! فإنّ جميع ما قدّمتُ في حياتي من صلاة وعبادة وخشوع ونسك في سبيل الله وابتغاء مرضاته ... كلُّ ذلك لم يظفر من الله -إذا كان لهذه الكلمة من معنى- أيَّ لفتة أو مبالاة . فله سبحانَه، على ما يبدو، همومٌ أخرى غير هموم هذه الحشرات البشريّة التي تدبّ على الأرض، بل حتّى غير هموم عباده المخلِصين الذين استثناهم إبليسُ من إغوائه والوقوع في حبائله عندما قال مخاطباً الله في جلاله : "فبعزّتِك لأُغْوِيَنَّهم أجمعين، إلاّ عِبادَكَ المخلَّصين"[6]، هؤلاء الذين حذّره الله سبحانه من الاقتراب منهم ومسِّهم بأيِّ سوء : "إنَّ عبادي [هؤلاء] ليس لكَ عليهم سلطان"[7] .

أقول حتّى هؤلاء الذين كنتُ واحداً منهم (وعلامة أو سيماء

---

5 ميزان العمل، ص ٤٠٩.

6 سورة ص ٣٨ /٨٣؛ وسورة الحجر ١٥/ ٤٠.

7 سورة الحجر ١٥ /٤٢؛ وسورة الإسراء ١٧/ ٦٥.

السجود لا تزال بارزة على وجهي لا تمحوها الأيام)، حتّى هؤلاء الذين وعدهم الله بأنهم "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون" في ثلاث عشرة آية[8]، لا يبدو أنّه سبحانه يعبأ بهم أو يقيم لهم وزناً . هذا إذا كان يحسّ بهم . يقول المفسِّرون الثرثارون إنَّ هذا الوعد ينسحب على الآخرة دون الدنيا، لأنّ الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ! وإذا صحّ ذلك فهل معناه أن يهملَهم الله في الدنيا حتّى يموتوا جوعاً وهو القائل : "ومَا مِن دابّةٍ في الأرض إلاّ على الله رزقُها" (١١ /٦)؟ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان؟

ومنذ ذلك الحين وأنا في دوّامة الشك . وبعد أن كنتُ أظنُّ أنَّ كلَّ توفيق أُصيبُه في هذه الحياة هو نعمة من الله أنعمها عليّ تستوجب منّي الشكر والحمد، أصبحتُ أنظر إلى هذا التوفيق على أنّه نتيجةُ سعيي الدائب وكدحي المستمرّ لبلوغ أمري والوصول إلى غايتي ليس للّه أيُّ فضل فيه .

ومعنى ذلك أنّي لم أعد أرى أيَّ أثر لقوله تعالى : "قل ما يعبأ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم" (٢٥/ ٧٧) . فالظاهر أنّه سبحانه لا يُعنى بالأرض ومَنْ عليها، ولعلّه لم يسمع بها في هذا الحشد الهائل من العوالم الحجريّة والسديميّة التي يكتظّ بها الفضاء، لا بداية له ولا نهاية، فله شواغل وهموم أخرى لا تسمو إليها مداركنا ولا شأن لها بآلامنا وأوجاعنا . هي أعظم كثيراً من شجون الحاج سعيد خمخم وأبي قاسم الطنبوري وأم غنطوس والسيّدة حليمة . فما له وهذه الضفادع والحشرات التي لا تفتأ تنقُّ وتملأ الأرض صراخاً كأنّها سيّدة الكائنات. وهذه عنها في شغلٍ شاغل؟!

---

8 رَ: ٢/ ٨ و٦٢ و١١٢ و٢٦٢ و٢٧٤ و٢٧٧؛ ٣ /١٧٠؛ ٥/ ٦٩؛ ٦ /٤٨؛ ٧/ ٣٥ و٤٩؛ ١٠/ ٦٢؛ ٤٣ /٦٨؛ ٤٦/ ١٣.

ويْحُ سُخفي وغبائي! يا لَبلاهتي! تُرى كم كنتُ ساذجاً عندما سمحتُ للأساطير أن تأكلَ عمري وزهرةَ شبابي! يا حسرتي على عمرٍ قضيتُه مع حبيبٍ لا يعبأ بي، ولم يشعر يوماً بوجودي! تبًّا لي وتعساً! كيف لم أكتشفْ ذلك وأرجع إلى رشدي إلاّ وأنا على أبواب أرذل العمر! ماذا دهاني؟! ماذا تبقّى لي من العمر لأشعر بمتعةِ وجودي؟! ليتني لم أعرف ذلك ! ويلٌ لمن عرف الحقيقة! طوبى للبله فإنّ لهم ملكوت السموات !!

والأنكى من ذلك، وحرصاً على العلاقة الفريدة بيني أنا المخدوع الذي كنتُ آخِرَ مَن يعلم وبين الحبيبِ الذي كنت لا أطيق فراقه، أنّي ذهبتُ في تفسير استخفافه بي وإعراضِه عنّي مذاهب شتّى . فتارة كنتُ أفسّر ذلك بأنّه نوع من الغنج والدلال، لعلّه يريد أن يبلوَني ويختبرَ مدى حبّي له . فكلّما صدّني كنت أزداد شوقاً إليه. لقد تغلّب فيّ الصبّ على الصدّ، والوجد على الردّ ! لم أصدّق يوماً أنّه يلهو بي . وهكذا سقطتُ في أسطورة الابتلاء التي ترددها الأديان كثيراً وتُعَوِّل عليها لابتزاز أتباعها وتعويدهم على الخضوع والاستسلام. وإلاّ فما حيلتي وهل أمامي أي خيار آخر ؟

والخلاصة، كم كنت بليدَ الحسّ عندما أخذتُ أفلسف المصيبة وأحاول كلّ يوم اكتشاف حكمة جديدة لها . واستهوتْني هذه الفلسفة، وغرقتُ في التصوّف حفاظاً على إيماني، وتخلّيتُ عن نفسي لأُبقي على ربّي، وأسكر بخمرة ربّي. آهِ! ماذا دهاني من ربي! آهِ! كم عانيتُ من ربّي، يا حسرتي على عمرٍ قضيتُه مع ربّي !!

وَيْحي، كم فلسفتُ المصيبة على طريقة "تنابلة" المؤمنين، وسخّرتُ كلَّ ثقافتي الفلسفيّة -وما أقدر الفلسفة على ذلك، فتاريخها في البحث عن الحقيقة والانغماس في تفسير الحقيقة، مليء بالدفاع

عن السُخف والعبث والهراء واللّعب بالألفاظ- كم سخّرتُ كلَّ ما أملك من مهارة وحذق ومغالطة وبلهوانية للدفاع عن المصيبة، واستخراج أقصى ما يمكن من الحكم والعبر والدروس منها ! فكنتُ إذا أصابَني مكروهٌ، أو لحق بي ظلمٌ، أو حزبني كربٌ وغمٌّ، أعتمد على السجود والتضرّع واللجوء إلى الله والابتهال إليه . وانطبع ذلك على جبهتي سيماء لا يخطئها البصر أبداً .

وكنتُ أتأسّى دائماً بالأنبياء والمرسلين والصالحين، وأقول لنفسي : إنّ المصيبةَ تعيد الإنسان إلى الله . فالمؤمن مبتلى . ثم أذكر قوله تعالى : "أحَسَبَ الناسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنون؟" (٢٨/ ٢)؛ وقوله عزّ من قائل : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشيءٍ مِنَ الخوفِ والجوعِ ونقصٍ مِن الأموالِ والأنفُسِ والثَّمَرَاتِ، وَبَشِّرِ الصابرِين، الذينَ إذا أَصَابتْهم مُصِيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليهِ راجِعون . أولئكَ عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ. وأولئكَ هم المهتدون" (٢/ ١٥٥-١٥٧) .

بل لقد بلغ بي الترحيبُ بالمصيبة وشكرُ الله عليها مبلغَ الصوفيّة . فكنت أذهب مذهبهم وأقول على طريقتهم بأنّ المصيبة معصية عُجِّلتْ عقوبتُها في الدنيا، حتى نلقى الله في الآخرة وليس علينا شاهدٌ بذنب !! لقد نسيتُ ولعلّي قد تناسيت -ولي مصلحة في هذا التناسي كما سنرى بعد قليل- أنّ المصيبة، إذا كانت تعيد الإنسان إلى الله أحياناً، فإنّها في أحيان أخرى تبعدُه عنه أيضاً . ألمصيبة طريقٌ إلى الله، وهي أيضاً طريقٌ إلى الشيطان !

لقد كنتُ دائماً أحمد الله على عافيتي و "سلامتي" من الأمراض، وكنت أقول لنفسي : إذا كان سبحانَه قد حرمني المال فقد أعطاني خيراً منه وهو الصحّة والعافية . فالصحة لها ثمن، وما بالي نسيت هذا الثمن ؟ فهذا فلان الغني من مدينتنا قد ذهبَ

إلى أوروبا أو أمريكا للاستشفاء، وأنا لا أملك أجرة الطريق إلى أيٍّ منهما، فما قولك بأجور الأطباء، وأثمان الأدوية ونفقات المستشفى ؟

إحمدِ الله يا بُنَي، إحمد الله ! نعم يا بُني، إنّ هذا غنيّ، ولكن ما أغنى عنه ماله وما كسب ؟ فكلُّ ثروته قد انتقلتْ إلى حسابات الأطباء والمستشفيات والصيادلة والمصارف، مع ما تَدُرُّ عليهم من فوائد تكفي وحدها لنفقات عائلات كاملة تعيش في حزام البؤس في إحدى مدن الصفيح المتناثرة في أطراف العواصم الكبرى في بلدان العالم الثالث .

أذكرْ يا بني أيضاً ذلك الغني المصاب بالسكّري الذي يعيش على مقربة منك في نفس الحي، إنّه يشتهي طبَقاً من الحمُّص والفول المدمّس، وهو يمتلئ غيظاً كلّما رأى عمّالَه يُقبلون على هذا الطعام بشهيّة بالغة . فهل أغنى عنه ماله من الله شيئاً ؟ إحمد الله وكنْ من الشاكرين . وهكذا فلا أملك إلاّ أن أحمد وأشكر .

ونسيتُ في نشوة إيماني الصوفي -ولا أدري ما إذا كنت قد تناسيت- عدداً لا يحصى من البشر منحهم الله الصحة والعافية، إلى جانب المال والجاه والرفاه ! كما نسيتُ كذلك أنّ الله، إذا كان قد نجاني من بعض الأمراض، فقد أصابني ببعضها الآخر . وحسبي أنْ أُجريتْ أربع عمليات جراحيّة لعيني كان أخطرها الانفصال الشبكي، كما أُجريتْ لي خمس عمليّات لرجلي وأنا دون البلوغ، وبعد وفاة والدي تولّيت ذلك بنفسي . وكانت آخر هذه العمليات في مستشفى ليوبولد بلان بباريس سنة ١٩٥١ . وقد أورثتْني هذه العمليّات المتكررة هشاشةً في القدمَين لا تحتملان فيها أيَّ صدمة تالية . فضلاً عن أنّ جميع هذه العمليّات لم تستطع إصلاح ما تبقّى من عَرَج . ولذلك لا أزال حتّى الآن أجد بعض

الصعوبة في المشي الطويل، غير أنّي تأقلمت لهذا الوضع الجديد بحكم الإلف والعادة .

وإذا كان أمري كذلك فعلام أحمد الله وأشكره ؟ كلّنا في الأمراض سواء .

وأما بخصوص جارنا الغني الذي حرمَه الله الصحّة ووهبَه المال فهناك مرضى آخرون لا حصر لهم محرومون من الصحة والمال؛ ومع ذلك، لا يعانون فقط من السكّري أو السرطان أو ضغط الدم، أو منها جميعاً، أو من غيرها من الأمراض الوبيلة، بل لقد بلغوا فوق ذلك مستوى من الفقر لا يستطيعون معه دفع أجرة استشارة الطبيب، فضلاً عن شراء الدواء، فيتحاملون على أنفسهم ويجلسون على قارعة الطريق، أو يقفون على أبواب المساجد، أو يدقّون أبواب البيوت إذا أطاقوا ذلك، وإلاّ أنابوا عنهم نساءهم وأولادهم يتكففون الناس ويسألونهم المعونة والإحسان !

رابعاً - مرحلة البحث

أذكر أنّي في تلك الأثناء أحسست ببعض الميل إلى المسيحية. بل لقد خطر لي اعتناق هذه الديانة الروحانيّة السامية، لولا أنّي لا أطيق أبداً ما فيها من تثليث، وصلب، وفداء، وتجسّد، وقربان، وتقبّل المسيح للإهانة والضرب والصفع والبصق من غير أن يبدي أيَّ مقاومة، واكتفائه بالتهديد بأبيه الذي لم يفعل له شيئاً. فأين كرامة الله الذي أوذي في إبنِه الوحيد الذي أحبّه ؟

كما لم أفهم أيضا ً سكوت المسيح المطبَق أمام الحكّام والمسؤولين الرومان وانطلاقه في الكلام بغير حساب مع تلاميذه الدراويش الفقراء، وإغداق الوعود عليهم، لا في هذا العالم فقط بل وفي ملكوت السموات . ممَّ يخافُ وهو الله أو إبنُ الله كما يقولون ؟ لا أدري أيّهما . ولا هم يدرون.

ألوهيّة مشلولة عاجزة عن الدفاع عن نفسها تكتفي بالتهديد بأبيها، بل تدعو الآخرين إلى نشر رسالتها، ثمّ تفرّ إلى أبيها الذي تخلّى عنها ! ثمّ ماذا قدّم المسيح للإنسانيّة في نزوله على الأرض واختلاطه بالناس، وشفاء الصمّ والبكم والعمي وإحياء الموتى وغير ذلك من المشاهد الفلكلوريّة ؟ هل خفّف ذلك شيئاً من بؤس البؤساء وجوع الجياع وظلم المظلومين وجبروت الجبارين ؟ كلّ ما فعله المسيح هو التبشير بالضعف والبكاء . لقد طفق يبكي مع الباكين، لقد زادوا به باكياً جديداً من غير أن يقدّم لهم شيئاً يوقف هذا البكاء ويمسحون به دموعهم !!

ثمّ إنّ المسيح لم يكن رجلَ كفاح ونضال، بل زجّ بتلاميذه في

المعارك والحروب، وهرع مسرعاً ليجلس إلى يمين الآب الذي في السماء كأنّ هذا الآب سيهرب !! أهكذا يكون النضال ؟

لا ينطق بكلمة واحدة أمام الحكّام، ثمّ يوصي تلاميذه لا بالمواجهات الكلاميّة التي تملّص منها بالصمت المطبق، بل بالمواجهات الفعليّة النضالية والجهاد لإعلاء كلمة الحقّ .

لقد زجّ بهم في الجحيم وفرّ إلى النعيم . لقد تنبّأ لهم بما سيعترضهم على الأرض من مهالك ونجا بنفسه من المهالك ! تُرى أين نضاله من نضال بولس ؟

ومع أن رأيي في المسيحية أنّها ديانة تبدأ بالأسطورة وتنتهي بالأسطورة، ولا تتحرك قط إلاّ في فضاء الأسطورة -ولعل هذا من أسباب انتشارها الواسع- فقد قررتُ بكلِّ إخلاص أن أسلّم نفسي إلى يسوع عسَاي أجد عنده الملاذ والملجأ .

ومَن يدري، فقد يكون كلُّ هذا المنسوب إليه في الأناجيل الرسمية غير صحيح . لا بدّ أن يكون المسيح غير ذلك، لأنّ مسيح هذه الأناجيل رجل اكتنفته الأساطير من كلّ جانب، حتّى لقد غدا من غير الممكن تبيّنُ شخصيته : بل إنّ كثيراً من الدارسين أخذوا يشكّون في حقيقة وجوده التاريخي، وإنْ كنت أنا شخصيًّا لا أذهب في الشكّ هذا المذهب، لأنّ كثيراً من الوقائع التاريخية لا يمكن فهمُها وتفسيرُها إلاّ بفرض وجوده . لكن إذا كان هناك مسيح آخر تاريخي، فكيف اختفى وحلّ محلَّه هذا المسيح الأسطوري ؟

وبصرف النظر عمّا إذا كان مسيح الأناجيل هو المسيح الحقيقي أو غيره، فقد توجّهتُ إليه بكلّيّتي -وهذا من تناقضاتي- لكنّه الضعف الإنساني! وسألتُه تفريجَ كربتي وإقالةَ عثرتي، وإنهاضي من كَبوتي، بعد أن قصصتُ عليه قصّتي، وذكرت له حكايتي . واستشهدت بقوله تعالى في الإنجيل المقدس : "إسألوا

تُعطَوا، أُطلبوا تجدوا، إقرعوا يُفتح لكم"[9] . سألت حتّى بُحَّ صوتي، وطلبتُ حتّى جَفَّ حلقي، وقرعتُ حتّى دمت يدي . وأعدتُ ذلك مرّات ومرّات . بكيت وابتهلت، وناديت واستغثت، ولكن عبثاً . فكلا الإلهين -إله القرآن وإله الإنجيل- أفلسُ من أخيه . لقد رجعتُ بخفَّي حنين كما رجع الملايين قبلي ومن المسيحيّين أنفسهم . ولكن أيًّا منهم لا يريد الاعتراف بذلك . والفرق بيني وبينهم أنّي أَعملت عقلي بينما اكتفوا هم بوضعه على الرفّ . لقد خاب أملي في يسوع، أمّا هم فليسوا على استعداد لأنْ يخيب لهم فيه أيُّ أمل . إنّهم يتّهمون أنفسهم كيلا يتّهموا يسوعَهم .

تُرى، كيف يُصدّق الناس هذه الأقاويل التي يظهر كذبُها كلَّ يوم ؟ كيف كانت المسيحية تشهد كلَّ يوم نصراً جديداً، من غير أن يؤثر ذلك في عنفوانها وقوّة انتشارها، ودخول أجيال جديدة كلّ يوم فيها !

أجل، كيف يصدّق الناس هذه الأقاويل ؟ كيف يَكْذِب بها صاحبُها على الناس ؟ هل قالها بالفعل ؟ فلولا أنّه أبله، أو أنّ الذين يخاطبهم بله، لما نطق بها . والحقّ إنّه على درجة عالية من الذكاء بحيث لا تخفى عليه بلاهتهم، وإلاّ لما ظلّوا عشرين قرناً يسألون يسوعَهم، ويطلبون، ويقرعون من غير أن يعبأ بهم أحد .

والأغرب من ذلك، أنهم يختلقون الأسباب والمبرِّرات لعدم ردِّ يسوع عليهم وعدم استجابة مطالبهم التي لا يفتأون يلاحقونه بها، ولا يفتأ هو يتجاهلها . حكمة بالغة . طوبى للبله، فإنّ لهم ملكوت السموات ! ويظهر أن الأديان لا تستقيم إلا بالبلاهة والأكاذيب والوعود الخلاّبة !

وأعود فأتساءل كيف يصدر عن المسيح مثلُ هذه الأقوال،

---

9 إنجيل متى ٧/٧.

وكيف يصدّقها الناس، ويدافعون عنها بحماسةٍ لا نظير لها رغم عقمها وعدم جدواها ؟ فلو كان الأمر يتعلّق بوعود أخرويّة فالحكم فيه عندئذ حكم سائر الوعود الأخرويّة الأخرى التي لا يمكن التحقّق منها، بل يُكتفى فيها بالإيمان الذي يتّسع له العقل، وأمّا الأمور الدنيويّة فمن السهل جداً التحقّق من صدقها وكذبها، ومع هذا فإنّ المؤمن لا يُعمل عقلَه فيها، بل يتلقّاها كما هي، ويُلحقها بالشعبة الأولى من غير أن يخضعها للتجربة، فالكلُّ عنده واحد، وهذا من أعاجيب الإيمان، إنّه يفعل ما لا يفعله العقل، لقد قطعت السماء قول كل خطيب !

خامساً - مرحلة القطيعة

وهنا تسارعت الأحداث بيني وبين ربي، لقد خاب أملي به كما خاب بيسوع. فكلاهما أفلسُ من أخيه . لقد أحرجني فأخرجني، ووعدني فأخلفني، ومنّاني فخذلني. فيا ضيعة العمر على إخلاصي له بغبائي وحسن ظنّي .

ولم أزل بين تجاذبِ الإيمان والشكّ حتّى وقعتِ القطيعة بينه وبيني . فتركتُ الصلاة والزَّكاة والصوم وما كانت تُمنِّي، وندمت على كلِّ ما بدا في هذا السبيل منّي . وكان طلاق وكان فراق، وعن طول بلاهتي لا تسألني . فمَنْ لي بنـزع سيماء السجود فهي تشوّه وجهي، ولا تليق برجل عركه الدهر في مثل سنِّي!

ومنذ الآن سأعيش وحدي بلا إله يبتزّني . وأنا أعرف مقدَّماً أنّ الوحدة موحشة . كلاّ ليست موحشة، كلاّ ليست موحشة بالنسبة إليّ على الأقل وإلى كلّ إنسان يؤمن بذاته وبما يجيش فيه من مطامح وآمال . فأنا أعيش مع أحلامي وإيماني بذاتي وقدرتي على كشف الزيف وعلى العمل والإنجاز . فالويل لمن عرف الحقيقة إذا لم يكن أهلاً لها، غير قادر على استيعابها . فإذا لم يكن على قدّها فنصيحتي إليه ألاّ يقرب هذا الكتاب!

الشكوك لم تكن شيئاً جديداً في حياتي، بل كانت تنتابني قبل ذلك بوقت طويل، ولكنّي كنت أسارع إلى دفنها في الحال وإخفاء معالمها . فأنا شكّاك منذ نعومة أظفاري بقدر ما أنا متصوّف، وكانت تعتريني على الدوام موجات من كلٍّ منهما كأنّها بروق تومض إليّ ثمّ تخمد عنّي، وكنت لا أُخفي شكوكي وأنا على مقاعد

الدراسة، حتى لقد حُرِمتُ من منحٍ ومساعدات كثيرة كان أثرياء المدينة يغدقونها على زملائي للدراسة في الخارج، بل إن بعضهم كان يتبرّع بتشويه هذه الشكوك والمبالغة فيها إمعاناً في حرماني وللحلول مكاني.

ولا أنكر أن هذه الشكوك كانت نفعيّة إلى حدٍّ ما، فهي تختلف في حال الشدّة عنها في حال الرخاء، فهل يُعرف الصديق (أي الله) إلاّ في وقت الضيق ؟ ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أنّ النفعيّة وحدها كانت وراء هذه الشكوك، فالأمر أعقد من ذلك بكثير . وكذلك كان تصوّفي . وكانت الحرب سجالاً بينهما . سبحان مُقَلِّب القلوب، هكذا كان يقول العامّة. فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء، كما جاء في حديث شريف . وهم يستندون في ذلك إلى قوله تعالى : "فاعلموا أنَّ الله يحول بين المرء وقلبه، وإنَّكم إليه تُحشَرون" (٨ /٢٤).

لقد انقطعت علاقتي بالله منذ زمن لا أسأله شيئاً ولا أطلب منه شيئاً، بل إني أتحدّاه أن يمنع تحقيق ما يمكنني تحقيقه أو تحقيق ما لا سبيل إلى تحقيقه، فأنا لا حاجة بي إليه إذا كان حقًّا له دخل في قضاء الحاجات . هذا إذا صحّ أنّه يعبأ بأصحاب الحاجات أو يسمع دعاءهم أو -وبالأحرى- يعلم بوجودهم ! ومع ذلك فكلُّ شيء في حياتي يسير اليوم على سجيّته الأولى، من صعود وهبوط، ورفْع وخفض، وبسْط وقبض، وسعْد ونحس، وإقبال وإدبار، لقد ظلّت الحياة هي الحياة، بتعقيدها وتركيبها ومسؤوليّاتها، واختلاف أصنافها ومعادلاتها .

لقد أصبحتْ حياتي أنا، بعد أن كانت خطًّا مشتركاً بيني وبين مَن كنت أسمّيه "ربي"، الذي كان يقاسمني وقتي، وينتزع منّي أخصب ساعات حياتي، كنت أخلو فيها إليه، وأترك نفسي بين

يديه . لقد أصبحتُ حرًّا طليقاً بعد أن كنت عبداً رقيقاً، يا حسرتي على عمر ابتزّ فيه سبحانَه جَهدي وعرقي، وحرمني شبابي، وكاد يأتي على ما تبقّى من شيبتي، لولا أنْ تنبّهت من غفلتي . لقد نصَّبته وصيًّا عليّ بإرادتي واختياري، فأورثْني هذه الوصاية السخفَ والبلاهة والغباء، حتّى لكدت أفقد الرشد إلى حد الهراء، لولا أن صحّ عزمي فأبليتُ أحسن البلاء .

وهكذا رسخ في ذهني لأوّل مرة أن أنطلق من الأسر وأنعم بالحرّية، وأُنهي عقد الوصاية، عقد الذلّ الذي أبرمتُه مع ربّي . لقد وُلدت حرًّا ولن أسمح لأحد أن يستعبدني بعد اليوم . لقد طلع النهار، ولن أسألَ الله شيئاً بعد اليوم، هذا إذا كان يوجد حقًّا مسؤول، وإذا لم يكن الدعاء مجرّدَ حديثٍ مع النفس وسؤال النفس، ودعاء النفس للنفس، وبالتالي فالدعاء في هذه الحال هو دردشة ذاتية وثرثرة لطالما أذكتْ غيبيّتي، وزادت غيبوبتي، وأضعفت همّتي، وأعمت بصيرتي، وأطالت طفولتي، وسلبتني مهجتي وزهرة حياتي، وشحنتني بالآمال العريضة، ومنّتني الأماني المريضة، وأضعفت إيماني بذاتي، وأغرتني بالإتكال على ربّ الكائنات . تلك أيّام خلت، وانكشفت الغمة وانجلت، وعادت إليّ صحوتي. وبلاهتي قد انتهت !

إنّ مهمّتي في هذا الكتاب هتك الأستار وكشف الأسرار، وتعرية المصون للوصول إلى الدر المكنون . إنّه دعوة صادقة إلى إنهاء مرحلة وبدء مرحلة، إنهاء مرحلة النوم والغفلة، وبدء مرحلة اليقظة والإدراك والفهم، وبعد ذلك كلّ شيء يهون .

أنا أدرك تمام الإدراك أنّي في هذا الكتاب كمن يلعب بالنار . وليكن، فإذا لم تحرق النار الشوائب فلن نصل إلى الذهب الإبريز . آخِر الدواء الكيّ، وإلاّ فما حيلتي ؟ وإن كنت أعلم أنّي أنا شخصيًّا

سأكون أوّل من يكتوي به . فإذا أردتَ أن تكون رجلاً فعشْ في خطر. هذا هو شعاري في الحياة . فلولا أنّ الشمعة تحترق لتضيء غيرَها، فلا وربّك ما كان ضياء . هذا هو قدرها، بل هذه هي رسالتها . وإنّه لشرفٌ لي كبير أن أكون تلك الشمعة !

إنّ النفوس مشحونة، والقلوب "ملآنة"، والآفاق مكبوتة، والأقلام محتقنة . والأنفاس محتبسة متلجلجة، وسقطات اللسان في كلّ مكان . ألأفواه فيها ماء، فهل ينطق مَن في فيه ماء ؟ فإن أردتَ كشف الغم وتفريج الكرب، فهلمَّ إلى الأسوار المغلقة، وابتعد عن أعين الرقباء .

إقرأ ما لا يُكتب في كتابات طه حسين، إقرأ المكبوت أو ما بين السطور في كتابه الشعر الجاهلي مثلاً، تجد عجباً ! كذلك إقرأ زكي نجيب محمود، وإسماعيل مظهر، في كتاباتهما الأولى، أي قبل أن يعودا إلى الحظيرة عندما أحسّا بدنو أجلهما خوفاً مما قد يَنتظرهما بعد الموت . كذلك إقرأ عبد الرحمن بدوي في كتاباته الأولى أيضاً، تجد ما هو أعجب . حتّى هذا العملاق بدأ في الفترة الأخيرة تخور قواه. كلّنا في الخوف سواء. إنّه الضعف الإنساني .

الطاقات متحفّزة، والعقول مشرئبّة، والجميع على أتمّ الإستعداد للعمل، ولكنّهم ينتظرون الشرارة . كلّهم يتهيّبون إطلاق الشرارة لما ستجرّه عليهم من ويلات . ويظهر أن القدر قد اختار كتابي هذا ليكون هو هذه الشرارة . فلا بد مما ليس منه بدّ . وأقولها مدويّةً بلا فخر : لن تجد في اللّغة العربيّة طوال تاريخها - بما فيها العصر العباسي الذي شهد حركات إلحاديّةً جريئةً- كتاباً ككتابي هذا صراحةً ووضوحاً وجدِّيَّةً وتسميةً للأشياء بأسمائها بلا مواربة ولا التواء ولا نفاق ولا تكاذب .

كذلك لن تجد فيه كلمة تشهير، أو كلمة قذف، أو أيّ إشارة

إلى الحياة الخاصة للأشخاص الذين سأتحدث عنهم، كما في كتابات سلمان رشدي مثلاً الذي أربأ بنفسي أن أهبط إلى مستواه، وأرفض أي مقارنة بين كتابه وكتابي هذا . فالقذف والتشهير ليسا من أخلاق العلماء، والدخول في حياة الناس الخاصة لتَسقُّط عيوبهم فيه إساءة كبيرة إليهم وهتك لحرماتهم. فلا يفلّ الفكر إلاّ فكر مثله "فأمّا الزَّبَدُ فيَذهَبُ جُفَاءً، وأمّا مَا يَنفَعُ الناسَ فيَمكُثُ في الأرض" (١٣ /١٧).

وهذا فخر لي أعلم جيداً أنّه سيكلّفني حياتي، ولكنّه سيُكتب لي الخلود بعد مماتي . فماذا أرتجي من الحياة وقد تجاوزتُ الثمانين ؟ لقد ذُقت الحياة بحلوها ومرّها، بل بمرّها أكثر من حُلوها. وبلغتُ غاية التوتر فيها، ولم يبق إلاّ الشهادة في وقتٍ عزّت فيه الشهادة . يجب أن أقول كلمتي قبل أن أرحل، وليكن بعد ذلك ما يكون . هذا قَدري . ومَن كُتبت عليه خطًى مشاها . فلست أوّلَ رجل يغدر به الجهل والتخلّف . كلاّ . ولن أكون الأخير أيضاً .

وسنشهد بعد طبع هذا الكتاب عاصفة هوجاء من التشنج والتعصّب والسباب والشتائم والقذف وكيل الاتهام بحساب وبغير حساب، وسينفجر البركان كما لم ينفجر بركان من قبل . ومع ذلك لن يعدم الكتاب من يدافع عنه ويتصدى لحملات الجهل والظلم والإفتئات على الحقيقة، ويدعو إلى البحث الموضوعي والرصانة العلميّة . وسيندس بين هؤلاء جماعات المنتفعين والسماسرة وأصحاب المصالح، وسيُثيرون الطغاة ورجال الدين وكلّ من يصطاد في الماء العكر .

وهكذا سينفتح الباب أمام كلِّ طارق، وسيَفلت الزمام من أيدي الممسكين بالزمام . وستنحاز السلطات بطبيعة الحال إلى

الجماهير الغاضبة والأصوليين و "لحى التيوس" كما يسمّيهم الرازي، وستنكّل بأحرار الفكر، وستتبرع قوى الظلام بنصيبها الوافي من التصفيات والاغتيالات بتحريضٍ أو بغير تحريض من خطباء المساجد والبسطاء وأصحاب النوايا الطيّبة، هذا فضلاً عن أصحاب النوايا السيئة باسم الدفاع عن الدين والحفاظ على الإيمان.

وإنّي على يقين من أن أكثر من ٥٠٪ من المشاغبين أمّيّون لا يقرأون الكتاب . وإذا كانوا يقرأون فإنّهم لم يطّلعوا عليه . هذا إذا أمكن العثور على نسخة منه ؛ لأنّ الحكومة ستصادره في الحال إلاّ إذا تمكّنتْ إحدى المكتبات من إخفاء بعض النسخ القليلة لبيعها سرًّا في السوق السوداء . ولن تكتفي الجماهير بمصادرة الكتاب، بل ستطالب بإحراقه علناً وهدر دم صاحبه على رؤوس الأشهاد، تقرّباً إلى الله ولقطع دابر "الفساد والمفسدين"، فيكون عبرة لمن اعتبر . هذا إذا لم يكن المسكينُ في السجن، أو إذا كان لا يزال حياً يُرزق .

ولن يقف الإعلام الغربي مكتوفَ اليدين بل سيندد بالتعصب وبقمع الحريات وانتهاك حقوق الإنسان . وسيدس أصحاب الدوائر السوداء في أوروبا وأمريكا أنوفهم للتشهير بالعرب والمسلمين والتنديد بسلطات التخلف والجهل، وسيتلقف المفسدون والبسطاء هذه الفرصة لاتّهام الكتاب وصاحبه بالعمالة للصهيونية العالمية .

إنّ كل ذلك لا يهمّني، فالمهمّ عندي أنّي أرضيتُ نفسي، وقلتُ كلمتي وأنا على شفا حفرتي، وكنتُ أوّلَ مَن شقّ الطريق ونهجَ السبيل . لقد فُتح الباب، وهو إذا فُتح فلن يُغلق بعد اليوم . وإنّه لأمر طبيعي جدًّا أن يهتاج المهتاجون، ويثور الثائرون، ويكثر المصطادون، وينادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور .

فالصدمة قويّة جدًّا في بلدٍ هاجع سادر في الغيِّ والضلال لم يتعوّد الصدمات، فأكثر الناس لا قدرة لهم على رؤية النور الساطع . لكنّ هذا النور وتوالي الصدمات هما الطريق الوحيد إلى تجديد الذات ودخول عصر التنوير . وإلاّ فلن نخرج إلى النور .

ألفصل الثاني

منهج البحث في القرآن

هناك منهجان لفهم النصّ هما: ألمنهج النقلي، وهو يقول بأولويّة النقل على العقل، والتسليم بصدق النصّ وعجز العقل عن فهم مراميه وأغراضه القصوى؛ والمنهج العقلي الذي ينادي بأولويّة العقل على النقل، وقدرته على إدراك الحقيقة بصرف النظر عن النصّ، فالنصّ آخر هموم العقل الحرّ المستقل المؤمن بذاته.

ولذلك سأصطنع في هذا الكتاب المنهج العقلي الذي استحدثه ديكارت في بداية العصر الحديث وإن لم يلتزم به دائماً، وعلى الخصوص في فهم النصوص الدينيّة؛ بل ناور وداور ولوى عنق العقل لإنقاذ السوس الذي يملأ النقل وما في النقل من عفونات تزكم الأنوف.

أرأيتَ إلى هذا العملاق كيف ينحني للنصّ؟ ليس ديكارت أوّل من انحنى، كلاّ. ولن يكون الأخير. إلاّ الذين آمنوا بالعقل وعملوا به وصدقوا ما عاهدوا العقل عليه، وقليل ما هم !

فللنص سلطات وقدرات لا يصمد لها إلاّ النادرون.

إنّ القاعدة الأساسية للمنهج العقلي هي التجرّد والموضوعيّة والإقبال على البحث بذهنٍ خال من التحيّز والغرض، "فالغرض مرض" كما يقولون. وبهذه الروحيّة يجب أن نشق الطريق لدراسة القرآن، فنجعله كغيره من الدراسات العلميّة، ونخضعه للبحث والتحليل والشك والرفض والإنكار، لأنّ هذا هو ما يخصب البحث ويغنيه ويعود عليه بالنفع العميم.

إنّ تطبيق المنهج العقلي على القرآن هو، في نظري، حدث خطير وكبير، سيزلزل الأرضَ تحت أقدام التقليد والجمود والعفن الآسن. وهو أمرٌ لا بدّ منه، فآخر الدواء الكيّ.

للقرآن جذور عميقة في تكويننا الثقافي، فإذا اهتزّت هذه الجذور، تبدّل التكوين غير التكوين، وتبدّل الزمان غير الزمان، وتبدّل الإنسان غير الإنسان. وبالتالي برز جيلٌ جديد لم يكن بالحسبان. لذلك فإنّ أوّل شيء أفاجئك به في هذا الحديث هو أنّي أشكّ في القرآن، وفي إله القرآن، وفي تعاليم القرآن، وفي إعجاز القرآن وبلاغة القرآن.

ألحّ في الشك، وأعتنقه منهجاً، "إذِ الشكوك، كما يقول الغزالي، هي الموصلة إلى الحقّ. فمَن لم يشكّ لم ينظرْ، ومَن لم ينظرْ لم يبصرْ، ومَن لم يبصرْ بقي في العمى والضلالة".

هذا هو منهاجي في العمل. وهكذا أخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبّر. حتّى انتهى بي الحال إلى ما يشبه اليقين. ذلك بأنّ ما نسمّيه بإعجاز القرآن وعصمة القرآن إنما هو، كأيِّ عملٍ بشريٍّ، فيه الخطأ وفيه الصواب.

وأنا أُقدر النتائج التي قد توصّلتُ إليها. لكن ذلك لن يثنيَني عن إثباتها وإذاعتها وإبداء رأيي بحريّةٍ أعلمُ سلفاً أنّها ستجرّني إلى مهالك ومواجهات خطيرة، ربما كنتُ في غنىً عنها. ولكن لا. فالحقُّ أحقُّ أن يُتبع. وسآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء ما استطعت، وإلاّ فالشهادة خيرٌ ممّا أُعاني من احتقانٍ وعجزٍ عن إعلانِ ما أؤمنُ به وما يؤمنُ به كثيرون غيري، ولكنّهم ينتظرون الشرارة لتنطلق بعد ذلك شرارات وشرارات تضيء النفق المظلم الذي نعيش فيه، فهل غير ذلك إلى خروج من سبيل ؟

أمّا الأسباب التي أدّتْ بي إلى الشكّ في القرآن فهي ما فيه

من تناقض، وتشويش، وعموميّات فضفاضة، وعبث لفظيّ لا معنى له، وأخطاء لغويّة وبيانيّة حار القدماء في إيجاد مخارج لها، وأُخرى علميّة وتاريخيّة أربأ بربِّ العالمين أن يقع فيها.

كما في القرآن شحنات خطابيّة، قنابل كلاميّة، لها قرقعة عالية تكاد تصمّ الآذان ؛ لكنّها، بعد التحليل العميق، ورغم ما فيها من عذوبة وفتنة وجمال أخّاذ، شاحبة هزيلة، قليلة المضمون، خالية من الدسم. فقاقيع في الهواء تشعّ بالضوء كالألعاب الناريّة، إلاّ أنّها سرعان ما تنطفئ وتتساقط على الأرض كسفاً مخلِّفة وراءها ظلاماً دامساً

فكأنّها برقٌ تألّق بالحِمى ثمّ انطوى فكأنّه لم يَلمَعِ !

كثيرٌ من كلام أرباب البلاغة، بل من سجع الكهّان، خيرٌ ألف مرّة من كثير من آيِ القرآن. لاعقلانيّةٌ بالغة، وحشدٌ من الأساطير، تفنّن المفسّرون -وفيهم المعتزلة. ويا للغرابة!- في دفعِها والدفاع عنها.

تبقى مسألة أخرى وليست أخيرة، وهي مسألة إدانة القرآن للقرآن. فالحديث عن القرآن حديث ذو شجون، وأيّ شجون، فما أكثر شجون القرآن ! قال "تعالى" : "ولو كانَ مِن عندِ غيرِ الله لَوجَدوا فيهِ اختلافاً كثيراً" (٤/ ٨٢).

لقد حكم القرآن على نفسه بالإدانة ! فما فيه من اختلافات يفوق حدَّ الكثرة ؛ بل هو بؤرة لكلِّ خلاف واختلاف، ولم يبلغ الخلاف والاختلاف في أيِّ كتاب في العالم كما بلغ في القرآن. ومع ذلك يريدوننا لنصدِّق ألاّ خلاف ولا اختلاف في القرآن. يجب إنكار المحسوس لتصديق ما لا يتفق مع المعقول ولا مع المحسوس، على طريقة "صدَق الله وكذبَ بطنُ أخيك"؛ وإلاّ فسترى وتسمع ما لا يرضيك !

أنا لا أدعو إلى التخلي عن الدين، فهذا مطلب عسير، بل هو طلب ما لا يُطلب، فللدين عند أصحابه عذوبة الرحيق. ولطالما استمتعتُ أنا شخصياً بهذه العذوبة قبل أن أعود إلى رشدي.

قلت إنّي لا أدعو إلى التخلّي عن الدين، إنما أدعو إلى عدم الاحتكام في كلِّ شيء إلى الدين، ودسِّ أنفه في كلِّ صغيرةٍ من شؤون الحياة، وذلك باعتماد العلمانيّة منهجاً فكريًّا وحياةً. ليست العلمانيّة إلحاداً، أو دعوة إلى الإلحاد كما يصوّرها أعداؤها، إنما هي وضع حدٍّ للتداخل بين الدين والدولة.

ليس الدين قتل الأسير، ورجم الزاني، وقطع يد السارق. ألدين عند العلمانيين ما وقر في الصدور، واستقر في السريرة. إعتقدْ ما شئتَ، لكن إيّاك أن تُلزم الآخرين بعقيدتك، وتَجعل منها نظاماً للحكم والحياة. فالدين لله والوطن للجميع. هذا هو شعار العلمانيّة. فلا شأن لله في قضايا الوطن. هذا هو شعار العلمانية. لا مطلق ولا مقدّس في العلمانيّة. إنما المطلق والمقدّس فيها هو الإنسان، وقيمة الإنسان، وحريّة الإنسان، واحترام كرامة الإنسان، وعدم استغلال الإنسان للإنسان. ليس الكافر مَن يكفر بالأديان، الكافر الوحيد هو الذي يكفر بالإنسان وحقوق الإنسان.

فقيمة الحياة هي العقل، وقيمة الحياة هي الحريّة، وقيمة الحياة هي التقدم والتطوّر، وقيمة الحياة هي تجديد الرؤى والتعبير عنها بما يتلاءم مع أحوال الزمان والمكان. أمّا الكفر والإيمان، والملاك والشيطان، فنشاز يعطّل صيرورة الأحداث وانسياب الحركة في عالم من القوى وموازين القوى ومراكز القوى.

أكثر ما يخيف الإنسان التقوقع في أنقاض الذكريات واجترار الأساطير والأوهام، والغيبوبة في الغيب والنصّ والإعجاز والبيان، ومتابعة أخبار جنّة عدن والحور والنور والولدان،

وقصص الجن وأحاديث لقمان، وما إلى ذلك من الأقاصيص والأخبار التي طالما أَخصبتِ العقول والأذهان، في الماضي القريب والبعيد، ولكنّها اليوم خسرت الرهان.

الفصل الثالث

ألقرآن في عقيدة المسلمين

أوّلاً

ألقرآن كلام الله

في أرض قفر، ووادٍ غير ذي زرع، خرج محمّد ليقول كلمته. وأطلّت كلمته قرآناً عربيّاً ظنّه غيرَ ذي عوج. لقد انتفض محمّد وهو على يقين أنّه يتلقّى أمراً من الغيب وانتداباً من السماء لينذر قوماً ضلّوا عن سواء السبيل "يا أيُّها المُدَّثِّر! قُمْ فَأَنْذِرْ" (٧٤/ ١-٢).

تجربة من الغيب آمن العرب والمسلمون جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أنّ محمّداً قد اختير لها ليقود العرب ويُخرجهم من الظلمات إلى النور. إنّ "النبي" المأخوذ بين قسر الحقيقة وضرورات الحقبة التاريخيّة التي وُجد فيها، لا يدرك دوره إلاّ رسولاً لخطاب، مبلّغاً لكتابٍ يوحَى إليه من الله.

وبالفعل، ففي جميع مراحل "الوحي" -أو ما يسمّى كذلك- نُحسُّ كأنما هي اللغة تسعى إلى تحقيق ذاتها في رحاب عالَم تراكيبِها الممكنة وتدفّقِ معانيها سلسبيلاً عذباً فُراتاً. لقد جاء الرجل الذي يقْدرُها قدْرَها، ويحفظ ورِدَها، ويفجّر طاقاتِها المبدعة وإمكاناتها الخلاّقة. وأخيراً حقّقت هذه اللغة أحلامَها، وبلغتْ مع القرآن أقصى أمانيها وغايةَ ما تصبو إليه من آمالٍ ومطامح.

وتابعت اللغة العربيّة مسيرتها بعد غياب الرجل الذي رفع عقيرتها وشدّ أزرها، حتّى جاوزت حدَّها، وانتشر مداها واتّسعت آفاقها واخترقتِ الحدودَ والسدود. فآتت ثماراً يانعةً وجنياً طيّبَ الأُكُل حلوَ المذاق، شهيَّ المطعم والمشرب. وأنجبتِ الفطاحل

والأفذاذ في كلِّ علمٍ وأدبٍ وفنّ، واستوعبت كلّ شيء، ولم تَعْيَ بالتعبير عن أيِّ شيء، وكأنما بطرفة عينٍ، أو أقرب من ذلك، انقلبتْ من لغة السيف والناقة والبعير إلى لغة العلم والفنّ والفلسفة والحضارة.

وإنّها لمعجزة تُذكر لمحمّد، استقوى بها خطابُ محمّد، وتعزّز بها منطق محمّد، بين معجزاتٍ أخرى أحرقت المراحل. وأضاف كلٌّ منها أبعاداً جديدة انعكستْ وعوداً بالتقدّم والرخاء والعطاء، فضلاً عن القوّة والمنعة والقدرة على التألّق والمجد قروناً طويلة.

يكفي الرجل هذه المعجزات والآيات البيّنات. إنّه ليس بحاجة إلى أيِّ معجزة أخرى تأتيه من عالم الغيب، يَفتح عليه به بديعُ السموات والأرض، الذي ضنّ عليه ولو بمعجزة واحدة مما أفاض على الأنبياء الأوّلين !

***

القرآنُ، لغةً، مصدر لفعل (قرأ). وهذا المصدر يعني التلاوة. ويقترح علماء اللغة المستشرقون أصلاً سريانيًّا أو عبرانيًّا لكلمة (قرآن). والقرآنُ، اصطلاحاً، هو النصّ المقدس الذي أوحى الله به إلى نبيِّه محمّد بن عبدالله، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته والالتزام بتعاليمه.

وللقرآن عدّة أسماء منها: الكتاب، والفُرقان، والذِّكْر، والتنزيل، وكلام الله. ويوصف بالعربي، والكريم، والعزيز، والحكيم، والعظيم، والمبين، والمجيد، في لوح محفوظ، غير ذي عوج، لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، يهدي للّتي هي أقوَم، فيه شفاء للناس ورحمة للمؤمنين، لو أنزله الله على جبل

لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً من خشية الله، ولو اجتمعتِ الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون، ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

وخلافاً للعهدَين القديم والجديد، لا يوصف القرآن بالمقدّس، وإنْ وردت كلمة (قدسي) وصفاً لبعض الأحاديث التي ذكرها "النبي" منسوبة إلى الله، فيقال "هذا حديث قدسي"، أي على لسان الله تعالى، وإن لم يُنزل به قرآناً.

القرآن مقال، والمقال نطق يفترض قائلاً ومخاطَباً. فأمّا المخاطَب فهو معروف. فالخطاب في القرآن موجّه دائماً إلى محمّد أوّلاً وبالأصالة، وإلى المؤمنين بعد ذلك، وإلى أفراد البشر جميعاً في كلّ زمان ومكان. فالقرآن يخاطب "النبي" في كثير من الأحيان ناصحاً ومعزِّياً، وربما معاتباً ومؤنِّباً، وربما أيضاً ردّه عن بعض الآراء التي أبداها عن نظر واجتهاد، وخطّأه فيها وصحّح أحكامه وحوّله عنها إلى البديل الأصلح.

وقد يستعمل ضمير الغائب -لا المخاطب فقط- للإشارة إلى محمّد، كالآيتين الأولَيَين من سورة "عَبَسَ" : "عَبَسَ وتَوَلَّى أنْ جاءَهُ الأعمى" (٨٠/ ١-٢)، أي عبستَ يا محمّد وأشحتَ بوجهك عن الأعمى عندما جاءك يطلب الهداية فانصرفتَ عنه إلى صناديد قريش وأرهاطها من المشركين الذين أظهروا عدم الاكتراث لك ولم يبالوك.

لكن الخطاب لا يلبث أن يتوجّه إلى محمّد بعد ذلك : "وما يُدرِيكَ لعلَّه يَزَّكَّى، أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ؟ أمّا مَنِ استَغنَى فأنتَ له تَصَدّى ؟ ومَا عليكَ ألاّ يَزَّكَّى. وأمّا مَن جاءَكَ يَسعَى، وَهُوَ يَخشَى، فأنتَ عنه تلَهّى" (٨٠/ ٣-١٠).

وفي حالات نادرة يتوجّه الخطاب إلى محمّد فقط دون غيره

من المؤمنين، كتحريم زواج نسائه من بعده، بينما يصحّ زواجُ أيِّ امرأة أخرى بعد موت زوجها عنها من أيِّ رجل ضمن الأصول الشرعيّة.

وفي بعض الحالات الأخرى لا يقع الخطاب إلى محمّد بطريق "الوحي" القرآني، رغم أنّ الخطاب محصور فيه وحده، بل يقع بوحيٍ آخر غيرِ قرآني لم يُوضحه النبي. فقد حُرّم على محمّد وعلى آل بيته مثلاً تلقّي الصدقات، ولم يرد في ذلك نصٌّ قرآني. كذلك لا يجوز للنبي أن يرث أو أن يورث، وهذا ما لا ذكر له في القرآن أيضاً.

***

عرفنا الآن المخاطَب وإلى مَن يتوجّه الخطاب، ولكن مَن المخاطِب؟ أي مَن هو صاحب الخطاب ؟ كلام مَنْ هو ؟ هذه مسألة إيمانيّة صِرْف لا يمكن التطرق إليها إلاّ في إطار عقيدة أولئك الذين يؤمنون بها. ومهما اتّسع هذا الإطار وتعاظم فإنّه يظل إطاراً محدوداً في الزمان والمكان، أي محصوراً في رقعة معيّنة من الأرض وحقبة معينة، ملزم بها وحدها دون سائر رقاع الدنيا.

ومن ثمّ فإنّنا إذا توجهنا بهذا السؤال إلى الذي نقل إلينا هذا الخطاب وهو محمّد بن عبدالله، لأجابنا بلا مواربة ولا التواء أنَّ القرآن كلام الله الأزلي الذي يقول له بعبارة صريحة حازمة : "الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، نزّل عليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدِّقاً لما بين يديه" (٣/ ٢) ، ويقول أيضاً : "وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فَأَجِرْه حتّى يسمَع كلامَ الله" (٩ /٦)، ويقول كذلك : "وأنزلنا إليك الذكرَ، لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم" (١٦ /٤٤) ؛ وفي خطابه لمحمّد يصدر هذا الحكم القاطع : "نزَل بهِ الروحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المنذِرين، بلسانٍ عربيٍّ مُبين" (٢٦/ ١٩٣-١٩٥).

وفي بيان الدليل على أنّ القرآن ليس كلام محمّد يقول تصديقاً له، شاهداً على أمانته، نافياً عنه أيّ كذب في التبليغ : "ولو تَقوّلَ عَلينا بعضَ الأقاويل، لأَخَذْنا منه باليَمِينِ، ثمّ لَقَطَعْنَا منه الوَتِينَ، فمَا منكُم مِن أحدٍ عنه حَاجِزِين" (٦٩/ ٤٦).

وهكذا، فالمسلمون جميعاً، في مشارق الأرض ومغاربها يؤمنون أنّ صاحب الخطاب هو الله تعالى، وبالتالي فإنّ القرآن كلام الله نزّله على قلب نبيِّه بشيراً ونذيراً، "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"، ليكون آية للناس إلى يوم القيامة، بل معجزة تدلّ على صدق مَن أُوحي إليه : محمّد.

ومن هنا أسطورة إعجاز القرآن التي سنتحدث عنها بعد قليل. فالخطاب القرآني لا ينسب إلى النبي أيَّ معجزة إلاّ معجزة القرآن!!! وذلك ليكون دلالة على صدقه، وبالتالي فهو رسول صادق قد بلّغ عن ربه ما أمرَه بتبليغه بلا زيادة ولا نقصان، ومن غير أن يطرأ عليه أيُّ تحريف.

والله في القرآن يعبّر عن نفسه باسم الجلالة بلا ضمير حِيناً: "فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُم" (٢/ ٢٠٠)، وبصيغة المتكلّم المفرد حيناً آخر : "فاذكروني أذكركم" (٢/ ١٥٢)، وبصيغة الغائب أحياناً : "ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض إئتيا طَوعاً أو كَرهاً. قالتا أتَينا طائعين" (٤١ /١١)، وبصيغة المتكلّم الجمع أحياناً أخرى : "إنّا أنزلناه قرآناً عربيًّا" (١٢/ ٢)[1]، كما قد يجمع في الآية الواحدة أكثر من صيغة : "قال الله إنّي منزِّلها عليكم" (٥ /١١٥)، فقد جمع في هذه الآية بين اسم الجلالة (الله) والغائب (قال) وضمير المتكلّم (إنّي)، وضمير الهاء في

1 إنّ صيغة المتكلم الجمع هذه كثيرة الورود في القرآن. وقد علق عليها أحد "أذكياء" المبشرين بقوله أن هذه الصيغة دليل على ثبوت عقيدة التثليث في القرآن. وبذلك فقد اعترف من حيث لا يدري أن المسيحية تقول بتعدّد الآلهة.

"منـزّلها" هنا تعود إلى المائدة التي سألَ الحواريّون عيسى بنَ مريم أن يدعو اللهَ بتنـزيلها عليهم من السماء !

وغنيٌّ عن البيان أنّ القرآن، في نظر المسلمين، قبسٌ علويٌّ سبقت به الإرادة الإلهيّة منذ الأزل. وهو كلام الله ذاته. ألمبنى والمعنى من الله. وقد أُملي على النبي كلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، والمُملي هو الله بواسطة جبريل مَلَكِ الوحي أو الروح الأمين. هذه عقيدة راسخة في عقول المسلمين، فمن أنكرها أو قال إن القرآن من صنعِ محمّد، فهو كافرٌ جاحدٌ للدين الحنيف، وبالتالي فهو مستوجبٌ للعذاب الأبدي في نار جهنم خالداً فيها أبداً، وبئس المصير !!

لقد كان القرآن فريداً في تشكيلِ التعليم والبنية المطلقة للمسلمين، وشبكة المعاني ونظام الرموز الذي يوجِّه أفعالهم، ويعطي معنًى لوجودهم، ويجعل أداءهم في الحياة وانجازاتهم ومنهج تفكيرهم وفق المثل الأعلى الذي رسمه لهم.

ألقرآن، في نظر المسلمين، هو السلطة الدينية الكلّيّة. به اكتملت العمليّة الشاملة للوحي الإلهي التي جاءت من الله من أجل هداية البشر. فهو يشدّد على وجود رسالة مستمرة وثابتة ذات مصدرٍ إلهيّ، اتخذت شكلّها النهائي في القرآن نفسه. إنّه مصدر جميع السلطات في الإسلام، وهو خلاصة وافية تعبر عن مكوِّنات الإسلام الفكريّة والتشريعيّة والعلميّة والثقافيّة.

والوحي هو كلمة الله وتعبير عن إرادة الله، وهو حضور إلهيّ وقوة ظهرت في صيغ مختلفة لسلسلة طويلة من الأنبياء والرسل. لكن، إذا كانت الصيغ مما يتغيّر ويتطوّر بتطور الزمان والمكان، فإنّ المضمون يظلّ واحداً غيرَ قابل لأيِّ تغيير أو تبديل.

إنّه كلمة الله الدائمة الأبدية التي لا تخضع أبداً لمعايير الزمان والمكان.

ثانياً

ألقرآن محور مدارس الفكر وشتّى مذاهب الرأي في الإسلام

ألقرآن، في نظر المسلمين، هو نبراس كلِّ علم وحكمة وفلسفة وتشريع وتثقيف وأدب. فهو كتاب ديني مذهبي، ورائعة أدبيّة بلغت في نظر البلغاء الذروة في الفصاحة والبيان.

والقرآن ليس فيه نظريّة محدّدة واضحة في طبيعة الله والكون والحياة والمصير... على نحو ما نجد في كتب الفلسفة والطبيعة والكلام، لكنّه يشتمل في الوقت ذاته على طائفة من الأفكار والآراء تتّصل بالله والكون والحياة والمصير... إن لم تكن علمية فلسفية لاهوتية بالمعنى الإصطلاحي لهذه الكلمات، فإنّها من الممكن جداً أن توجِّه الفكر الفلسفي والعلمي واللاهوتي وجهةً خاصّة، ما كان ليتجه إليها لولا القرآن.

لقد كان للقرآن من التأثير والفعاليّة في تكوين عقول المسلمين وتوجيه نفوسهم ومشاعرهم بحيث أنّ كلَّ مفكر، وكلّ عالم، وكلّ فيلسوف... سيحسب حساباً للقرآن في كلّ ما يقول ويكتب ويفعل، وجميع ما يَصدر عنه من فكر ونظر. ومن هنا فإنّ القرآن سيكون محوراً لحركات شتى :

فالنحويّون أخذوا من القرآن مادّة من موادهم لاشتقاق قواعدهم وتطبيقها؛ واللّغويّون وضعوا الكتب والتصانيف في غريب القرآن؛ وعُني الفقهاء بآيات الأحكام التي أنشأوا منها علمهم؛ وكذلك فعل الأصوليون في وضع علم أصول الفقه. وكانت

للمتكلّمين مذاهب مقرّرة في العدل والتوحيد وصفات الله وأفعال العباد، اعتمدوا فيها بطبيعة الحال على ما تناهى إليهم من علوم الفلسفة وما ثبت لديهم من حقائقها.

ولعلّ خير ما يصوّر ذلك قول الراغب الأصفهاني في الجزء الأول من كتابه الخصائص: "ألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكَمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم وشعرهم. وما عداه كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة "[2].

وهكذا، فقد كان القرآن العمودَ الفقري للعرب والمسلمين في جميع أقطار الأرض، ومنبعَ الإلهام الذي ستتدفق منه مدارس الفكر والدين والإجتماع في الإسلام، ومنه سيصدر التفسير والفقه والأصول والكلام والأخلاق واللغة والتصوف، بل وعلوم السحر والشعوذة. فكلّ عناية المسلمين متَّجهة إليه حفظاً واستيعاباً وتعلّماً وتعليماً، ووعظاً وإرشاداً، وتدبّراً واعتباراً وتثقيفاً وأدباً...

فقد درسوه، حرفاً حرفاً، بغيرةٍ وورعٍ وتقوى لا نظير لها. بل لقد تمحّلوا فيه وتكلّفوا وتصنّعوا حتى قوّلوه ما لم يقل، وأيّدوا به أقوالاً متعارضة، ومذاهب متهافتة، وهم يظنّون أنّهم يُحسنون صنعاً. لقد بلغوا في ذلك غاية المدى ووصلوا إلى أشياء"لم تخطر ببال ربّنا"، إذا كان لهذه الكلمة من معنى !

2 ألخصائص، ص ٧٩.

ثالثاً

ألحسّ اللغوي مفتاح القرآن
إلى قلوب العرب الجاهليين

ألخطاب القرآني له منطق خاص هو أساليبه البيانيّة والبلاغيّة التي قرأ فيها الفحول قمة البيان العربي. فقد كان الحسُّ اللغوي دائماً جزءًا من الحياة الجاهليّة. لقد كان الجاهلي عبداً للبيان قبل أن يكون عبداً للأوثان. من الجاهليين من ازدرى الأوثان وحطّم الأوثان، بل لقد بالَ على الأوثان، ولكن أيّاً منهم لم يسلك كذلك أمام آلهة البيان، بل كان يعكف على بيانه واختيار لفظه والتدقيق في عبارته وصقْلِ قصيده عكوفاً أكاد أقول لم يعهدْه قَبله إنسان. فلا اللاّت ولا العزّى. كلاّ. ولا مناة بصارفة له عن مواهب اللسان.

لم نسمع أنّ العرب قد أرسلوا بأبنائهم إلى المحاريب، ولكن كان من تقاليدهم الراسخة إرسال أبنائهم -حتّى الفقراء منهم- إلى المرضعات من الأعراب العاربات ليعودوا إليهم باللسان الفصيح والبيان البليغ، والعبارة الآسرة الدالة. فكنّ يأتين في المواسم إلى مكة لأخذ نصيبهنّ من المواليد فيرضعنهم مع أولادهنّ، فينشأون نشأة البادية ويكتسبون فصاحة أهل البادية، ويعودون غانمين مأجورين يَرفلون بالصحّة والعافية، فضلاً عن النباهة والتيّقظ وجودة اللسان التي تُورِثُها حياةُ البداوة.

لقد استعمل القرآن الحسَّ اللغوي لإقامة حسٍّ ديني جديد، وتصحيح وضع اجتماعي قديم وإنعاش رؤية روحيّة بعيدة

الأغوار. وكانت استراتيجية ناجحة وإن لم يكن الطريق سهلاً معبداً مليئاً بالورود والرياحين. لذلك كانت فتنة القول، وفن القول، وسحر القول جزءاً أساسياً من استراتيجيّة القرآن في تعامله مع هذه المواد الخام التي يُراد إعدادها لمهمات تاريخية كبيرة، والعهدة إليها بمسؤوليات ضخمة وإنجازات لم تخطر لأحد قبلُ على بال. وهي خطّة بارعة كان من أهم نتائجها عقيدة إعجاز القرآن.

المرء يفتنه القولُ أحياناً عن المقول، والشكلُ عن المضمون، فلا يفيق إلاّ وقد أخذ القولُ لبَّه وأمسكَ بتلابيبه. وهذا ما يعرفه أمراء القول. إنّ عناية القرآن بألفاظه هي عناية فنّانٍ ملهَمٍ مستغرقٍ في الفنّ، أكثر منها عناية دارس أكاديمي مستغرق في البحث عن الحقيقة. لقد جعل القرآن الألفاظ حوراً، وأطلق الحور لتغزو العقول والقلوب، وتأخذَ الألباب.

أصوات الكلمات تشغل عن الكلمات، والكلماتُ عن معاني الكلمات. الأصوات منسجمة تكاد تحوّل الكلمات إلى إيقاعات، لكن الأصوات في نهاية المطاف لا تعني شيئاً محدداً. إن فكرة إحالة الكلمات إلى موسيقى ليست بالفكرة الهشّة التي يتداولها المرء باستخفاف ؛ لكن أن تنقلب الكلمات إلى غاية في ذاتها هذا هو الهشّ. هنا كلّ شيء مسخَّر لخدمةِ نسقٍ موسيقيّ ولحنٍ ساحر.

لقد تحيّر العرب -في ما يُروى، والعهدة على الراوي- ممّا سمعوا من كلام يتلوه عليهم رجلٌ منهم يجدونه من جنس كلامهم من غير أن يستطيعوا مع ذلك الإتيان بمثله. بهذا التحيّر المذهل الذي غشّاهم وأخذ منهم بالكظم، وقفوا مأخوذين بما يسمعون من نظم القرآن وبيانه أكثر منهم من أخبار الأمم وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون.

ومن هذا الوجه طالب القرآنُ العربَ بالإقرار والتسليم بأنّه

من عند الله، أو تحدّاهم بأن يأتوا بمثله. وكان كلُّ ما قالوه في هذا السبيل : "قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إنْ هذا إلا أساطير الأوّلين" (٨ /٣١). بل لقد ردّوا التحدّي بتحدٍ آخر للقرآن ولربِّ القرآن: إنّهم غير مقتنعين بأنّ القرآن من عند الله، فهم راغبون حقًّا في الوصول إلى الحقيقة الناصعة، ولكنّهم يطلبون من الله علامةً أو إشارة تدلّ على أنّ القرآن من عنده حتّى ولو كانت هذه العلاقة إنزال العذاب بهم، فقالوا : "أللهمّ! إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، أو ائتِنا بعذابٍ أليم" (٨/ ٣٢).

إنّه تحدٍ محرج لمحمّد يضع صدقه في الميزان، ولكنّ الله، كعادته، لم يتحرّك. فرغم استعدادهم لتلّقي العذاب في سبيل الحقيقة وشعورهم الصادق بأهمّيّتها والحاجة إليها، جاءهم هذا التخلص البارع من موقف الإحراج الذي وضعوا النبي فيه "وما كان الله ليعذِّبَهم وأنتَ فيهم!" (٨ /٣٣)[1].

فيا لَعَظمة القوم ويا لأنفَتِهم !! يا لإخلاصهم للحق حتّى ولو كان على حساب حياتهم. لقد سمعوا الكثير عن تهديدات الله في القرآن للأمم الغابرة بإنزال العذاب بهم عندما يُكذّبون أنبياءهم، ولم يكن وجود هؤلاء الأنبياء حائلاً دون وقوع العذاب بهم، وكان الله دائماً وبنص القرآن ينجِّي أنبياءه ومن اتبعهم من المؤمنين... فما منعه هنا سبحانه عن تنفيذ تهديده وتنجية حبيبه المصطفى، كما نجّى أنبياءَه السابقين!!.

1 بل يبدو أنّه سبحانه لم ينفّذ تهديداته حتى في الماضي وهو يتخلص من هذا التنفيذ ببراعة مشابهة لهذه الآية : " وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون" (٢/ ٣٦). فرغم أنهم تولَّوا عنه بعد ذلك فقد امتنّ عليهم بالعفو فضلاً منه "ثمّ توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين" (٢/ ٤٦). بهذه المناسبة إنّي أتساءل : كيف يقبل الله هذا الإيمان الذي لم يكن وليد الإقتناع بل كان وليد الضغط والإكراه : "خذوا ما آتيناكم بقوّة !" ؟

إن المسلمين وقد رأوا الجاهليّين لا يعارضون القرآن بالإتيان بمثله، اتخذوا من ذلك دليلا ً على تفوّق القرآن على شعرهم وكلامهم، وبالتالي دليلاً على إعجاز القرآن وصدق نبيّه. هذه هي عقيدة المسلمين في إعجاز القرآن.

وعلى كلّ حال، عمد هؤلاء إلى مقابلة الشعر القديم بالقرآن وجعلوه هدفاً للنقد والحطّ والتفلية ليجعلوا كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةَ القرآن هي العليا. أي إنّهم كانوا لا تستبين لهم عظمةُ القرآن إلاّ بالغض من قيمة الشعر الجاهلي. وهذا جَوْر في الحكم لا عدل فيه. فكأنّ القرآن لا تظهر عظمتُه إلاّ بالحطّ من الشعر الجاهلي وتهميشه.

ومع ذلك فالشعر الجاهلي هو الشعر الجاهلي، مهما نعق الناعقون، كما سنرى في حينه، وأرجف المرجفون، إنّه يفوق مرات ومرات الكثير من آيات القرآن. وهو عند البلغاء وأمراء البيان مثقِّفُ الألسنة، والحجّةُ على اللغة، والشاهد على النحو. وليكن بعد ذلك ما يكون، وسواء كان منحولا ً أو غير منحول، فالدرر لا تفقد قيمتها أينما وضعتها.

نجد في القرآن آيات تفرض نفسَها على الذوق الفنّي الرفيع بسرعة فائقة، فلا يملك أحدنا ألاّ يحلّق في أجواء تسمو به فوق هذا العالم بكلّ ما فيه من أطايب ومتع وأشواق وفتن تأخذ بمجامع القلوب. إنّها إنما تفعل ذلك بقواها الذاتيّة وطاقاتها الآسرة الخلاّقة، بلا أي رديف إيماني أو خشوع رباني.

من هذا القبيل آيات عدّة، مثل : (٢/ ٢٥٥؛ و١١/ ٤٤؛ و١٣/ ٣٢-٣٣؛ و٣٣ /٤١-٤٨؛ و٣٤/ ١١-١٢؛ و٤١/ ١١؛ و٤٣/ ٨٤؛ و٥٧/ ١٢ ج؛ و٦٦ /٨ و٧٦/ ١٢-١٣ و٢٠)...

ومن أروع آيات القرآن في نظري التعبير عن المستقبل بصيغة الماضي. والمقصود بالمستقبل هنا يوم القيامة، وذلك لتحقّق وقوعه كما يقول المفسرون:

"والذين آمَنوا وعملُوا الصالحات.. أولئك أصحابُ الجنّة.. **ونَزَعنا** ما في قلوبهم مِن غلٍّ، تَجري من تحتِهِم الأنهارُ. **وقالوا** الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا.. **ونُودوا** أنّ تلكم الجنّة أورثتموها بما كنتم تَعملون. **ونادى** أصحابُ الجنّة أصحابَ النار أن قد **وَجَدنا** ما وَعَدَنا ربنا حقاً.. وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسِيماهم. **ونادوا** أصحابَ الجنّة أن سلامٌ عليكم.. وإذا صُرفتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار **قالوا** ربَّنا لا تجعلْنا مع القوم الظالمين. **ونادى** أصحابُ الأعراف رجالاً يَعرفونهم بسيماهم، **قالوا** : ما أغنى عنكم جمْعُكم.. **ونادى** أصحابُ النار أصحابَ الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقَكم اللهُ، **قالوا** : إنّ اللهَ حرّمهما على الكافرين" (٧/ ٤٢-٥٠)؛

ومثل ذلك أيضاً : (٥٣/١٨؛ و٤٤/٤٢-٤٥؛ و٥٧/١٣-١٤)..

***

ولكن هل جميع آيات القرآن على هذا المستوى من الجودة والروعة والبيان ؟؟ هيهات هيهات ! القرآن ليس على مستوى واحد من البيان وقوّة التعبير. ومهما طالت لحى المتشنِّجين والمرجفين والمصطادين في الماء العكر، فضلاً عن البسطاء من المؤمنين وضعفاء العقول، فإنّي أعلنها مدوّية على رؤوس الأشهاد، أنّ القرآن، إذا كانت فيه آيات في غاية الروعة والجمال، ففيه آيات أخرى في غاية الإسفاف والتفاهة، أربأ بنفسي أن أهبط إلى مستواها !!!

إنَّ غشاوة الإيمان أعمتِ المفسِّرين البسطاء عنها، ولكنّ

أذكياءَهم وقفوا أمامها حائرين، فعمدوا إلى التلفيق والترقيع وفنون الصنعة، فكلّ أولئك كفيل برتق الفتوق، وستر العيوب، واصلاح العطب. وقد فعلوا ذلك صادقين وإن كان ذلك على غير وعي منهم. فهم يريدون إنقاذ إيمانهم على أي وجه اتّفق. ثمّ جاء تبلُّدُ الحسِّ، وطولُ الصقل على اللسان، وكثرةُ التلاوة، ليزيد القرآن رسوخاً.

أعطِني مجنوناً وأنا قمين أن أستخرج لك من أقواله حكمة الأوَّلين والآخِرين، ولا سيّما إذا كان له موقع في السلطة يَجمع حوله أصحابَ المصالح والمنتفعين. ألم تسمعوا بنفاقِ الحاشية وأهلِ الزلفى وأعوانِ السلطان ؟! كلّ واحد منهم أكذبُ من أخيه، لقد وقعوا على صيد ثمين : حاكمٌ معتوهٌ "تتيه" العقول في بحار علومه، وتعجز الأذهانُ عن الإحاطة بمقاصد أقواله. فيُقَوِّلونه ما لم يقل، ويُغدقون عليه من المقاصد ما لم يخطر له على بال. ويتنافسون ذلك، والأكثر إغداقاً هو الأكثر منالاً.

إنّ شيئاً من هذا القبيل -وإن كان التشبيه ليس دقيقاً- يحدث عندما يتعلّق الأمر بالنصوص "المقدسة" التي "تتيه" فيها العقول والأفهام، هناك تُختلق الحكم والمقاصد، وتُعزى إلى خالق الأكوان ؛ وهناك بالتالي تُذبح العقول قرباناً لكبير الأوثان !!

يقولون إنَّ الوليد بن المغيرة -من مشركي مكّة وأحد أشدّ خصوم محمّد- سمع القرآنَ وأُخذ بروعته وجماله وسحر بيانه. ولا أستبعد ذلك فلا يعرف الفضل إلاّ ذووه. لكنّهم يَنسبون إليه أنّه قال وهو العنيد المتمرّد : " واللهِ إنّ له لَحلاوة، وإنّ عليه لَطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق ". ولا يكتفون بذلك، بل يضيفون إليه هذا التعليق الخطير : " وما هو بقول بشر ! "

وأعود فأقول إنّي لا أستبعد وصفَه للقرآن هذا الوصف الجميل يصدر عن عدوٍّ لدودٍ للقرآن، فمن أحرى من أمراء البيان، من الإنحناء أمام روعة البيان، وتناسي خصومته لصاحب البيان. ولكنّي أستبعد تعليقه الأخير، وإلاّ فما منعه أن يؤمن بربِّ القرآن، ما دام اعترف للقرآن بهذه المنزلة العليا ! فإذا لم يكن القرآنُ "بقولِ بشَر "، فهو قول مَنْ إذن ؟ وأرجح الظنِّ أنَّ هذا التعليق هو من إضافة الرواة -وما أسخاهم بهذه الإضافات- لا سيّما وإنّ قولَ الوليد قد ورد بصيغ متعددة وعلى أشكال متباينة.

فإذا صحّ ما جاء على لسان الوليد بن المغيرة -ولا مانع عندي أن يكون صحيحاً، باستثناء الإضافة الأخيرة- فذلك إنما يَسري على بعض آيات القرآن لا على كلّه، وهو القرآن المكّي، وجُلُّه آياتٌ قصيرة بسيطة معبِّرة، لا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، بل فيها سلاسة وإيقاع من وحي الفطرة والموقف واللحظة. هذه الآيات هي التي أخذتْ بلبِّ الوليد، ولو سمع ما تلا ذلك من القرآن المدني وما فيه من تشويش وتفكّك وهشاشة واختلالٍ، بل وابتذالٍ وتناقض، لرجع في الحال عن حكمه السابق، ولرأينا من إنكاره ونكيره العجب العجاب.

لقد كان موضوعياً جداً في حكمه السابق على القرآن، وهذه الموضوعيّة ستعطيه رؤيةً وشفافيّةً حُرم منها سائر المؤمنين الذين أذهلهم القرآن، وملك عليهم مشاعرهم، ففقدوا حسَّ النقد، وأصبحوا عاجزين عن رؤية القرآن على حقيقته، وإصدار أيِّ حكم صائب عليه، والتمييز فيه بين غثٍّ وسمين.

لقد تبلّدت أحاسيسهم فأورثهم ذلك وقراً في آذانهم وعلى أبصارهم غشاوة، وأصبحوا جنوداً للقرآن تلاوة ودفاعاً وانسحاقاً، مسوقين بالإيمان كما تساق الدواب.

فالحقُّ ما جاء به القرآن، والباطلُ ما خالفه. وانطلقتِ الأصوات تشيد بالقرآن، وتكيل المدائح للقرآن، ولا حديث لها إلاّ عن القرآن، وعن إعجاز القرآن. وكان لذلك كلّه أثره التخريبي المدمِّر في تفسير القرآن.

رابعاً
عمل مفسِّري القرآن

إنّ العمل التفسيريّ الذي أثاره القرآن هو عملٌ من أعمال المعرفة في أعلى درجاتها، لولا أنْ شابتْه الشوائب حتّى كان مجمعاً للسخف والغباء. فقد كان كلّ مفسر للقرآن في أوّل أمره ينطلق من رؤية معينة، ومن قواعد مذهب معين، وقلما كان يعمد إلى التفسير خالي الذهن. فقد كان السلفي يرى في القرآن غير ما يراه المعتزلي، ويرى فيه السنّي خلاف ما يراه الشيعي أو الخارجي، وكذلك يرى فيه الصّوفي أو البلاغي ما لا يراه الفيلسوف أو رجل العلم.

إن كتب التفسير فيها غثّ كثير لا يساوي المداد الذي أُهرق فيه. لقد فاضت قرائح مفسرّينا في كلّ كبيرة وصغيرة في القرآن، ولطالما أجهدوا عقولهم وأذهانهم في تقويله ما لم يقل، بل ما لم يخطر على باله أن يقول. فأعطَوا المعنى الواحد ألفَ معنى، واكتشفوا له ألفَ حكمة، واخترعوا له ألفَ نكتة بلاغية، بل ألفَ باب في البلاغة ليست من البلاغة في شيء، لم يقصد إليها الله ورسوله ولا طافت في ذهن أي منهما.

كما أغرقوا ما في القرآن من سقطات وعثرات وتفكّك وتخبّط وتناقض وتشويش... في بحر من التأويلات والتخريجات والتلفيقات أضفى عليها الإيمانُ بريقاً من الروعة والجلال والخشوع ليس لها، من شأنه أن يسدَّ منافذ العقول إنْ كانت عقول،

ويزيد العُمي عمىً. وما تعذّر أو تعسّر عليهم فهمه فوّضوا أمره إلى الله، فالله أعلم بمراده، وفوق كلّ ذي علم عليم.

ولم يكتفوا بذلك، بل أوسعوا أنفسهم تقريعاً وتجهيلاً وتأثيماً، لينزّهوا الله عن كلّ نقصٍ، ويَنسبوا إليه كلّ كمال.

ولا يخامرني أدنى شكّ في صدقهم، فهم لا يستطيعون أن يتصوّروا كلامَ الله إلاّ في الذروة من الكمال. فإذا كان دون الذروة قليلاً أو كثيراً رفعوه إليها بقوّة ظانّين أنّ هذه الدونية ترجع إلى ضعف في الرؤية، أو قصورٍ في العقل عندهم، لا إلى كلام الله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. هكذا دأب المؤمن يسفِّه نفسَه ليمجّد ربَّه. إنَّ أيّاً منهم لم يجرؤ على نقدِ ولو آيةٍ واحدة من القرآن، بل كان جلُّ همِّه نثْرَ البخور وجبْرَ المكسور، ورتْق المفتوق، وإضفاءَ المعنى على ما ليس له أيُّ معنى !!!

وكانت حصيلة ذلك كلّه هراء في هراء.

إنَّ كتب التفسير محشوّة بالسخف والغباء والغُثاء والهذيان. إنّ الباحث المنصف لا بدّ أن يُعوِّل على استراتيجيّة مدروسة أكثر صدقاً في قراءة النصوص، تقوم على النقد والتبصّر، ليَميزَ الخبيث من الطيّب، والمقبول من المرذول، وما هو جليٌّ ممّا هو مُعمًّى يحتمل أكثر من علامة استفهام. وهذا ما لا يدركه مفسِّرونا. ولا يريدون إدراكَه. بل لا يستطيعون إدراكه. فلا نقد للنصوص ولا اعتراض على الآيات، ولا إعمال عقل فيها بروح حرٍّ مستقلٍّ ومنهجيّةٍ واضحة، بل دفاع مستمر، وعبوديّة كاملة، وانبطاح أعمى يُظهر مدى فراغ الإنسان وضعفِه أمام النصّ، أيِّ نص، سواء ورد في التوراة أو الإنجيل أو القرآن.

النصّ، والتدثّر بالنصّ، والتشبث بالنصّ، والتعبد للنصّ، والخوض في بحار النصّ للوصول إلى خفايا النصّ، والغوص

على الدرر واللآليء التي ينطوي عليها النصّ، كلّ أولئك وسواه من "ذخائر" النصّ، يورث صاحبه البلاهةَ والتفاهة والتحجّر والغيبوبة والغباء، لأنّه يُفقده البصر والبصيرة والعجينة والخميرة، فيذوب فيه ويفنى.

لقد قَضى فيه على كلّ حسٍّ نقدي واستقلال ذاتي، وعلى كلّ قدرة متميزة للحكم على النص "المقدس" حكماً يخالف فيه روح النص، بل تراه يخترع له الأيدي والأرجل والأجنحة لتُقيله من عثراته وتُنهضه من كبوته، وإن ظلّ هذا "المفسّر المبدع" محتفظاً برشده في المجالات الأخرى التي لا شأن لها بالنص.

أنظر إلى الغزالي كيف يصول ويجول في مملكة العقل، ولكنه سرعان ما يفقد رشده عندما يتحدث عن هدهد سليمان، وناقة صالح، وقوم يأجوج ومأجوج، والدابّة التي سيُخرجها الله من الأرض في آخر الزمان، لماذا ؟ لأمر جلل يخصّ الذين لا يؤمنون، وهي تخبرهم -باللغة العربية بطبيعة الحال- "أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون" (٢٧ /٨٢).

بل انظر إلى القديس أوغسطين، هذا الرجل الشكّاك الذي كان عملاقاً في كلّ شيء قبل أن يعتنق المسيحيّة، ثمّ انظر إليه كيف تَخور قواه عندما يتحدّث عن عجائب القديسين، أو يغوص في "أسرار" التثليث والصلب والفداء، وما فيها من حكم بالغة ومعانٍ عميقة !

كلّنا في الهمِّ سواء : النصُّ أوّلاً والعقل آخِراً. ما أضعف الإنسان وما أقوى الإنسان. عجيب حقاً أمر الإنسان. قزم وعملاق يسكنان هذا الإنسان !!

***

أللهُ كامل، أنا الناقص. الله عظيم، أنا الحقير. الله طاهر، أنا الأثيم. الله كريم، أنا لئيم. الله عالم، أنا جاهل. الله دائماً على حقّ، وأنا دائماً على باطل... وهكذا فالله على نقيض الإنسان باستمرار. لماذا يفعل الإنسان كذلك ؟ لأنّه لا يستطيع أن يتقبّل وضعه كما هو بما فيه من تناقضات وصراعات وما تمتلئ به حياته من شرور ومآس بلا تبرير ولا معنى، ومن غير أن يكتشف "الحكمة" التي إنما تكمن وراءها. كما أنّه لا يجرؤ على الإعتراض على أحكام الله والتمرد على سلطته، فكان الحلّ على حسابه هو الذي يجب أن يتحمّل كلّ مسؤولية مع إبقاء ربه بمنأى عن كلّ مسؤولية.

لذلك تراه يضحّي بنفسه لينقذ ربّه، وبتعبير أدق، لينقذ تصوّره لربّه، يدفع من نفسه ليشتريه، ويلوم نفسه ليبرِّئَه، يجوّعها ليشبعه، يُنقصها ليكمله، يشجُّها ليرتقه، يُصدّعها ليجبر كسره. هو وحده الآثم، هو وحده المجرم، والله غنيٌّ عن العالمين. إذا نزلت به نازلة فلا يلومنَّ إلاّ نفسه، ولا يظلم ربُّك أحداً. وهكذا فَلْسَفَ المصيبةَ والبلاء، وأعطاهما معنىً لم يكن لهما. وتجدّد الرجاء. لقد صنع إلهَه وهو المصنوع، وأكمله وهو الناقص، وخشع العبد للربّ، وتجلّى الربّ للعبد، وخرجا كلاهما يفيضان بالمعنى، ويرتشفان معنى المعنى.

إنّ المفسرين للقرآن في جملتهم مفسرون ثرثارون، وأقولها للمرّة المئة، لا يعرف النقد إليهم سبيلاً. إنّ أكبر همّهم الحذلقة والتبرير والدفاع. وإذا تظاهروا بالنقد فإنّه نقد موجّه، أي ظاهره النقد لكن باطنه الحذلقة والتبرير والدفاع أيضاً، وإيجاد المخارج لما لا مخرج له ! فهم يظنّون أنّهم بهذا الموقف يحسنون صنعاً، وما دروا أنهم بذلك يُسيئون إلى قضيّة الإيمان، كأنما الله لا بضاعة له إلاّ الهراء والتخريف. لقد أفسدوا من حيث أرادوا الإصلاح،

وضلّلوا من حيث أرادوا الهدى. إنّهم مَثَل على انعدام الحسِّ المنهجي والفكر العلمي الموضوعي لديهم.

والأنكى من ذلك أنهم بعد أن يفرغوا في النص جميع ترهاتهم وكلّ ما يملكون من ثرثرة و"لفلفة" وترقيع وبضاعة كلاميّة ولاهوتيّة و"علميّة" فارغة، يبادرون بالاعتذار قائلين: "الله أعلم". إنّهم لا يريدون أن يقرّوا بجهلهم، كما أنّهم في الوقت ذاته لا يريدون الاعتراف بأنّهم يقولون في القرآن برأيهم، ففي ذلك لو تعلمون إثم عظيم، والعياذ بالله تعالى ! فخرجوا بهذه المعادلة الظريفة : "والله أعلم بمراده. سبحانه وتعالى عمّا يصفون" !

خامساً

ثورة لا بدّ منـها

يجب أن ننتقل من مرحلة تفسير النصوص إلى مرحلة النقد الباطن للنصوص، ومن شأن ذلك أن يساعدنا كثيراً في فهم النصوص. ولعلّ من حسنات عصرنا أنّه قد شهد ميلاد نقدٍ أصيلٍ للنصوص، ونرجو صادقين أن يشمل "جميع" النصوص "المقدسة"، مسيحيّة كانت أو إسلاميّة. بل لقد سبقنا الأوروبيّون كثيراً في هذا المضمار، وفي وقت مبكر جداً[1].

إنّنا لا نزال بعيدين عن تحقيق هذه القفزة النوعية الشجاعة التي يمكن أن تفتح أمامنا آفاقاً واسعة. إنّ مرحلة التأكيد الساذج لليقين الديني طريقة بدائية آن لنا أن نتخطّاها ونتجاوزها إلى ما وراءها، أو على الأقل أن نخفف من وطأتها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. إنّها طريقة إيديولوجية أسطورية نتعرف بها عقل صاحبها، لا النص الذي يتصدّى لتفسيره.

إنّ المؤمنين أيًّا كانوا -مسلمين أو مسيحيّين أو غير ذلك- لا يقبلون أبداً أن تكون الكتب السماويّة خاضعة للدراسة النقديّة المنهجية. فروايات التوراة والإنجيل والقرآن أسمى من أن تدنسها علومنا الأرضية ومكتسباتنا البشرية التي اخترعها جنود إبليس لنقض كلمة الرب، لذلك كان كلّ هم المفسّرين تأويل النصّ وإغداق

1 وذلك في القرن السابع عشر على يد اسبينوزا في رسالته المشهورة TRACTATUS THEOLOGICO POLITICUS التي نُقلت إلى معظم اللغات الأوروبية. وقد نقلها حسن حنفي إلى اللغة العربية بعنوان رسالة اللاهوت والسياسة. وتوالت بعدها الدراسات النقدية في هذا المضمار.

التفسيرات الإطرائية عليه لإخفاء عواره وستر كلّ تناقض فيه.

ورغم أن العرب لم يعرفوا محاكم التفتيش اللاتينية، فإنّهم ظلّوا يدورون في الحلقة المفرغة، وإنما بحرّية أكبر، حلقة الثرثرة والحشو، وإنهاك النصّ، وتحميله من الأثقال والأعباء فوق ما يحتمل. ولا يزال الباحثون عندنا لا همّ لهم إلاّ إبراز بلاغة النصّ، والحكمة الكامنة وراء النصّ، والأغراض التي يرمي إليها النصّ. فما أكثر المنقِّبين في النصوص، وما أعظم الجهد الذي يبذلونه في استبطان النصوص، وما أتفه النتائج التي وصلوا إليها بعد الانكباب الطويل على النصوص ومعاناة النصوص.

***

لقد كان الخطاب القرآني عند أوّل عهد المسلمين به دعوة إلى التغيير الشامل. لقد كان في يوم من الأيّام ثورةً على التقاليد الجامدة والمعتقدات الموروثة المنتشرة في طول شبه الجزيرة العربية وعرضها. فقد شنّ القرآن هجوماً عنيفاً، في آيات كثيرة، على تعلّق الناس بنهج السلف وتمسّكهم به مهما كان مخالفاً للحقّ. لقد نعى على القوم غباءهم وتحجّر عقولهم. لقد كانوا يهربون إلى الماضي، ويلتمسون فيه الحجة والسند والمرجعية المطلقة كما هي حالنا اليوم. فما من شيء يُرضي عواطف المتخلف مثلما يرضيه الحديث عن روعة الماضي وأمجاد الماضي والعيش في بحبوحة الماضي.

ألعقليّة الثوريّة وحدها هي القادرة على التغيير وعلى إيجاد المناخ الذي يستجيب التغيير. وهذا ما أدركه وعمل له القرآن ممثلاً في شخص محمّد الناطق باسمه والعامل على تحقيق أغراضه وغاياته. لقد قام بشبه عملية غسل دماغ لمعتنقيه والمؤمنين به.

وهذا ما يفسر نجاحه الخارق المذهل السريع الذي فاق جميع التوقّعات في حينه.

***

ألثورة بنت زمانها ومكانها، ووليدة عصرها وأوانها، إنّها لا تأتي إلاّ بعد مخاض عسير. لكن لكلّ أجلٍ كتاب. فلا ثورة إلاّ إلى حين، وبعد ذلك الرتابةُ والتكرارُ والسقوط. لقد كان القرآن في القرن الأول للهجرة ثورة، والآن هو عبء على الثورة، وعامل مضادّ للثورة. لقد أصبح جزءاً من التقاليد والموروثات، ورسّخ في النفوس عاداتٍ وأنماطاً من السلوك والتفكير تقف حجر عثرة في وجه كلّ تقدم.

فَمَنْ لي بقرآنٍ جديد ينأى بنا عن القرآن الحالي ويقتلعه من الجذور، ويباعد بيننا وبين منهج السلف، وينعى علينا تمسّكنا المريض بالتقاليد والمواريث، وبالتالي يقوم بعمليّة تطهير شاملة شبيهة بعملية التطهير الأولى، تشفينا من تراكمات الماضي ومخلَّفات عصور الإنحطاط، وتزيح عنا كابوس الأوهام والعفونات التي تسد أمامنا أبواب الحاضر، وتخطو بنا الخطوة الأولى في طريق الألف ميل إلى مستقبل مشرق زاهر وعيش رغيد.

لا يزال القرآن يقف حجر عثرة دون الإتصال بالغرب واستيعاب ثورة الغرب. فالتباين بين مجتمع علماني دينامي حرّ منفتح على التغيرات، وبين مجتمع متخلف آسن لا عمل له إلاّ إنتاج ذاته وتكرار ذاته، أقول إنّ هذا التباين أمرٌ مثير للإشمئزاز حقاً. فبمقدار ما كانت المرحلة الكلاسّيكيّة مرحلة ديناميّة غنيّة قادرة على الأخذ والعطاء والخلق والإبداع، والبحث والتمحيص، اتّسمت المرحلة الحالية بالركود والجمود والأصولية المتشنّجة

العمياء التي لا تُحسن غير لغة التعصب والعنف والدم والموت والعمل في الظلام.

لقد جفّ النُّسغ، وضعفت الهمم، وأُغلق باب الإجتهاد إلى غير رجعة. لقد تركت الدراسات العلميّة الخصبة مكانها شيئاً فشيئاً لخطاب الإيديولوجيا الإستسلاميّة والتوكّلية الغيبية الغبية. ولم يكن ذلك راجعاً إلى رقابة لاهوتية شبيهة بالسلطة الكنسية في العصور الوسطى المسيحية[2]، بل إلى تفكّك الأطر الإجتماعية والسياسية للعالم العربي الإسلامي، وانحسار المدّ العقلي والروحي ابتداء من القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ومنذئذٍ انتشر التعليم "المدرسي" الرجعي في الزوايا والتكايا والرباطات، وانتعش الدين الشعبي والإيمان بالأولياء والكرامات، ووقعت القطيعة التاريخية مع التراث العلمي والفكري للمرحلة الإيجابية المنتجة. لقد فَقَدَ القرآن ما يُشعل جذوته، فَقَدَ نزوعه الداخلي وديناميته وقدرته على التجدّد، فَقَدَ الاحتكاك بدوامة العصر، وبالتالي فَقَدَ وظائفه النوعية في الوجود والتطور.

لقد استبقى القرآن كثيراً من الشعائر والطقوس التي كانت سائدة قبله في شبه الجزيرة العربية : تقديس الكعبة والحجر الأسود وشعائر الحج وأساطير الجنّ وحكايات الأمم السالفة... فجَمعَ هذه الأنقاض وأحيا هذه الرمم وأعاد تركيبها ليبني صرحاً إيديولوجياً جديداً، أضاف إليه الكثير من العناصر والقوى الفعالة التي تخدم قضيته في مجالات الحياة المختلفة. ومع انحسار المد الفكري وباطراد التراجع الحضاري أخذ هذا الصرح يتداعى، ليعود كما

---

2 نعم هناك رقابة أصولية فاعلة في الساحة، ولكن هذه الرقابة نتيجة للتخلف وليست سبباً له، بينما الرقابة الكنسية كانت إحدى القوى المهيمنة الثلاث في العصور الوسطى اللاتينية : الملك والكنيسة والإقطاع، فهي إذن سبب وليست نتيجة. أصوليتنا هي أحد مفرزات التخلف، واكليروسهم كان أحد مفرزاته التخلف. هل يستويان ؟

كان أنقاضاً نتعبّد لها ونُسبّح بحمدها ونُقدّم لها الأضاحي والبخور.

وجاءت صدمة الحداثة تطرق أبوابنا وتقتحم حياتنا اقتحاماً شرساً مع حملة نابليون. لقد استيقظنا مذعورين على وقع أقدام العسكر، فآثر بعضنا دفن رأسه في التراب تدغدغه أحلام الماضي، واكتفى بعضنا برؤية ما يجري أمامه ووقف مشدوهاً لا يصدّق عينيه، لكن قلة نادرة أخذت تتدبر وتتأمل وتتفحص وتقلّب الأمور على وجوهها المختلفة.

هذا يقول بالعودة إلى الأصول، وهذا يقول بالخروج على الأصول والانخراط في الحداثة ودوّامة العقول، وهذا يقول بالتوفيق بينهما توفيقاً يقضي على الخمول. هذا يدعو إلى الانفتاح على الآخر، وهذا يدعو إلى الإنغلاق وتدمير الآخر، وهذا يقف ما بين ذلك لتصحيح أحد الآخرَين بالآخر. هذا ينادي بالإبداع، وهذا يطالب بالإتباع، وهذا لا يتخلى عن الإتباع، ولكن الإتباع في رأيه لا يكون بلا إبداع. لقد مضى على هذا الجدل الكلامي أكثر من قرن ولا يبدو أنّه سيتوقف. فلو كان دجاجة لباضت، ولو كان ديكاً لصاح !

تلك هي المأساة التاريخيّة التي نعيشها اليوم والتي ما فتئت تتعقد وتتعاظم. وبزرع إسرائيل في المنطقة تفاقم الخطب واشتد البلاء، ووصل الأمر بنا إلى درجة من السوء والتخبط بحيث أصبحنا لا نعرف ما نريد ونريد ما لا نعرف.. إنّنا نخضع لجملة من المحرّمات الدينية والأسطورية والسحرية، ولتفاوتات إجتماعية واقتصادية وثقافيّة صارخة، ولتعسّف سياسي محلّي واستعماري لا يطاق، ولتخلّف فكري محزن. وكلّ هذا يتناقض مع الحرية السياسية والدينامية الإقتصادية، والقدرة الإبداعية، وبُعد النظر التاريخي، وإرادة التغيير والتطوير.

إنّ أسوأ ما يحدث لنا اليوم هو سوء علاقتنا بالعالم والعصر. فنحن لا نزال نعيش في أشكال ثقافية بالية وأنماط حضارية بائدة...

الإسلام ليس هو الحلّ. لقد كان كذلك في يوم من الأيّام. لكن اختلفت الأيّام وتبدّلت الأيّام غير الأيّام. الإسلام مانعٌ للحلّ وحجر عثرة في طريق الحلّ... لا أرى أي ضرورة لاستئناف عقيدة الشرك باستمرار الطواف، والسعي، والأضاحي، وتقبيل الحجر الأسود، وشجّ رأس إبليس بالجَمرات التي آن لها أن تجتثَّه من الأرومة هو وقبيله، بدلاً من أن تزيده قوة وانتعاشاً.

ألفصل الرابع

إعجاز القرآن

أوّلاً - إيمان المسلمين بالإعجاز

ثانياً - أيّ إعجاز هو؟

ثالثاً - بلاغة القرآن

رابعاً - أين هي بلاغة القرآن؟

خامساً - خلل في توزيع الموضوعات

سادساً - ألغموض في القرآن

سابعاً - غريب القرآن

ثامناً - ركاكة القرآن

تاسعاً - ألتناقض سمة بارزة في القرآن

عاشراً - ألقرآن والعلم

حادي عشر - كلّ ما في القرآن هو من عند الله

ثاني عشر - آيات لا معنى لها

ثالث عشر - سجع القرآن وسجع الكهّان

رابع عشر - ألقرآن والإيمان بالغيب

خامس عشر - بربريّات القرآن

أوّلاً

إيمان المسلمين بالإعجاز

"قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتُوا بمثْلِ هذا القرآنِ لا يَأتونَ بمثلِه، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً" (١٧/ ٨٨).

القرآنُ كتابٌ فريد حقًّا: فهو نثر وليس كالنثر؛ وهو شعر وليس كالشعر؛ وهو موزون مقفّى وليس كمِثْل أوزانهم وقوافيهم. فما هو إذن ؟ إنّه القرآن والسلام !

ولعلّ أجمل وصفٍ للقرآن ما قاله المغفور له عميد الأدب العربي د. طه حسين: "كلام العرب شعر ونثر وقرآن". فالقرآن ليس بالشعر كلاّ. وليس بالنثر. إنّه جنس من القول نسيج وحده وفريد نوعه. إنّه قرآن ! لذلك أجمعوا على أنّ ما يُسمّى بإعجاز القرآن هو في نظمه العجيب.

الإعجاز في اللغة العربية من التعجيز، أي نسبة العجز إلى الغير. وتسمّى المعجزة (معجزة) لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.

وعلمُ الإعجاز علم مستحدَث في الملّة. وقد بلغ هذا العلم غاية نضجه في القرن الرابع للهجرة حيث استقلّ وغدا علماً قائماً برأسه. وهو اليوم عقيدة إيمانيّة راسخة لا يجرؤ أحد على التشكيك فيها. وابتداءً من القرن الرابع للهجرة بدأت كتب الإعجاز في الظهور.

ومع ذلك فقد وُجد مَن شكّك في هذه العقيدة منذ العصور الأولى للإسلام.

ولعلّ أوّل هؤلاء **الجعد بن درهم** مؤدّب مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة. فكان أوّل من صرّح بالإنكار على القرآن والردّ عليه وجحد أشياء ممّا فيه، وقال إنّ فصاحته غير معجزة، وإنّ الناس يقدرون على مثلها وعلى أحسن منها، ولم يقلْ بذلك أحدٌ قبله. وكان مروان -ويلقّب بالحمار- يتبع رأيَه، حتى نُسب إليه فقيل "مروان الجعدي"[1].

وشاعت هذه المقالة ومقالاتٌ أخرى على نمطها -كالقول بخلق القرآن ومعارضته- في صدر العصر العباسي. وكان أوّل مَن بالغ في ذلك **عيسى بن صبيح المعروف بأبي موسى المردار**. وهو من علماء المعتزلة ومن المقدّمين فيهم. ويقال له راهبُ المعتزلة. وقد انفرد عن سائر المعتزلة بجملة مسائل يهمّنا منها هنا قوله في القرآن إنّ الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة[2].

ومن قبيل ذلك ما ذهب إليه معاصرُه **إبراهيم بن سيّار بن هانيء النَّظّام** الذي طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة[3]، لكنّه انفرد عن أصحابه بثلاث عشرة مسألة. بيد أن البغدادي ارتفع بهذا العدد إلى الرقم الحادي والعشرين.

وإذا كان الشهرستاني يطلق على ما انفرد به النظّام عن أصحابه إسم مسائل، فإنّ هذه المسائل تصبح "فضائح" عند البغدادي ! فالمسألة التاسعة التي يأخذها الشهرستاني على النَّظّام

---

1 رَ: مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة**، ص ١٦٠.

2 ألبغدادي، **ألفرق بين الفرق**، ص ١٦٤-١٦٥؛ والشهرستاني، **ألملل والنحل**، ١ / ٦٨-٦٩.

3 ألشهرستاني، ١ /٥٣-٥٤.

"الفضيحة الخامسة عشرة من فضائحه"، بحسب تعبير البغدادي: "قوله في إعجاز القرآن إنّه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتّى لو خلاّهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغةً وفصاحةً ونظماً"[4]. فالبشر قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولكنَّ الله صرفهم عن ذلك، ومنعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثَهما فيهم.

هذه هي "نظرية الصُّرفة".

***

والآن نتساءل: ما وجه الإعجاز في القرآن ؟

أجمع أهلُ العربيّة قاطبة، وأهلُ اللّسن منهم والبيان خاصّة، على أنّ القرآن معجَزٌ بذاته، أي إنّ إعجازه إنما كان بنظمه العجيب، أي بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد الذي لا يضاهيه أسلوب، ومسحتِه اللفظية الخلاّبة التي تتجلّى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، وبراعته الفنية.

قال **القاضي أبو بكر**: وجه إعجاز القرآن ما فيه من النَّظم والتأليف والترصيف، وأنّه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، ومُباين لأساليب خطاباتهم، ولهذا لم يمكنهم معارضته. نظم القرآن ليس له مثال يُحتذى، ولا إمام يُقتدى به، ولا يصحُّ وقوعُ مثلِه اتّفاقاً. قال: والإعجاز في بعض القرآن أظهر، وفي بعضه أدق وأغمض[5].

وقال **الإمام فخر الدين**: وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب.

4 ألمرجع السابق، ١ /٥٦-٥٧.

5 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٢٢.

وقال **الزملكاني**: وجه الإعجاز راجعٌ إلى التأليف الخاص به لا مطلق التأليف، بأن اعتدلتْ مفرداته تركيباً وزنةً وعلّةُ مركباته معنىً، بأن يوقع كلّ فنّ في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى.

وقال ابن عطية: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذّاق في وجه إعجازه أنّه بنظمه وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه. وذلك أنّ الله أحاط بكلّ شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّه. فإذا ترتيب اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبيّن المعنى بعد المعنى، ثمّ كذلك من أول القرآن إلى آخره. والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول. ومعلوم ضرورةً أنّ أحداً من البشر لا يحيط بذلك؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة. وبهذا يبطل قول مَن قال إنّ العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله، فصُرفوا عن ذلك. والصحيح أنّه لم يكن في قدرة أحد قط[6].

***

هذا، وقد اختلف العلماء في تفاوت آي القرآن في مراتب الفصاحة بعد اتفاقهم على أنّه أعلى مراتب البلاغة، بحيث لا يوجد في التراكيب ما هو أشد تناسباً ولا اعتدالاً في إفادة ذلك المعنى منه.

فاختار القاضي المنع، أي منع التفاوت؛ فكلّ كلمة فيه موصوفة بالذروة، وإنْ كان بعض الناس أحسن إحساساً له من بعض.

واختار أبو نصر القُشيري وغيره التفاوت، فقال: لا ندّعي أنّ كلّ ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة.

6 جميع هذه النقول مأخوذة من المرجع السابق، ص ١٣٣ مع بعض التعديلات الطفيفة في اللّفظ دون المعنى.

وكذا قال غيره: في القرآن الفصيح والأفصح. وإلى هذا نحا الشيخ عز الدين عبد السلام، ثمّ تساءل: لِمَ لَمْ يأت القرآن جميعُه بالأفصح ؟ وأجاب عنه الصدر موهوب الجزري بما حاصله أنّه لو جاء القرآن على ذلك لكان على غير النمط المعتاد في كلام الرب من الجمع بين الأفصح والفصيح، فلا تتمُّ الحجّةُ في الإعجاز، فجاء على نمط كلامهم المعتاد ليتمّ ظهورُ العجز عن معارضته ولا يقولوا له مثلاً: أتيتَ بما لا قدرة لنا على جنسه، كما لا يصحّ من البصير أن يقول للأعمى: "قد غلبتُك بنظري"، لأنّ الأعمى سيقول له: "إنما تتمّ لك الغلبةُ لو كنتُ قادراً على النظر، وكان نظرك أقوى من نظري، وأمّا إذا فُقد أصلُ النظر فكيف تصحّ منّي المعارضة؟"[7].

وعلى كلّ حال، إن القرآن، في نظر المسلمين، هو معجزة النبي الكبرى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه "إنّ كلّ شيء في القرآن معجز من حيث قوّة الموسيقى في حروفه، وتآخيها في كلماته، وتلاقي الكلمات في عباراته، ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كلّ كلمة لفقاً مع أختها، وكأنما نسيج كلّ واحدة قطعة منه تكمّل صورتَه وتوحِّد غايتَه. معانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأنّ المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قُطِّعت لها، وسُوِّيت على حجمها"[8].

---

7 ألمرجع السابق، ص ١٠٩.

8 المرجع السابق، ص ٩٩.

ثانياً

أيّ إعجاز هو ؟

والآن نقول: إنّ عقيدة إعجاز القرآن لا تعدو أن تكون أسطورة من الأساطير. كلاّ. ليس القرآن من أسرار الآلهة. إنّه لا يمتّ بأيِّ صلة إلى الإلهام "السماوي" الذي يخرج به عن حركة التاريخ. إنّه إنجاز بشري صرف تجري عليه قوانين البشر من قوّة وضعف، وصواب وخطأ، واتّفاق واختلاف، وتماسك وتنافر، واتّساق واختلال، وانتظام وتشويش.

والنتيجة المباشرة لذلك كلّه هي أنّ القرآن كتاب عادي جداً. لذلك كان من الضروري انتزاعُه من مستقرِّه الآمِن، خارجِ التاريخ البشري، وإعادتُه إلى دنيا الناس. فلا يبقى بعد ذلك مستودَعاً للحكمة السرمديّة، وكتاباً سماوياً معصوماً من الخطأ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبذلك يصبح هو وعصره وبيئته جزءاً من الدورة التاريخية للمنطقة التي شهدت وتشهد كل يوم كتباً مماثلة أثّرت في هذه الكتب وتأثرت بها واحتدم التفاعل بينها.

يعتدُّ كلُّ مؤمن مذهول، سواء كان من عامّة الناس، أو خاصّتهم، أو حتّى من خاصّة الخاصّة، أنّ "في القرآن مع جمال الألفاظ ورونق الأسلوب خاصة لا يصل إليها أحد في الألفاظ والأسلوب والمعاني"[1].

1 محمّد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، ص ١٦٢.

وهذا التحدي، الذي أعلنه الله في القرآن للإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً" (١٧/ ٨٨)، صحيحٌ كلّ الصحّة؛ ولكنّه لا ينطبق على القرآن فقط، وإنما هو ينطبق أيضاً على كلِّ عمل عظيم. فكما أنّ الإنس والجنّ لا يقدرون على أن يأتوا بمثل القرآن فإنّهم كذلك لا يقدرون على أن يأتوا بمثل ما أتى به أفلاطون والجاحظ والتوحيدي ودانتي وغوته وشكسبير...

الأعمال العظيمة تحمل دائماً بصمات أصحابها. إنّها جزء من هويّتهم. فإذا كان من غير الممكن تقليد هذه البصمات، فإنّه من غير الممكن أيضاً تقليد هذه الأعمال. إنَّ كلاًّ منها نسيج وحدَه لا نظير له من أعمال البشر. وهنا تكمن أصالته. ومع ذلك فإنَّ أيًّا منها لا يخلو من بعض المآخذ والسقطات والهنات التي يعرفها النقاد، وكذلك القرآن. ففي كلام الجاحظ والتوحيدي مثلاً ما يفوق كثيراً ما جاء في بعض آيات القرآن، كما سنرى، ولكن من يجرؤ على نقد القرآن ؟

إنّ مسلمي القرون الوسطى، في العصور الذهبيّة، كانوا أكثر حرية من مسلمي هذا الزمان، وإلاّ لم يتجرأ أحدٌ، **كالسرخسي وابن الراوندي والرازي**، على النيل من أقدس رمزٍ عند المسلمين، ومن قيمة القيم التي تعطي معنى لوجودهم وتمنحهم الأمل والخلود.

وتجنّدت جميع الجهود والقوى الفاعلة على الأرض الإسلاميّة للردّ على "أعداء الله". لقد تقبلوا نقد كتاب الله بصدر يتفاوت بين الرحابة والضيق، بين السبّ والشتم وبين الكظم وضبط النفس، وتراوح "إفحام" الخصوم بين الثرثرة والحذلقة وإيجاد المخارج والحلول كيفما اتفق -أو بما أسمّيه أنا شخصياً

بالترقيع- لإنقاذ كلام الله من براثن المكذِّبين الضالِّين المضلِّين، وبين الضرب والصفع واللكم والتصفية الجسدية، تقرُّباً إلى الله بدم هذا المفتري المجترئ على الله، المنكِرِ لآياته، ليكون عبرةً لأمثاله، جنودِ إبليس: "ولَقَد صَدَّقَ عَلَيهِمْ إبْليسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ" (٣٤ / ٢٠) هم والغاوون، فكُبكِبوا في نار جهنم كلُّهم أجمعون[2]. أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون!!

إنّ معارضة القرآن هي حركةٌ طبيعيّة نشأت بنشأة الإسلام، ولكنَّ الدين الجديد قضى عليها في المهد، أو على الأقلّ، استطاع إسكاتَها إلى حين، وذلك بعد الانتصار المذهل الذي حقّقه في شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها. لقد كان اختراقاً عظيماً صرف الأنظار موقَّتاً عمّا كان يتفاعل فيه من قوى وتناقضات عميقة لا تظهر على السطح إلاّ في فترات الهدوء والاستقرار، أو في أوقات الفتن.

لذلك لم يكن غريباً أن تتجدّد هذه الحركة أو تعود إلى الظهور، عندما بدأت الدولة الأمويّة تترنَّح وتسير نحو نهايتها المحتومة. فإنَّ الكثير من كبار الزنادقة -وهم شعوبيّون- جرحَ الإسلامُ كبرياءهم، فأخذتْهم العزّة القوميّة بالإثم، وحملتهم على التعصب لدين الآباء من المجوس والثنويّة المانوية، والحقد على الإسلام الذي قضى على أمجادهم وحطّم أحلامَهم في البقاء والعيش الكريم. وانضم إليهم رهطٌ من الشعراء ممن ينتمون إلى (عصبة المُجَّان)، فراراً من تكاليف الدين وطلباً لحياة حرّة، لا قيود فيها ولا رسوم.

ثمّ جاء العصر العبّاسي الذي نشطت فيه الحركة الشعوبيّة جنباً إلى جنب مع حركة الزندقة، واشتدّت الحملة على الإسلام

2 إشارة إلى ما ورد في سورة الشعراء ٢٦/ ٩٤.

والطعن في قدس أقداسه وهو القرآن. وكان على رأس هذه الحركة شعراء ماجِنون ومفكِّرون موتورون أشهرهم: **صالح بن عبد القدّوس، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وأبو عيسى الورّاق، وبشّار بن بُرد، وخصمُه حمّاد عجرد، وإبان بن عبد الحميد اللاحقي، وابن المقفع، و (ابنه ؟) محمّد بن عبد الله بن المقفع، وعبد المسيح الكندي** الذي سنتحدّث عنه بكلمة قصيرة بعد قليل للدلالة على اشتراك غير المسلمين في الحملة على القرآن..،

لكن أشهر هؤلاء جميعاً بلا منازع هما: أبو الحسين أحمد بن يحي بن إسحق **الرّاوندي**، وأبو بكر محمد بن زكريا **الرّازي**، اللّذان بلغتْ بهما حركة الزندقة أوْجَها وغايةَ نضجِها. وسنتحدث الآن عن كل منهما بشيء من الإيجاز يكفي لتبيان ما نحن فيه.

١. إبن الرَّاوَندي (ت ٢٩٨هـ/ ٩١٠ م)

كانت الحركة الإلحاديّة، أو حركة الزندقة، في أوّل أمرها، مجرّدَ مزاج فردي طارئ، أو نزوة ماجنة، أو موقف فكري عابر. ثمّ أخذت هذه الحركة تتّضح وتتبلور بمضي الزمن حتّى صارت مذهباً شاملاً يقوم على دعائم من العقل، وغدا له أنصارٌ يؤمنون به ويعملون على نشره وتوسيع قاعدته. وظلّت هذه الحركة تنمو وتتكامل وتتصاعد حتّى بلغت أوْجها على يد ابن الراوندي. وكانت فكرةُ النبوّة هي حجر الزاوية في هجوم هذه الزندقة على القرآن، من غير أن تتعدى ذلك إلى الشك في وجود الله الذي أنزل القرآن.

فالشكّ في النبوّة، كان أقصى ما وصلت إليه حركة الزندقة في الإسلام، ثمّ توقفت بعد أن نشأ عنها في القرن الرابع هزّةٌ عنيفة في الأفكار والعقائد، جذبت إليها تيّارات المذاهب المستورة المتأثرة بالغنوص والعرفان، وعلى الخصوص، تلك التي تنتمي إلى الشيعة، والشيعة الإسماعيليّة على نحوٍ أخصّ.

كان ابن الراوندي أشهر ملاحدة القرن الثالث للهجرة. لا يُعرف عنه إلاّ الشيء القليل، حتّى إنّ تاريخ ميلاده ووفاته لم يثبتا على وجه القطع. كان في الأصل معتزلياً ثمّ صبا فمال إلى الشيعة وأصبح العدوَّ اللدود للمعتزلة.

كان شديد الإيمان بالعقل يُشيد به ويُعوّل عليه في كلِّ شأنه، وجميع أمره. فالعقل عنده هو "أعظم نعم الله سبحانه على خلقِه، وإنّه هو الذي يُعرف به الربُّ ونعمُه، ومِن أجله صحّ الأمر والنهي، والترغيب والترهيب"[3]. له "**فضيحة المعتزلة**"[4]، وهو

---

[3] نقلاً عن د. عبد الرحمن بدوي، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، ص ٢٠٢.

[4] رَ: المرجع السابق، ص ٨٧، ١٨٦ وما بعدها.

تحليلٌ نقديٌّ لمذهب المعتزلة من وجهة نظر الشيعة الرّافضة، وردٌّ على كتاب الجاحظ "**فضيلة المعتزلة**". إلاّ أنّ هذه الفترة لم تدم طويلاً، إذ نراه بعد ذلك في زمرة أولئك الذين يطلق عليهم **صاحبُ الفهرست** اسم "المتكلمين الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الزندقة". وقد أثّر فيه **أبو عيسى الورَّاق**، وكان استاذاً له والدافع به إلى الإلحاد.

وقد ابتدأ إبن الراوندي كتبه الإلحادية في السنين الأخيرة من حياته، وهي الكتب التي يدين لها بأهميته وعلو شأنه. ومن هذه الكتب كتاب دمغ فيه القرآن، سمّاه "**الدامغ**"، وهو، كما يدلّ عليه اسمُه، طعنٌ في القرآن لا هوادة فيه.

ويُنسب إليه أيضاً كتابٌ ثالث هو كتاب "**الزمرّد**"، نقض فيه نظريّة النبوة في الإسلام، وهاجم عقيدة إعجاز القرآن. وقد قلنا أن هذا الكتاب "يُنسب إليه" لعبارة يقال إنّها ترجع إلى **الجبائي** جاء فيها: "وقد كان ابن الراوندي وأبو عيسى محمّد بن هارون الورّاق الملحد أيضاً يتراميان بكتاب "الزمرد"، ويدّعي كلٌّ واحدٍ منهما على الآخر أنّه تصنيفه. وكانا يتوافقان على الطعن في القرآن"[5].

ففي الجزئين الأوّل والثالث من هذا الكتاب يورد ابن الراوندي (أو أبو عيسى الورّاق؟) رأيه في العقل والأديان التي تقول بالوحي، ويُفصِّل القول فيهما. فهو يبدأ كتابَه بالعقل الإنساني، فيمدحه ويُسهب في إطرائه من حيث هو السبيل الوحيد إلى المعرفة. وعلى هذا ينبغي لخصومه أن يتّفقوا معه على أنّ العقل هو أعزّ ما يملك الإنسان، وأنّه الملجأ الوحيد لتقويم الأشياء. بل "إن الرسول شهد للعقل برفعته وجلالته"[6].

---

5 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١٢ و١٨٢.

6 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٨٦-١٨٧.

فالعقل هو الذي يمتحن قيمةَ النبوّة: فإمّا أن تتفق تعاليم النبي مع العقل، وحينئذ فلا موجب لها لأنّ العقل يُغني عنها، وإمّا أن تتناقض معه، وحينئذ فهي باطلة. ولذلك حقّ لابن الراوندي أن يتعجّب من أمرِ محمد ويتساءل: "فلِمَ أتَى بما ينافرُه إن كان صادقاً؟"[7]. فوحي محمد في تعارضٍ تامٍّ مع العقل. إذن، فما معنى هذه الأوامر الدينيّة المفروضة على المسلم من وضوءٍ وصلاةٍ وطوافٍ حول الكعبة وزيارةِ الأماكن المقدسة ؟

وفي ذلك يقول ابن الراوندي "إنّ الرسول أتى بما كان منافِراً للعقول، مثل الصلاة، وغُسل الجنابة، ورمي الحجارة أو الجمرات في الحجْ، والطواف حول بيتٍ لا يسمع ولا يبصر، والعدْو بين حجرَين لا ينفعان ولا يضرّان. وهذا كلّه مما لا يقتضيه العقل. فما الفرق بين الصفا والمروة إلاّ كالفرق بين ابي قبيس وحرى، وما الطواف على البيت إلاّ كالطواف على غيره من البيوت"[8].

وقد اختار ابن الراوندي أسطورةَ البراهمة للتعبير عن آرائه الجريئة. وبذلك كان يدَعُهم يَطعنون في الأديان والشرائع "المنـزلة" ليخفي تحت هذا القناع عقيدتَه.لقد جعلهم ممثِّلين للعقل والفكر لينطلق على سجيّته، ويدلي بما عنّ له من آراء وأفكار، ينسبها إلى أشخاص وهميّين، تخفيفاً لوطأتها عند السامعين.

ومن هذا المنطلق وباسم العقل الذي لم يفتر لحظةً عن مدحه والإشادة به، راح يهاجم القرآن في كتابه السالف الذكر **الزمرّد**. فقد عرض في هذا الكتاب لفكرة إعجاز القرآن فنقدها بشراسة، وأبطل القول بالمصدر الإلهي للقرآن، ووضع في ذلك نظريّة عقلية منطقيّة متماسكة بسيطة لا تعقيد فيها، قرَّب بها إلى الأذهان بشريّة

---

7 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٨٤.

8 نقلاً عن المرجع السابق، ١٠١-١٠٢. أبو قبيس وحرى جبلان بمكّة.

القرآن ردًّا على الذين يقولون بأنّه وحي من الله وتنزيل من لدن حكيم عليم.

وجاء أيضاً على لسان ابن الراوندي في إبطال عقيدة إعجاز القرآن ما يلي:

"إنّه لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفصح من القبائل كلّها، وتكون عِدّة من تلك القبيلة أفصح من تلك القبيلة، ويكون واحدٌ من تلك العِدّة أفصح من تلك العِدة... وهَبْ أنَّ باعَ فصاحتِه طالتِ العرب، فما حكمُه على العجم الذين لا يعرفون اللسان [العربي] ؟ وما حجّته عليهم؟"[9].

ويسخر ابن الراوندي من مسرحيّة الملائكة الذين أنزلهم الله يومَ بدْر مِنَ السماء لنصرةِ النبي، فيقول: إنّهم "كانوا مغلولي الشوكة، قليلي البطشة، على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدي المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادةً على سبعين رجلاً... أينَ كانت الملائكة في يوم أُحُد لمّا توارى النبيُّ ما بين القتلى فزعاً ؟ وما باله لم ينصرْه [اللّهُ] في ذلك المقام ؟"[10].

وجاء في كتاب **الزمرّد** أيضاً نقلاً عن كتاب **الإنتصار** للخيّاط قوله: "إنّ القرآن ليس من كلام إلهٍ حكيم، وإنّ فيه تناقضاً وخطأً وكلاماً يدخل في باب المستحيل"[11]، كما في مسرحيّة ملائكة بدْر التي تحدثنا عنها منذ قليل.

ثمّ إنّ ابن الراوندي يجد في كلام أكثم بن صيفي أحسن من "إنّا أعْطَينَاكَ الكَوثَر" (١٠٨ /١)[12]. كما أنّ ابن الجوزي يقول في

9 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٨٧.
10 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٨٧.
11 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١٠.
12 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١١.

إشارته المختصرة إلى كتاب **الزمرّد:** "ثمّ يبدأ بالطعن في القرآن ويزعم وجود أخطاء لغويّة به"[13].

ومِن قبْلُ اشتغل ابن الراوندي بنقد القرآن في كتابه "**الدامغ**"، وقد حفظ لنا ابن الجوزي شواهد من هذا النقد. فمن القطع التي حفظها لنا في كتابه المنتظَم في التاريخ من كتاب "**الدامغ**" الذي لم يصل إلينا، القطعة التالية: "ولما وصفَ (محمدٌ في القرآن) الجنَّةَ قال: فيها أنهار مِن لبن لم يتغيّر طعمه وهو الحليب، ولا يكاد يشتهيه إلاّ الجائع؛ وذَكَر العسل ولا يُطلب صرفاً، والزنجبيل، وليس من لذيذ إلاّ شربه، والسندس، يُفرش ولا يُلبس، وكذلك الإستبرق، الغليظ من الديباج. قال ومن تخايل أنّه في الجنة يلبس هذا الغلظ ويشرب الحليب والزنجبيل، صار كعروس الأكراد والنبط"[14].

ويعرض ابن الراوندي للتحدّي الإلهي بالإتيان بمثل القرآن، فيقول: "إن أردتم بمثله في الوجوه التي يتفاضل بها الكلام، فعلينا أن نأتيكم بألفٍ مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء، وما هو أطلقُ منه ألفاظاً وأشدُّ اختصاراً في المعاني، وأبلغ أداء وعبارة، وأشكل سجعاً، فإن لم ترضوا بذلك فإنّا نطالبكم بالمِثْل الذي تطالبونا به"[15].

حتى المعتزلة الذين ينكرون جميع المعجزات أو على الأقل لا يُعلّقون عليها أهميّةً تُذكر، فإنّهم لا يعترفون بمعجزة أخرى غير معجزة القرآن[16]. بل إنّ النَّظّام، وهو أكثر متكلّمي المعتزلة جرأةً وحرية، قد أنكر "إعجاز القرآن" في نظمه، وأنكر ما رُوي من

13 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٢٠.
14 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٣٣.
15 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٦.
16 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١٩ و١٥٣.

معجزات نبيِّنا صلّى الله عليه وسلم: مِن انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبوع الماء من بين أصابعه، ليتوصّل بإنكار معجزات نبيّنا عليه السلام إلى إنكار نبوته"[17].

17 ألبغدادي، **ألفرق بين الفرق**، ص ١٣٢؛ رَ أيضاً: ص ١٤٩-١٥٠.

٢. عبد المسيح الكندي (القرن ٩"م)

لم يكن هذا الهجوم على الإسلام محصوراً في المسلمين المرتدّين، بل لقد دخل على الخط غيرُ المسلمين تأجيجاً لنار الحملة الشرسة التي شُنّت على الدين الجديد. ولعلّ أشهر هؤلاء ممن وصلتْ إلينا مقتبساتٌ عنهم هو الفيلسوف عبد المسيح بن اسحق الكندي، وهو رجل نسطوري يدّعي أنه عاش في بلاط المأمون الذي لا بدّ أن يكون انفتاحه على المخالفين له في الرأي والعقيدة، قد احتمل نقد هذا النصراني العنيف الذي هاجم شعائر الإسلام وعقائده الواحدة تلو الأخرى، وعلى الخصوص مناسك الحجّ.

والذي يهمّنا من آرائه في ما يتّصل بموضوعنا هنا تفسيره لتأثير القرآن بأنّ "الأنباط والأسقاط والعجم والمغفلين والأغبياء الذين لا معرفة لهم باللسان العربي" هم الذين ينخدعون بدعوى إعجاز القرآن من ناحية نظمه"[18].

18 نقلاً عن د. بدوي، **من تاريخ الإلحاد في الإسلام**، ص ١٢٩.

٣. أبو بكر الرازي (ت٣١١هـ/٩٢٣ م)

ألرازي هو ثاني اثنين اقتحما الخطوط الحمراء بجرأة منقطعة النظير. كثيرون قبلهما حاموا ولكنّهم لم يصيبوا، إمّا لجبنهم وإمّا لقلة مؤونتهم. وأمّا الرازي، ومِنْ قَبله ابن الراوندي، فقد كانا فارسَي الحلبة بلا منازع. وإنّ جميع الذين تصدّوا للرد عليهما لم يبلغوا مبلغهما. كلاّ. ولم يكونوا في مستواهما. لقد كانوا أقزاماً لا يجوز مقارنةُ أيٍّ منهم بهما. هيهات هيهات !

كلاهما مفكِّر ثائر متمرّد، كشف المستور، وأخرج المكبوت، وحرّر المقموع، وفكّر في ما لا يُفكَّر فيه؛ بل ولا يجوز التفكير فيه. إنّ كلاًّ منهما لم يقبل دون قُدس الأقداس مطلَباً لنقده والخوض فيه لكشف عواره، وفضح أساطيره وأوهامه، وبيان ما فيه من تهويلات وادّعاءات وأقاويل من شأنها تحطيمُ الإنسان، وشلُّ قدراته، وجعلُه مسخَّراً لقوى خارقة وغيبيّات تبتزّه وتهدّده كسَيفٍ مُصْلتٍ فوق رأسه، لا يدع له مجالاً للتحرّك ليرى ما وراء أنْفه ويعرف ما يدور من حوله؛ وهكذا يقضي حياته رهناً لمخاوف وهواجس ووساوس وظنون تحول بينه وبين تحقيق وجوده الأمثل، وتقضي على كلِّ أملٍ له في تحرير الذات واستقلال الشخصيّة.

كان الرازي فيلسوفاً، طبيباً وكيميائيًّا من الطراز الأول. كما كان عميد حركة الإلحاد والزندقة في عصره والعصور اللاّحقة.

وإذا كان من فرْق بينه وبين ابن الراوندي فهو في درجة العمق والتوّسع في التفاصيل والقدرة على استيلاد أفكار جديدة من أفكار قديمة. إنّما كلاهما يؤمن بالعقل، وكلاهما يراهن على العقل، وكلاهما يصدر في أحكامه وتقريراته عن العقل. فالعقل هو

المرجع في كلّ شيء عندهما، والحَكَم الفرد المطلق الذي يبتّ في مواقفهما، ويحسم الأمر في آرائهما.

وإذا كان ابن الراوندي، في تفكيره الإلحادي الرافض للدين، يتحرّك في أجواء شبيهة بالأجواء التي يتحرّك فيها المتكلمون، فـ "الرازي يتناول مساوئ الأديان بالطعن والنقد الشديد من وجهة نظر الفلسفة"[19].

وإذا كان ابن الراوندي قد اتخذ من البراهمة قناعاً يخفي فيه آراءه، فيقول على لسانهم ما عنّ له أن يقول في إبطال النبوّات وفي توكيد مناقب العقل، كذلك يفعل الرازي، إذ يُنسب إليه ليس فقط ما يتصل بالأخلاق كما فعل ابن الراوندي بل يُنسب إليه أيضاً ما يتصل بالمسائل الإلهيّة، فيقول إنّنا "به وصلنا إلى معرفة الباري عز وجل"[20].

وهذا يقطع بأنّ النبوة أصبحت لا مبرر لها ما دمنا نعرف بالعقل كل شيء أخلاقي وغير أخلاقي. وعلى كلّ حال، إن ابن الراوندي "كان يجول في محيطٍ كلاميٍّ ديني، ولهذا تركّز نقده في هذه النواحي، أمّا الرازي فقد كان يجول في جوٍّ علمي"[21].

وخلاصة القول، لقد شقّ ابن الراوندي الطريق، ونهج السبيل، فأمدّها الرازي بالماء، وحفّها بالنخيل وزيّنها بالأزهار والرياحين، ورفع عليها البنيان العظيم.

لقد أشاد الرازي بالعقل "بلهجة لا تكاد تجد لها مثيلاً عند كبار العقليّين في كلّ العصور، حتّى في العصر الحديث"، كما يؤكّد ذلك عبد الرحمن بدوي في كتابه المذكور آنفاً.

---

19 نقلاً عن المرجع السابق، ص ١٢٧.

20 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٠٣.

21 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٧.

بالعقل يستغني الإنسان عن النبوّة وعن الأديان وعن جميع الكتب السماويّة، وبالتالي عن القرآن. فبالعقل، وبالعقل وحده، نعرف الخير من الشر، والحق من الباطل. فلا سلطة غير سلطة العقل، ولا إيمان بغير الإيمان بالعقل... وإذا كان هذا مقداره، فحقيق علينا أن لا نحطَّه عن رتبته، ولا نُزلَّه عن درجته، ولا نجعله، وهو الحاكم، محكوماً عليه.

لقد كانت النبوة شغل الرازي الشاغل، فأبطلها لأنّ العقل يغني عنها. ويقول: "فمن أين أوجبتم أن الله اختص قوماً بالنبوّة دون قوم، وفضّلهم على الناس، وجعلهم أدلّة لهم وأحوج الناس إليهم ؟ ومن أين أجزتم في حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك، ويُعلي بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوات ويكثر المحاربات، ويُهلك بذلك الناس؟"[22].

ولا يعنينا هنا أن يوسع الرازي النبوة والأنبياء نقداً وتجريحاً، وأن يستفيض في الحديث عن ذلك، وإنما يعنينا نقده للأديان لنصل من ذلك إلى رأيه في القرآن. لذلك نراه يُعرِّج على الأديان "المنـزَّلة" وما جاءت به من كتب تنسبها إلى السماء. فيتناولها جميعاً بلا انحياز ولا محاباة ولا تمييز، فكلّها في الهم سواء[23].

فإلحاد الرازي لم يكن مقصوداً به دينٌ معين دون آخر، أي لم يكن مقصوداً به الإسلام وحده. وهذا لعمري إنما يدل على موضوعيّة الرازي وسداد رأيه. فالأديان جميعاً عرضة للطعن والتجريح. فهي لا تستقرّ على قول واحد، بل يناقض بعضُها بعضاً مع أنها تدّعي أن مصدرها واحد منـزّه عن النقص والكذب. فكيف يستقيم ذلك مع ما نرى فيها من محالات ومتناقضات؟

---

22 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٠٥.

23 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٠٨-٢١١.

وهنا يطرح الخصم هذا السؤال: إذا كانت الأديان على ما تقول، فكيف نفسّر تعلق الجماهير بها ؟

ويردّ الرازي على هذا الاعتراض بأنّ أهل الشرائع أخذوا الدين عن رؤسائهم بالتقليد، ونهوا عن النظر والبحث عن الأصول، ورووا عنهم أخباراً توجب عليهم ترك النظر في هذه الأصول، وتوجب الكفر على مَن خالف ذلك. فإذا سُئل الرؤساء عن الدليل على صحّة دعواهم استطاروا غضباً وهدروا دم من يطالبهم بذلك. ثمّ جاء طول الإلف ومر الأيام والعادة واغترار الناس بلحى التيوس المتصدرين في المجالس، يمزّقون حلوقهم بالأكاذيب والخرافات، ومِنْ حولهم ضعفاء العقول من الرجال والنساء والصبيان، حتى رسخ ذلك في الناس وصار لهم طبعاً وعادة[24].

ثمّ يعود الرازي إلى احتجاجه بتناقض الكتب "المقدسة" للدلالة على بطلانها. فتناقضُ الأديان يؤدّي إلى تناقض الكتب المنـزَّلة التي جاءت بها. فهو يأخذ على التوراة والقرآن والحديث النبوي ما فيها من تجسيم وتشبيه. فذكر ما في التوراة من وضع الشحم على النار ليشمَّ الربُّ ريحَه، وما فيها أيضاً من تصوير الله في صورةِ شيخ كبير أبيض الرأس واللحية. وهذا تشبيه وتجسيم يناقض القول بثبات الله وعدم تأثره بالأشياء من روائح وغيرها. وكلّ هذا مما يؤذِن بأنّ الله مؤلَّف ومصنوع ينفعل بالأشياء كسائر المخلوقات.

كما يأخذ الرازي على النصرانيّة قولها بوجود قديم غير مخلوق إلى جانب الله هو المسيح ابنه، وهذا يؤدّي إلى الشرك. ثم كيف نوفّق بين قول المسيح بأنه جاء لإتمام التوراة وبين نسخه

---

24 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١١-٢١٢.

لشرائعها وتبديل أحكامها ؟ ألغريب أنّه في نقده للمسيحية لم يأت في النصوص التي بين أيدينا على ما ورد في القرآن من تحريف الإنجيل[25].

إنّ التشبيه والتناقض لا يقتصران على اليهودية والنصرانية بل يشملان أيضاً أحاديث النبي والقرآن أيضاً... وذلك مثل ما روي عن النبي أنه قال: "رأيت ربي في أحسن صورة، ووضَع يدَه على كتفي حتى وجدتُ برد أنامله بين ثَنْدَوَتَيْ"[26]، وقوله "جانب العرش على منكب إسرافيل، وإنه ليئط أطيط الرَّحْل الجديد"[27].

كما أن ظاهر الكثير من الآيات في القرآن تدلّ على التشبيه، ولا ينكر ذلك إلاّ مكابر، وذلك مثل قوله عز وجل: "الرحمنُ على العرش استوى" (٢٠/ ٥)؛ وقوله أيضاً "ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية" (٦٩ /١٧)؛ وقوله "الذين يحملون العرش من حوله" (٤٠/ ٧). فكيف يستقيم هذا مع تنزيه الله عن صفات الحوادث تنزيهاً مطلقاً يتجلّى في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء" (٤٢/ ١١).

كذلك كيف عسانا نوفّق بين الآيات التي تقول بالجبر والأخرى التي تقول بالإختيار ؟ ولعل الرازي قد استقى هذه المسائل من كتب علم الكلام كما يلاحظ عبد الرحمن بدوي[28].

أما القول بأنّ هذه الآيات يجب تأويلها، أي صرفها عن المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن، فهذا آخر ما يهتمّ به الرازي. فمن حيث هو ملحد، لا يعتدّ بالتأويل ولا يُقيم له أيَّ وزن، لأن التأويل في نظره ونظر أمثاله فذلكة وتحايل -وبتعبيري أنا:

---

25 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٣-٢١٤.

26 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٤. ألثَنْدَوَة: هي اللحم الذي حول الثدي.

27 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٤.

28 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٨.

ترقيع-، يراد به إنقاذ النصّ كيفما اتفق واعطاؤه معنى مقبولاً. فالرازي وأمثاله يتّجهون إلى الأديان كما هي في نصوصها الظاهرة، لا في ما تنطوي عليه من معان خفيّة[29].

والرازي ينقد القرآن أيضاً على أساس ما ورد فيه مخالفاً لما في النصرانية واليهودية فيقول: "إنّ القرآن يخالف ما عليه اليهود والنصارى من قتْل المسيح عليه السلام. لأنّ اليهود والنصارى يقولون إن المسيح قُتل وصُلب، والقرآن ينطق بأنّه لم يُقتل ولم يُصلب وأنّ الله رفعه إليه"[30].

وهكذا يضرب الرازي الأديان والكتب السماوية بعضها ببعض ليصل إلى هذه النتيجة: وهي أنّها كاذبة، لأنّ التناقض بينها يؤذن بكذبها ما دامت تدَّعي أنها ترجع إلى مصدر إلهيّ واحد.

وبعد هذه الحملة على الأديان جميعاً، يعلّق الرازي أيضاً فيقول: "قد، والله، تعجّبنا من قولكم إنّ القرآن هو معجزة، وهو مملوء من التناقض، وهو حكاية أساطير الأوّلين، من غير أن تكون فيه فائدة أو بيّنة على شيء"[31].

وهذا رأي في غاية السداد، ففي القرآن تعقيد وفيه ألغاز، وفيه غموض وتعمية لم يستطع أئمّة التفسير حتّى الآن الوصول إلى نتائج حاسمة فيها، رغم كلّ ما أراقوا من مداد، وبذلوا من جهود في فذلكات فارغة، ومماحكات مملّة، وثرثرة لا هاجس لها إلاّ إنقاذ نصٍّ لا سبيل إلى إنقاذه إلاّ بالسفسطة والحشو و"اللفلفة" والهراء والأسطورة[32].

---

29 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٤-٢١٥.

30 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٥.

31 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٦ و٢١٨ في صيغتَين مختلفتَين.

32 ومَن أراد تكوين صورة تقريبية -ولو غير دقيقة- عن هؤلاء الثرثارين وسخف أقوالهم، فليستمع إلى تسجيلات الشيخ متولّي شعراوي، التي يجلجل صوته بها في

وكما تحدّى القرآنُ الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله، كذلك تحدّى الرازي علماء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بمثل ما في كتاب أصول الهندسة و المجسطي وغيرهما. يقول الرازي "إنّا نطالبكم بالمثْل الذي تزعمون أنّا لا نقدر أن نأتي به"[33]. وبهذا فهو يردّ على الخصم حجّتَه. أي إنّه بهذا التحدي يشير إلى أنّ الحجّة نفسها ترتدّ على الخصم، إذ ليس في وسع إنسان أن يأتي بمثْل نفس ما أتى به إنسانٌ آخر، مهما بلغ من القدرة على المحاكاة وإتقان التقليد.

ثمّ إنّ هذه الكتب وأمثالها أكثرُ فائدة وأعمُّ نفعاً من القرآن والكتب السماوية عامة، لأنّ فيها من العلم ما فيه فائدة للناس في معاشهم وأحوال دنياهم، بينما التوراة والإنجيل والقرآن لا تفيد شيئاً. وإذا كان لا بدّ من التحدّث عن الإعجاز والحجّة، فالأَوْلى بهما أن يُعزيا إلى مثل هذه الكتب النافعة. وفي هذا يقول الرازي: "وأيم الله، لو وجب أن يكون كتابٌ حجّةً، لكانت كتبُ أصول الهندسة والمجسطي، الذي يؤدي إلى معرفة حركات الأفلاك والكواكب، ونحو كتب المنطق، وكتب الطب الذي فيه مصلحة للأبدان أَوْلى بالحجّة مما لا يفيد نفعاً ولا ضراً"[34] أي القرآن وأمثاله.

الإذاعات العربيّة، وهو يفسّر القرآن بلسانٍ ذرب يتفجّر كالسيل يترضّى به العوام وجهّال العلماء، ومِنْ حوله البله يهدرون بكلمة "ألله ألله" أو "ألله أكبر ألله أكبر"، فيزداد حماسة واندفاعاً. ولو لم يكونوا في المسجد في مجلس ديني وقور لملأوا الدنيا هتافاً وتصفيقاً كما يفعلون في المهرجانات الخطابية. وأنا على ملء الثقة أنّهم لا يفقهون شيئاً مما يصول به ويجول، وهو مَثَل يُحتذى عند جهّال العلماء والفقهاء والوعّاظ وأئمّة المساجد وسائر الرعيل. فهو يُعَدُّ عند اتباعه والمعجبين به إحدى قمم التفسير في هذا العصر، بل ظاهرة فريدة من ظواهر هذا العصر !! بل هو في نظر بعض مريديه، ممّن أشار إليهم النبي في حديث مشهور: إنّ الله سيبعث لهذه الأمّة على رأس كلِّ مئةٍ سنة مَن يجدّد لها دينَها !

33 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٨.

34 نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢١٩.

وعلى كلِّ حال لستُ أول من يقدم على نقد القرآن فهذا شرف لا أدّعيه. كلاّ. ولن أكون الأخير فإنَّ عملي هنا مسبوق، لكنّه يختلف عمّا سبقه من حيث طريقة المعالجة، ومن حيث المستوى والمصطلحات وحقول المعرفة. لكن حق الريادة يثبت دائماً لمن شقّ الطريق ونهجَ السبيل. فحقُّ السابق على اللاّحق لا ينكره إلاّ مكابرٌ مأفون. فلولا أنّ اللاّحق يجد من السابق معونة وإبانة عنه، لما استقام له أمر ولا تمَّ له عزم، وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً. وهكذا يكلُّ الحد ويتبلّد الذهن وتسقط الهمة. "ألسابقون السابقون. أولئك المقرَّبون!" (٥٦/ ١٠).

ثالثاً

بلاغة القرآن

ولنا أن نتساءل الآن : هل القرآن معجزٌ حقاً ؟

إن عقيدة إعجاز القرآن لا تصمد للنقد بوجه من الوجوه. شبهات كثيرة تحوم حول هذه العقيدة، وقد رأينا شواهد واضحة على ذلك عند ابن الراوندي وأبي بكر الرازي. وسنرى بعد قليل شواهد كثيرة أخرى تدحض هذه العقيدة، على أن ننظر إلى الأمور بتجرّد وموضوعية، وألاّ ننجرف بالكثرة العددية والآراء السائدة. فالحقائق العلميّة لا تُعرف بالتصويت كما في المجالس البرلمانية مهما كان عدد الأصوات التي تؤيدها كبيراً.

والإعجاز في نظري نوعان : لفظي ومعنوي.

فأمّا الإعجاز اللفظي فشروطه وضوح التعبير، وسلاسة الألفاظ، وسلامتها من التعقيد وضعف التأليف وتنافر الكلمات، وأن يكون الكلام على مستوى واحد من الجودة والروعة والاتقان.

ولكنّ الإعجاز اللفظي لا قيمة له إذا لم يقترن بالإعجاز المعنوي، وإلاّ كان نظماً من الكلام المرصوف، والثرثرة الجميلة، والحشو الفارغ. لذلك لا بدّ للكلام البليغ من تسلسلِ الأفكار، وتساوقِها، وامتلائها بالمعنى، وأن يكون خالياً من الخطأ، سليماً من التناقض.

غير أنّ آيات القرآن متفاوتة في الجودة لفظاً ومعنىً. وهذا ما لاحظه الأقدمون وأثبتَه السيوطي.

فإذا كانت طائفة كبيرة من الآيات في الذروة من الروعة والجمال، فإنّ طائفةً أخرى من الآيات هي دون ذلك بكثير، حتّى إنّ بعضها لا يخلو من الضعف والركاكة.

كما أن الغموض والإلغاز يلفّ عدداً لا يستهان به من الآيات، بحيث يحار المرء في فهم المعنى المقصود من هذه الآية أو تلك، حتّى إنّ بعضَها ليبدو بلا معنى، وإنِ "اكتشف" له المفسِّرون والبلغاء ألفَ معنى ومعنى.

إنّ كتب البلاغة مليئةٌ بأبوابٍ لا معنى لها وُضعت فقط لإيجاد المخارج والتبريرات لـ "لفلفة" بعض الآيات التي تصدم القارئ، باسم الغَوص على أسرار القرآن وما فيه من إعجازٍ عظيم.

فالبلاغةُ، في ما أرى، إنما وُضعت للدفاع عن القرآن، أي لأغراضٍ إيديولوجيّة صرْفٍ، لا للوصول إلى الحقيقة... أجل لقد كانت الإيديولوجيا هي العامل المهيمن على جميع أبحاث علمائنا في هذا الباب على حساب الموضوعيّة والمنهجيّة العلميّة.

يضاف إلى ذلك أخيراً ما نرى في القرآن من تفكّكٍ وتشويشٍ، فضلاً عن الأخطاء العلميّة الفادحة.

فهل يستقيم ذلك كلُّه مع عقيدة الإعجاز في شيء ؟ أم على قلوبٍ أقفالُها ؟ هذا ما سنبحثه الآن.

إنَّ جلَّ الدارسين للنصِّ القرآني من غير الغربيّين، إنْ لمْ يكونوا كلُّهم، يعالجونه على أساس أنَّه نصٌّ مقدس، أي لا يجوز نقدُه، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفِه. فافتراضُ صحّتِه وعصمتِه مقدَّماً يضع حاجزاً يحول بيننا وبينه، ويحرمُنا من كثيرٍ من الثروات التي قد يزخر بها. وهكذا نسدّ جميع الأبواب التي كانت مفتوحة أمامنا قبل أن نبدأ. ولن يتبقّى من عملٍ في هذه

الحالة إلاّ أن نصبَّ كلَّ ما نملك من جهد على تجميل النصّ وتلميعه وتحميله ما لا يحتمل، والدفاع عنه حقاً أو باطلاً، و"اكتشاف" ما فيه من ذخائر وأسرار وحِكَم ومعانٍ تحار فيها العقول وتتيه فيها الأذهان، وهنا تبدأ رحلة البحث عن هذه الدرر.

وقد لا يكون النصُّ أكثرَ من مجموعة من الكلام الفضفاض الذي لا يعني شيئاً. لكن المفسر -بخلفيّته المؤمنة وتوقّعاته السخيّة التي تفترض في النص حكمةَ الأوّلين والآخِرين، لإنّه من لدن حكيم عليم "نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين" (٢٦/ ١٩٣-١٩٤)- أقول إذا كان النصّ لا يعني شيئاً فإنّ المفسر يرى فيه كلَّ شيء. إنّه الدُّرة المصونة والجوهرة المكنونة، إنّ هذه طريقة عقيمة مُفلسة في تناول النصّ القرآني، لا تحصد غيرَ الريح ولا تَخرج بشيء غير الثرثرة و"اللفلفة" والافتعال وتقويل النصّ ما لم يخطر لصاحبه على بال !

كلاّ. ليس القرآن من أسرار الآلهة. إنّه لا يمتّ بأيّ صلة إلى الإلهام السماوي الذي يخرج به عن حركة التاريخ. إنّه إنجازٌ بشريٌّ صرْفٌ، تجري عليه قوانين البشر، ويَسري عليه ما يَسري على أعمال البشر من قوّة وضعف، وصواب وخطأ، واتّفاق واختلاف، وتماسك وتنافر، واتّساق واختلال، وأصالة وتقليد، وعمق وسطحية، وشفافيّة وهشاشة...

والنتيجة المباشرة لذلك كلِّه هي أنَّ القرآن كتاب عادي جداً. ولذلك كان من الضروري انتزاعه من مستقرّه الآمن المطمئن خارج التاريخ البشري وإعادته إلى دنيا الناس. فلا يبقى بعد ذلك مستودَعاً للحكمة السرمدية، كتاباً سماوياً معصوماً من الخطأ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مِن خلفه، وبذلك يصبح هو وعصره وبيئته جزءاً من الدورة التاريخيّة وحركة الأحداث.

إذا قرأتَ القرآن وجدتَ فيه مادّة غزيرة من الألوهة والعبادات والمواعظ والأخلاق والتشريع والوصايا والحِكَم والأمثال والقصص والأساطير... ولكنّك تكاد لا تعثر فيه على صفحة واحدة تترابط فيها الأفكار وتتسلسل، ويأخذ بعضها برقاب بعض، ما لم يكن النصُّ مستغرِقاً في سرد قصةٍ، أو تقرير حكمٍ، يحتاج إلى شيء من التطويل، فما أن يفرغ منه حتى يقفز إلى موضوع آخر لا صلة له به. ويتخلّل ذلك استطرادات تقطع السياق الذي قد لا تجد له تتمّة، فيضطرّ مفسِّرونا الثرثارون إلى تقدير تتمّة له، وإذا كانت له تتمّة فلا تعثر عليها إلا بعد تنقيبٍ شديد يعزوه الثرثارون إلى حكمة بالغة.

وهناك صفحات كاملة في القرآن فيها تشويش كبير، كما فيه أيضاً ألفاظ نابية وعبارات ركيكة. وفيه تقعّر وتكلّف وصنعة وافتعال وغموض وألفاظ ذات معان متضادة يصعب على المرء تقرير أي الوجهين المتضادين هو المقصود. ولو كان ذلك مقصوراً على القضايا الثانوية التافهة لهان الأمر، ولكنّه يتعدّاه أيضاً إلى قضايا الإيمان والأحكام.

ولا ننسى أن نضيف إلى هذه السقطات والعيوب ما في القرآن من تناقضات لا يخطئها البصر. وكم جهد الثرثارون لإخفائها وإعطائها معاني غريبة ليست لها، لجعلها عنواناً للحكمة والرصانة!

ويضاف إلى هذه السلسلة من السلبيات التي يكتظّ بها القرآن، والتي سنراها مفصّلة رأيَ العين، إختلاط كلام الله بكلام البشر في الآية الواحدة. فبينما النصف الأول من الآية يجري على لسان النبي أو الرسول أو أحد الصالحين، نجد تتمتها في النصف الثاني كلاماً لا يمكن لإنسان أن ينطق به بل لا بد من نسبته إلى الله، فإمّا

أن تكون هذه النسبة مقحمة على النص، أو أن تكون الآية مبتورة ضاع نصفها الآخر فأكملها النسّاخ -وأكثرهم ينسخون ما لا يفهمون- بما سبق إلى أذهانهم من ألفاظ يرمّمون بها الآية ويسدّون نقصها، هذا رغم كلّ ما يشاع عن توثيق النصّ وتحرّي الدقة الشديدة في تدوينه.

وأخيراً -لا آخراً- يجد العلماء صعوبة كبيرة جداً في قبول كثير من آي الذكر الحكيم لمعارضتها الشديدة للحقائق العلمية في الوقت الحاضر. لقد كانت هذه الآيات صادقة عندما كان العلم والفلسفة والأسطورة شيئاً واحداً تقريباً. وأما اليوم فقد اختلف الوضع وانجلى الموقف عن مدى سذاجة القرآن عندما تقبّل ما هب ودب من موروثات العصور القديمة ونسبها إلى "كنز" المعارف الإلهية في أسرار الكون والحياة والمصير.

ومع كلّ هذا يريدوننا لنصدّق أنّ القرآن "لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" (٤/ ٨٢). لكن الترقيع الثرثاري كفيل بتسوية كل خلاف والرد على كل اعتراض، واعطاء القرآن وحدة منسجمة متماسكة بريئة من العيوب، ليخرج من بين أيديهم "قرآناً عربياً غير ذي عوج" (٣٩/ ٢٨).

وسنتحدث عن ذلك كلّه بما يتّسع له المجال ويسمح له المقام من التفصيل والتوضيح والإيضاح، لنفتح قلوباً غُلفاً، وآذاناً صُمًّا، ولنـزيل الغشاوة عن عيونٍ لا ترى إلاّ ما تريد أن ترى، ونفتق الألسنة فلا تقول على الحقّ إلاّ الحقّ، ولا تنطق بغير الحق.

وهكذا، وأياً كان حكمنا على القرآن، ففيه من الروائع والبدائع باقات لا يملك المنصفون -مهما كان انتماؤهم ومهما كانت عقائدهم ومعتقداتهم- إلاّ أن ينحنوا لها ويخرّوا للأذقان سجَّدا. ولكن هل كلّ القرآن كذلك ؟ كلاّ وألف كلاّ. فإنّ هذه الآيات

وما يحيط بها من أطياف وهالات، تستولي على العقل والقلب والشعور، وهي بما أهرقت من مداد، وأثارت من أقلام، وفجرت من طاقات وحركت من مواجيد -أقول إن هذه الآيات بما سُلط عليها من أضواء كاشفة، قد حجبت مجموعة أخرى من الآيات عن مجال الرؤية وألقت بها في العتمة. فإذا بنا لا نرى إلا ما يأخذ بالأبصار ونعمى عما دون ذلك، وإن بقينا في الحالين -ومن حيث ندري أو لا ندري- نُصدر عليهما حكماً واحداً، فيا لَلغباء ! وهكذا ألحقنا آيات العتمة بآيات التوهج، وأغفلنا الفرق الشاسع بينهما لاشتراكهما في اسم واحد وهو القرآن، كمن يلحق الثرى بالثريا لاشتراكهما في جذر واحد هو الحروف الثلاثة ث ر ى.

فلا تظنّن إذن أنّ القرآن كلّه على سمت واحد، مسبوك على تلك الآيات الروائع التي أوردناها في الصفحات السابقة، كلاّ. تلك كانت حبّات من الدرّ واللؤلؤ التقطت من بين التراب والحصى، كقِطَعٍ متجاوراتٍ من الأرض تتناثر فيها هنا وهناك أشجار من أعنابٍ، وأُخر تنبت بالدهن والصمغ والزهر والتمر، بين كثبان مترامية من الزؤان والقصب والأعشاب الضارّة، هل يستويان مثلاً ؟

وهكذا القرآن. فهو -كما ذكرنا من قبل وكما سنرى مفصلاً- ليس على مستوى واحد من الجودة والسطوع والرونق. ففيه الغثّ، وفيه السمين، وفيه ما بين ذلك. أخلاط يعزّ على العقل تصوّر الالتئام بينها، لكنّها تلتئم بالإكراه والإستكراه، وحين يتدخل الافتعال والثرثرة في رتق الفتوق ورأب الصدوع وسدِّ الفجوات، بعضها سهل المأتى وبعضها لا يسلس إلاّ بكثير من الجهد والمؤونة، وبعضُها ألغاز ومعمَّيات كأنّ العقل منها في عُقال. وسنكشف عنك غطاءك أيها القاريء، فبصرك غداً حديد، وإنَّ غداً لناظره قريب !

١. أنظروا إلى هذه الدرّة الرائعة التي يصف فيها القرآن انكشاف سرائر المجرمين وافتضاح أمرهم أمام الله الذي أنطق أعضاءهم يوم القيامة، فشهدت عليهم بما اقترفوا من آثامٍ ظنّوا أنّها اندثرتْ إلى غير رجعة، فإذا هي مسجلة تنطق بالحق :

"ويَومَ يُحشَرُ أعداءُ اللهِ إلى النارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حتّى إذا جاؤوها شَهِدَ عليهِم سمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهُم بما كانُوا يَعمَلون. وقَالوا لجلودِهم : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلينا ؟ قَالوا : أنْطَقَنا اللهُ الذي أنْطَقَ كلَّ شيءٍ. وَهُوَ خلَقَكُم أوّلَ مرَّةٍ، وإليهِ تُرجَعُونَ. ومَا كُنتُم تَسْتَتِرُونَ أنْ يَشهَدَ عليكُم سمْعُكم ولا أبصَارُكُم ولا جُلودُكم، ولكنْ ظَنَنتم أنّ الله لا يعلمُ كثيراً ممّا تَعمَلون. وذلكُمْ ظنُّكُم الذي ظنَنتُم بربِّكُم أرْدَاكُم، فَأصبَحتُم مِنَ الخاسِرين" (٤١/ ١٩-٢٣).

فإذا كانت هذه الرائعة "الإلهية" من السهل الممتنع الذي لا يؤتَى بمثله، وهذا صحيح، فهل تُرى يمكن أن يؤتَى بمثل هذه الرائعة "البشريّة" **للجاحظ** الذي يقول بأسلوبه النديِّ الممتع في كتابه **التربيع والتدوير**، الذي يترقرق بياناً وفصاحة وصفاء وإشراقاً :

"بل ما يهمّك أقاويلُهم ويتعاظمك من اختلافهم ؟ والرّاسخون في العلم، والناطقون بالفهم يعلمون أنّ استفاضة عَرضك قد أدخلتِ الضيم على ارتفاع سمكك، وأنّ ما ذهب منك عرضاً قد استغرقَ ما ذهب منك طولاً. ولئنِ اختلفوا في طولك لقد اتّفقوا في عرضك. وإذْ قد سلَّموا لكَ بالرغم شطراً، ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصَّلتَ ما سلَّموا، وأنتَ على دعواك فيما لم يُسلِّموا. ولعمري إنّ العيون لَتُخطئ، وإنّ الحواس لَتكذبَ، وما الحكم القاطع إلاّ

للذّهن، وما الاستبانة الصحيحة إلاّ للعقل، إذ كان زمَاماً على الأعضاء وعياراً على الحواس"[1].

هذا، ولا يُذكَر أمراءُ القول إلاّ ذُكِر **أبو حيان التوحيدي**. فقد أوتي جوامع الكلم، وعلى لسانه تتفجّر الحكمة وتنثال المعاني. ولكنَّ الدهرَ حرمه الدنيا. ودونكم هذا النص الذي جاء في مفتتح **الإمتاع والمؤانسة** يصف فيه الدنيا، بأوجز وصفٍ وأدلِّ معنى وأقصرِ عبارة، كأنما يصف نفسه الملتاعة وحظه العاثر :

"إن هذه العاجلة محبوبة، والرفاهيّةَ مطلوبة، والمكانةَ عند الوزراء بكلِّ حوْلٍ وقوّة مخطوبة، والدنيا حلوةٌ خضرة وعذبة نضِرة. ومَن شفَّ شقَّ عملُه، ومَن اشتدَّ إلحاحُه توالى غُدُوُّه ورواحُه، ومَن أسَرَه رجاؤه طال عناؤه وعظُم بلاؤه، ومَن التهب طمعُه وحرصُه ظهر عجزُه ونقصُه"[2].

وكان **بديع الزمان** مُحيّراً على نحو ما كان الجاحظ والتوحيدي. كان ظاهر الإمتاع، وكانت الكلمة بين يديه طيّعة ذلولاً، تعبق بالعطر والشذى، وتفوح منها رائحة الطيب. وقد وصلت إلينا منه كلمات غيرُ قليلة لا يفرغ منها التأمل، لا تقلُّ روعةً وسلاسة عن كثيرٍ من آي الذكر الحكيم، لكنَّ كثيراً من القرّاء يأخذونها مأخذاً يسيراً. لنقرأ هذه القطعة الفنّية الجميلة يصف فيها جوعَه عام مجاعة ببغداد، وكيف تبخّرتْ جميع آماله في الحصول على الطعام فلم ينلْ منه غيرَ اللوعة والأسى. قال على لسان عيسى بن هشام :

"حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ ببغداد عامَ مجاعة، فملتُ إلى جماعة، قد ضمّهم سمطُ الثريا، أطلب منهم شيّا. وفيهم فتى ذو

---

1 **ألتربيع والتدوير**، تحقيق شارل بلاّ، ص ٥.

2 **ألإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ص ١٣.

لثغةٍ بلسانه، فقال : ما خطبُك ؟ قلتُ : حالان لا يُفلح صاحبُهما : فقيرٌ كدَّه الجوع، وغريبٌ لا يمكنه الرجوع. فقال الغلام : أي الثلمتين تقدَّم سدُّها ؟ فقلتُ : الجوع، فقد بلغ مني مبلغا. قال : فما تقول في رغيفٍ على خَوانٍ نظيفٍ، وبقلٍ قطيفٍ إلى خلٍّ ثقيفٍ، ولوزٍ لطيفٍ إلى خردلٍ حرّيفٍ، وشواءٍصفيفٍ إلى ملحٍ خفيفٍ، يقدمه إليك الآن مَن لا يمطلك بوعد ولا يعذبك بصبر، ثمّ يَعُلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية من راح عنبيّة ؟ أذاك أحبُّ إليك أم أوساط محشوّة وأكواب مملوّة، وأنقال معدّدة وفُرش منضّدة وأنوارٍ مجوَّدة، ومطرب مُجيد له من الغزال عينٌ وجيد ؟ فإنْ لم تُردْ هذا ولا ذاك، فما قولك في لحمٍ طريٍّ وسمَكٍ نهريٍّ، وباذنجان مقليٍّ، وراحٍ قطربليٍّ، وتفّاح جنيٍّ، ومضجع وطيٍّ على مكانٍ عليٍّ، حذاءَ نهرٍ جرّارٍ، وحوضٍ ثرثارٍ، وجنةٍ ذات أنهار ؟ قال عيسى بن هشام : أنا عبد الثلاثة. فقال الغلام : وأنا خادمها لو كانت !! فقلتُ : لا حيّاك الله. أحييتَ شهوات قد كان اليأس أماتها، ثم قبضتَ لهاتها ؟!".

أرأيتَ إلى هذا الجمال الآسر، الذي لا يختص به القرآن وحده ؟ لقد ترك لنا الجاحظُ والتوحيدي وبديعُ الزمان، وكثيرٌ غيرهم من أمراء المنثور والمنظوم، كابن المقفع، وأبي نوّاس، وأبي العلاء المعري من القدماء، والمازني، والرافعي، والعقّاد، وطه حسين من المحدثين -لقد ترك لنا هؤلاء وأمثالُهم روائعَ تُضاهي- إن لم تكن تفوقُ أحياناً بعضَ آيات القرآن، وخلّفوا لنا تراثاً ضخماً مليئاً بالحكَمِ البالغات والآيات البيّنات، ولكن أياً منهم لم يدَّعِ أنّه يُكَلَّم من السماء ويحيط بأسرار الآلهة.

فالقرآن كما ذكرتُ سالفاً ليس على مستوى واحد من الجودة. بل فيه آيات تتّسم بالإسفاف والابتذال والركاكة والتشويش والتفكّك

والالتباس والغموض وعدم المسؤوليّة، إلى جانب آيات الروعة التي يسود فيها الجلال والعظمة والبيان والتماسك والوضوح والمسؤوليّة الكاملة. لقد حار المفسرون في تعليل هذه الظاهرة فقاموا بمحاولاتٍ يائسة لتجاهلها وإبعادها عن الأضواء، حتى لا نقع على آية منها عند الكلام على الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع وفنون القول الأخرى التي تزيّن القرآن.

فبمقدار تركيزهم على الروائع في كتب إعجاز القرآن والاستشهاد بها في كلّ باب وكلّ فصل وكلّ صفحة، وأكاد أقول في كلِّ سطر من كتبهم الصفراء بمناسبة وبغير مناسبة، حتّى مجّتْها الأسماع وسئمتْها العقول ـ أقول بنقدار هذا التسليط للضوء على بعض الآيات، نجد تعتيماً على بعض الآيات الأخرى التي فرضوا عليها حصاراً غيرَ مرئيٍّ، بحيث تمرُّ بها الأسماع مروراً سريعاً عابراً لا يتّسع لأي تدبّر أو تفكير.

إنّ جميع قراءاتنا للقرآن هي قراءةُ تَعبُّد تزيد الأعمى عمىً كلّما زادها القلبُ حفظاً واللسانُ صقلاً، لا قراءة تحليل ونقد وفهم وتعمّق.

أجل، لقد حار المفسِّرون في تعليل هذه الآيات وإيجاد المخارج لها، فتجاهلوها في جميع استشهاداتهم وعمدوا إلى "لفلفتها" كلّما صادفوها في كتاباتهم، وإكراهها على الاتساع لمعان لا تتسع لها حفظاً لماء وجهها.

إنّهم فرسان الحلبة حاضرون في كلِّ وقت، لا يضيقون بمطلب، ولا يشقّ عليهم جواب، ولا يخونهم مرام، ولا يؤودهم سقام. إنّهم على الباب يردُّون على كلِّ طارق، يجد عندهم فلاسفةُ النصّ مرتعاً خصباً ومراحاً واسعاً لتأييد مذاهبهم النقديّة. تعرفهم بسيماهم إنّهم أصحاب الثرثرة وحاملو المبخرة. وقد وصل الشطط

ببعضهم إلى حدٍّ إضحاك المجّان بقلب الأعيان، "فاكتشفوا" في الغائم والمرتبك والمتذبذب والمضطرب والقلِق والمنغلِق والمتناقِض من الآيات، نُكتاً بلاغيّة ومقاصد إلهيّة تدقّ عن العقول، وتخفى على الفهوم، وتتحدّى الأذهان، بحيث لا يدركها إلاّ الراسخون في العلم، هذا إنْ أدركوها !!

أعطِني مجنوناً وأنا كفيلٌ أن استخرج لكَ من مكنون كلامه درراً وجواهر ولآلئ من حكمة الأوّلين والآخرين.

إنّهم قادرون على انتزاع المعنى من اللاّمعنى، ولا يجدون عنتاً في أن يجعلوا كلَّ عقيمٍ مُنتِجاً، وكلَّ أبكمٍ ناطِقاً، وكلَّ أعجمٍ فصيحاً، وكلَّ عجوزٍ رجلاً في شرخ الشباب. كلُّ شيء عندهم غُرر وماء، ورونق وكرم إذا ورد من السماء، حتى ولو كان شَوكاً وعلقماً وسمًّا زعافاً وما إلى ذلك من البلاء، فلا تستقيم السماء إلاّ بالعوراء والعرجاء والعجفاء وكلّ ذات آفة ورْهاء بلهاء. طوبى للبله فإنّ لهم ملكوت السماء !

إنّ حسَّ النقد يتبلّد كلّما اشتدّ إيمانُ صاحبه، حتى إنّه لا يرى في القرآن إلاّ ما يريد أن يرى، ويعمى عما لا يريد أن يرى. فإذا كشفت له مدى ما في القرآن من باطل، وكثرة ما فيه من اختلاف، ولمسَهما بيده، أرغى وأزبد وسبَّ ولعن. لقد سدّ أذنيه دونك بقدر انسداد عقله، واتّهمك بأشنع التهم. ويلٌ لك، فقد جئتَه لتَفتِنه عن دينه لولا أن ثبَّتَه الله وأنعم عليه بنعمة الإيمان.

أنظر إليه كيف يسدّ أذنيه ولسان حاله يقول "هذا إفكٌ مُبين" (٢٤/ ١٢). وهذا ما فعله قوم نوح عندما قال مخاطباً ربَّه "وإنّي كلّما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعَهم في آذانِهم، وَاستَغشَوا ثيابَهم، وأصَرُّوا واستكبروا استكباراً" (٧١/ ٧). وهذا ما فعله مشركو مكّة فقال لهم القرآن : "ولو نزّلْنا عليكَ كتاباً في

قِرطاسٍ فلمَسُوهُ بأيديهم لقالَ الذين كفروا: إنْ هذا إلاّ سحرٌ مُبين" (٦ /٧). والويل كلّ الويل لمن ينبس بكلمة نقد واحدة في حقّ الدين، والطامة الكبرى والداهية الدهيا أن يمسَّ هذا النقدُ بآية بل بلفظة من ألفاظ القرآن. فليت شعري، ما الفرق بيننا وبين ما رأينا الآن من قوم نوح ومشركي مكة؟[3].

وأعود فأقول إنّ هؤلاء الذين "يطنطنون" بالقرآن، ويَكيلون المدائح للقرآن، ويتشدّقون بفصاحة القرآن وبلاغة القرآن، ويملأون الدنيا **جعجعةً** بإعجاز القرآن، و**المعجزة الكبرى للقرآن**[4] لا يستشهدون إلاّ ببعض الروائع والغرر التي يزدان بها القرآن والتي هي عنوان سحر القرآن. فقد انصبّ اهتمامُهم على آياتٍ منتقاة لا شك في بلوغها قمة الروعة والجمال.

ولكن أيًّا منهم لم يتعرّض لما رثَّ وغثَّ من القرآن مما سنأتي عليه بعد قليل، ولئن تعرضوا له تعهدوه بالصقل والتهذيب والتجويد لسد ثُلمته وستر عورته حتّى يَخرج من بين أيديهم سبيكةً مصونة أو درّة مكنونة، تليق برب العزة والكرامة، فالق الإصباح إلى يوم القيامة !

***

3 ولعلّكم سمعتم بالأزمة الوزارية في الكويت والمطالبة بإقالة وزير الأوقاف، لماذا ؟ لصدور طبعة جديدة للقرآن فيها بعض الهفوات غير المقصودة. وسيُساق الوزير إلى جهنم وِرْداً، يوم لا يملك الشفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرحمن عهداً. لقد ظهرت في القرآن على عهده -تبَّت يداه- أخطاء مطبعية أُحصيت عداً، أخزاه الله لقد جاء شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطّرن منه، وتنشق الأرض، وتخرّ الجبال هدّاً، أن ترك كتاب الله يدخله التحريف سَرداً، ولم يبذل للحؤول دون ذلك أو تحاشيه جهداً. قاتله الله، لقد حسب الأمر لهواً وهزلاً ودِداً، ولم يره -له الويل- حقاً وفرضاً وجداً، فليرجع إلى الله هو وقبيله فذلك أزكى له وأجدى، فإن لم ينته فسيُمدّ له ولفريقه في العذاب مداً، وإنْ منهم إلاّ آتي الرحمن عبداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً.

4 إسم كتاب محمّد أبي زهرة الذي يشيد به العامّة، بل وكثير من الخاصّة وخاصّة الخاصّة.

ألبلاغةُ هي خلقُ الألفاظ على أقدار المعاني، وتزيينُ المعاني بالألفاظِ المشعّة. وليست البلاغة أن تخاطبَ الناسَ على قدر ما يَفهمون، وإنما البلاغة هي أن ترقَى بهم إلى مقاصِدك بأن تبيّنَها لهم بالصِّيَغ التي تجعلهم يفهمون كلَّ ما تريد أن تُبلِّغَهم إيّاه. فمخاطبة الناس على مقدار عقولهم وأفهامهم فيها تضحية بالمعنى وسطحية وتنازل، أي إيثار للفهم التقريبي على حساب المعنى الدقيق الكامل، وابتعاد بالكلام عن مقاصده. فعلى المبدع أن يرقى بأدائه الفنّي، وألاّ يتعمّدَ الهبوطَ نحو السهل.

ولكن، ما يلاحظ أنّ كثيراً من الآيات التي نواجهها في القرآن مبهمة تقوم على مفاهيم تقريبية غامضة لا تفي بجلاء محتوى المعاني، لافتقار الألفاظ فيها إلى الدقة والضبط. هذا إذا لم تكن أقربَ إلى الألغاز والأحاجي.

فاللغة الدقيقة هي قالب للفكر الدقيق، واللغة المبهمة هي للعقل ارتباك وللتفكير تلعثم. لذلك إذا أردنا أن يكون الكلام بليغاً فلا بدّ أن يستوفي شرطَ الوضوح والشفافية والقدرة على الوصول إلى السامع بأحلى لسان وأجلى بيان. هذا فضلاً من سلامة المعنى، وعدم الوقوع في الخطأ، والبعد عن التناقض. فلا يليق بصاحب الكلام البليغ أن تختلّ معانيه أو يتناقض، أو أن يأتي بسقط اللّفظ والمعنى.

ومما يساعد على الوضوح : البساطةُ، والإيجازُ، والصحّةُ، واستخدامُ الألفاظ الحسّيّة دون التجريديّة، والجُمَلُ القصيرة دون الطويلة، وتفضيلُ المأنوس من الألفاظ على الوحشيّ، والابتعادُ عن الحشو والتقعّر والافتعال، وعدمُ استعمال ما له معنيان أو أكثر من الألفاظ، ولا سيّما الألفاظ ذات المعاني المتضادة.

كما يجب في الكلام البليغ الواضح ارتباطُ أجزائه بعضها

ببعض، وتساوقها وتسلسلها بعضها من بعض، وترتُّب بعضها على بعض. فلا ننتقل من جملة إلى أخرى إلاّ بعد فحصها واستكمال عناصرها، بمعنى أنّ كلَّ جملة تكون بمثابة بذرة للجملة التالية، وأن تبدو الجملةُ اللاّحقة كأنّها نهاية أو خاتمة للجملة السابقة. وهكذا يأخذ بعضُها بأعناق بعض، في وَحدة فنّيّة متماسكة متكاملة كالبنيان المرصوص.

والخلاصة : ألبلاغة من البلوغ، والبلوغ هو الوصول. وفي موضوعنا هنا هو وصول المعنى إلى المقصود به. مدارُ الأمر كلّه هنا هو بلوغ المعنى والوصول إليه. وعلى قدر وضوح الدلالة يكون ظهور المعنى. والعكس صحيح أيضاً. فكلّما خفيت واعتاصت فَقَدَ الكلامُ وظيفتَه وأصبح جعجعة لا خير فيها ولا طائل وراءها.

***

والآن، بعد هذه الجولة القصيرة في البلاغة وشروطها والكلام البليغ والفرق بينه وبين الكلام غير البليغ، يحقّ لأيٍّ منّا أن يتساءل : أين موقع القرآن من كلّ هذا ؟ وما درجة البلاغة فيه ؟ وهل هو على مستوى واحد من البلاغة، أم هناك تفاوت بين آياته ؟ وما درجة هذا التفاوت ؟ هذا ما سنناقشه في الفقرة التالية.

رابعاً
أين هي بلاغة القرآن؟!

هناك خطوط حمراء يلتزم بها جميع الدارسين المسلمين للقرآن ولا يسمح أي منهم لنفسه بتجاوزها. إنَّ أحداً من هؤلاء الدارسين لم يبدأ من الصفر، بل انطلق انطلاقاً واثقاً صارماً من قوله تعالى "وإنَّه لَكتابٌ عزيزٌ، لا يَأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بينِ يدَيه ولا مِنْ خلفِه، تنـزيلٌ مِن حكيمٍ حميد" (٤١/ ٤١-٤٢)؛ ومن قوله : "ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختِلافاً كَثيراً" (٤/ ٨٢).

فالقرآن لا يتسرّب إليه الباطل بوجهٍ من الوجوه، كما أنّه منـزّه عن الاختلاف. هاتان مسلّمتان أساسيّتان لا تقبلان النقاش. ويمكن أن نضيف إليهما آيةً ثالثة تؤكّد عصمة القرآن وحصانته : "قلْ لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ، لا يَأتونَ بمثلِه، ولو كَان بعضُهم لبعضٍ ظهِيرا" (١٧/ ٨٨).

فليت شعري، كيف يمكن للمرء دراسة القرآن دراسةً موضوعيّة حرّة ويداه مغلولتان بهذه الآيات الثلاث ؟ إنزعوا هذا الغلّ وسترون في الحال أنَّ الباطل قد وجد طريقه إلى القرآن كأيِّ إنجاز بشري، وأنَّه يعجُّ بالخلاف وبكلِّ أنواع الاختلاف، وأنّه يمكن الإتيانُ بمثله بل بما هو أحسن منه. إنزعوا عن أبصاركم الغشاوة وانطلقوا إلى الفضاء الرحب. ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود ؟ إن أحداً لا يحب اللعب بالنار، بل لا يخطر ذلك على بال، ولئن خطر له فلن يُطيقَه، ولئن أطاقه فلن يُقْدِمَ عليه... بل حتّى أولئك الذين تساورهم بعضُ الشكوك في صحّة

القرآن لا يجرؤون على إعلان رأيهم الحقيقي، وإذا فعلوا ذلك فإنما يفعلونه على استحياء ومِن وراءِ حِجاب، بل ألف حجاب وحجاب.

ولذلك فعلى مَن يريد معرفة آرائهم في هذا الباب أن يكون على درجة من الموهبة والذكاء بحيث يكون قادراً على تحرير المكبوت في كتاباتهم وكشف المقموع بقراءة ما بين السطور. إنهم -كما أسلفت- لا يريدون اللعب بالنار، إيثاراً للعافية وحباً للسلامة. وأمّا أنا فإني مولع باللّعب بالنار، وسيكثر من بعدي اللاّعبون. فالنار هي التي تحرق الشوائب العالقة بالذهب، وتأتي على جميع ما فيه من غثٍّ وغُثاء. فإذا أردت أن تكون رجلاً فعش في خطر !!

***

إن أول ما يصدم النظر في القرآن هو تفكّكه. وهذا التفكك لا يحسُّه المؤمن لطول إلْفته للنصّ أوّلاً، ولأنَّ الإيمان درعٌ واقية يحفظ صاحبه من التطلع إلى ما في هذا النصّ من عيوب. وأمّا غير المؤمن، ولا سيّما إذا كان مستشرقاً يدرس القرآن لأوّل مرة فإنّه يُصعق عندما يرى هذا الكوكتيل العجيب في السورة الواحدة بل في الصفحة الواحدة، من كلام ربِّ العالمين. فهو قد يأخذ عليه كل شيء إلا أن يكون كوكتيلاً كالقرآن.

١. ألتسلسل نادر في القرآن، فلا وجود له إلاّ في **سورة يوسف**، وبعض القصص القصيرة. ثمّ يعود إلى سيرته الأولى من تقطّع وانقطاع. وحتّى سورة يوسف التي بلغت إحدى عشرة ومئة آية، فإنَّ الآيات التسع الأخيرة منها منقطعة الصلة عمّا قبلها، فضلاً عن أنّ هذه الآيات التسع هي فيما بينها كوكتيلٌ عجيب، لا رابطة بين العناصر التي يتكوّن منها، وإنْ كان المفسّرون

الثرثارون لا يجدون أيَّ صعوبة في جمع هذا الكمّ المتنافِر على صعيد واحد، وخلْقِ شتّى الروابط والوشائج بين عناصره. ولا غرو، فكلُّ واحد منهم هو -كالله- على كلِّ شيء قدير ! هذا إذا لفتَ نظرَهم وجودُ أيِّ تفكّك أو تشويش في القرآن أو -على الأقل- اعترفوا به !!

٢. أنظروا إلى هذه الآيات-القفزات، ودلّوني على ما يربط بينها :

" ولَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدمَ، وَحَمَلْناهُمْ في البَرِّ والبَحْرِ، وَرَزَقْناهمْ مِنَ الطَّيِّباتِ، وَفَضَّلْناهُمْ على كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً. يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بإمَامِهِمْ. فمَنْ أُوتِيَ كتابَهُ بيَمينِهِ فأولئكَ يَقرأونَ كِتابَهمْ، ولا يُظْلَمونَ فَتيلاً. ومَن كانَ في هَذهِ أعْمَى فَهُوَ في الآخِرةِ أعْمى وأَضَلَّ سَبيلاً. وإنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الّذي أوْحَينا إليكَ لِتَفْتَريَ علينا غَيرَهُ، وإذاً لاتَّخَذُوكَ خَليلاً. ولولا أنْ ثَبَّتْناكَ، لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهِمْ شَيئاً قليلاً. إذاً لأَذَقْناكَ ضِعْفَ الحياةِ وضِعْفَ المَماتِ؛ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ علينا نَصيراً. وإنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرضِ لِيُخْرِجُوكَ منها؛ وإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاّ قليلاً. سُنَّةَ مَنْ قَد أرْسَلْنا قَبْلَكَ منْ رُسُلِنا؛ ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحويلاً.

أَقِمِ الصّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللّيلِ وَقُرآنَ الفَجْرِ. إنّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشهوداً. ومنَ اللّيلِ فَتَهَجَّدْ بهِ نافِلَةً لكَ. عسَى أنْ يَبْعَثَكَ ربُّكَ مَقاماً مَحموداً. وقُلْ: رَبِّ أَدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ، وأَخْرِجني مُخْرَجَ صِدْقٍ، واجْعَلْ لي منْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصيراً. وقلْ: جاءَ الحقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ.إنّ الباطِلَ كان زَهُوقاً. وَنُنَزِّلُ منَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمَةٌ للمؤمِنينَ. ولا يَزيدُ الظّالِمينَ إلاّ خَساراً. وإذا أنْعَمْنا على الإنسانِ أعْرَضَ وَنأى بجانِبِهِ، وإذا مسَّهُ الشَّرُّ كان يَؤوساً.

قلْ: كلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أعْلَمُ بمَن هوَ أهْدَى سبيلاً. ويَسْأَلُونَكَ عنِ الرُّوحِ. قُلِ الرّوحُ منْ أمْرِ رَبّي. وما أوتيتُمْ منَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً. ولئنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بالّذي أَوْحَينا إليكَ، ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ بهِ علينا وكيلاً. إلاّ رَحْمَةً منْ رَبِّكَ. إنَّ فضلَهُ كانَ عليكَ كبيراً. قُلْ: لئنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يأْتُوا بمثْلِ هذا القُرآنِ، لا يأتُونَ بمِثْلِهِ، ولو كانَ بعضُهمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً" (١٧ /٧٠-٨٨).

إنّ سورة الإسراء كلَّها من هذا القبيل. قفزاتٌ ينتقل بها القرآن من وادٍ إلى آخر، من غير أن يمرَّ بالطرق والمفارق الممتدّة بينهما ويقطع المسافات الشاسعة التي تؤدّي إليهما. هل هذا من البلاغة في شيء يا دهاقنة البلاغة ؟ أجيبوني يا أبطال "اللفلفة" وإيديولوجيا التبرير، أنا لا أرى في كلِّ هذا إلاّ امتهاناً للعقل واستدراجاً له إلى أوخم العواقب وبئس المصير ! ما الفرق بينكم وبين صُحُفيي العالم الثالث الذين باعوا أنفسَهم للسلطان ورفعوا عقيرته في كلِّ مكان، لا رادع من ضمير ولا وازع من خُلق؟

ألتفكّك والإختلال في آيات القرآن هما القانون، وأمّا التماسك والتواصل والاتساق فهي الاستثناء.

٣. ما قولكم دام فضلكم في الآية التالية ؟ إفتوني في أمري يا أرباب الفصاحة والبيان ويا سدنة المنطق والبرهان. قال تعالى في حكايته قصة يونس عندما التقطه الحوت : "فلَولا أنَّه كَانَ مِنَ المسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ في بَطنِه إلى يومِ يُبعَثون. فَنَبَذنَاهُ بالعَراءِ وهُوَ سَقِيمٌ، وأنْبَتْنا علَيه شجرةً مِن يَقطِينٍ. وَأرْسَلْنَاه إلى مَائَةِ ألفٍ أو يَزِيدون، فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهم إلى حينٍ. فَاستَفْتِهِم : أَلِرَبِّكَ البَنَاتُ وَلَهُمُ البَنُونَ ؟ أم خَلَقْنا الملائِكةَ إناثاً وَهُم شَاهدون؟" (٣٧ / ١٤٢-١٥٠).

فما شأن الملائكة هنا وأنوثتها بقصّة يونس ؟ ما بالكم لا تضيفون إلى أبواب البلاغة باباً تسمّونه باب النشاز أو باب النتوء، وما إلى ذلك من العناوين التي تدلّ على انقلاب المعايير في القرآن ؟

٤. وقد لا تظهر "الكوكتيلية" هنا كثيراً إلاّ بشيء من الترقيع يمكن به الربط بين هذه الآيات المتنافرة على طريقة القوم، ولكن أي ترقيع يربط بين أصناف هذا الكوكتيل الذي لا يُخطئه البصر ؟ آية من الشرق، وآية من الغرب، ومن كل وادٍ عصا، كما يقول المثل :

"يومَ لا يَنفَعُ الظالمينَ مَعذَرتُهم وَلهُمُ اللَّعنَةُ، ولهمْ سُوءُ الدارِ. ولَقد آتَينا موسى الهدَى، وأَورَثْنا بني إسْرَائيل الكتابَ، هدًى وذكرَى لأُولِي الألبابِ. فاصْبِرْ إنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ واستغفِرْ لذنبِكَ، وسبِّحْ بحمدِ ربّك بالعشيِّ والإبكار... لَخَلْقُ السمَوَاتِ والأرضِ أكبرُ مِن خلقِ الناس، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون" (٤٠/ ٥٢-٥٧).

إنّ التفكك في آيات القرآن يبدو أنّه من لوازم التنـزيل الحكيم! قلّب صفحات القرآن كما تريد فلن تجد صفحة سليمة من التفكّك، وهي تقفز إلى بصرك قبل أن تتجرّد للبحث عنها واقتناصها. فهل في ذلك حكمة بالغة خفيت على عقولنا الضعيفة فلا يعلمها إلاّ الراسِخون في العلم، وقليلون ما هم !

٥. إنّ التسلسل لا يكاد يراعَى إلاّ في القصص وبعض آيات الأحكام، وما عدا ذلك رأيت الآيات تتفرق بها أيدي سبأ : "ألمالُ والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقياتُ الصالحاتُ خير عند ربّك ثواباً وخير أملاً. ويوم تسيّر الجبال وترى الأرض بارزة، فحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا... وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنِّ ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه

وذريَّتَه أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ ؟ بئسَ للظالمين بدلا ! ما أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم، وما كنتُ متَّخذً المضلِّين عضُدا. ويوم نقول نادوا شركاءكم الذين زعمتم، فدَعَوهم فلم يستجيبوا لهم، وجعلنا بينهم موبِقاً" (١٨/ ٤٦-٥١).

٦. والغريب أنّ هذا التفكّك لا ينحصر في اختلال سياق الآيات في الصفحة الواحدة بحيث يجعل من هذه الصفحة حشداً عجيباً من الآيات المتنافرة، بل إنّ الاختلال يشقّ الآيةَ الواحدة ويباعد بين طرفَيها، فإذا آخرها غير منسجم مع أوّلها :

"إليهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعةِ، ومَا تَخْرُجُ مِن ثمراتٍ مِن أكمامِها، ومَا تَحمِلُ مِن أُنثَى ولا تَضَعُ إلاّ بِعلمِهِ. ويومَ يُناديهِمْ : أينَ شُرَكائي؟ قَالوا:آذَنَّاكَ، مَا مِنّا مِن شهيد" (٤١ /٤٧).

فما علاقة آخرِ هذه الآية بأوّلها ؟ ما بال العازفين على أوتار فصاحة القرآن وإعجاز القرآن يتجاهلون هذه الآية وأمثالَها، ويكتفون بالروائع التي لا يملك أحد -مهما كان موقفه من القرآن- إلاّ أن ينحني لها طوعاً أو كَرهاً ؟ وأمّا الآيات الأخرى، الآيات القلقة المهتزّة المضطربة التي لا تصمد للنقد، فيمرون عليها وهم غافلون ومتغافلون، وإذا عرضوا لها رَتقوها ونسجوا خيوط العنكبوت لتغطيتِها وسترِ عِوارها. وجاز ذلك على العامّة، بل وعلى الخاصة. ولكن هيهات أن تجوز على العين الناقدة لقلّةٍ نادرة مختارة؛ بل حتّى هذه القلّة قد تعمى عن الحقّ وتتعامى طلباً للسلامة.

فالمؤمن -حتى ولو كان من الخاصة وخاصة الخاصة- يرى بحدسه لا بحسه، وبقلبه لا بعقله. ولكن العين الفاحصة المجردة -وقليل ما هي!- هي وحدها التي تستطيع الوغول في الأشياء وسبر حقائق الأشياء، حتّى لتنكشف لها في لحظات الإشراق أو تكاد

أعيان الأشياء. إنّ خيوط العنكبوت هي خيوط العنكبوت، لا يستقيم بها بناء ولا تقمع المكبوت. ففي القرآن آيات -وما أكثرها!- قوامها كبيتِ العنكبوت، لا شيء وراءها ولا تصمد للنقد لكن جلّلها السكوت، فمَن لي بكشف المسكوت عنه فيها، إنّ أوهنَ البيوتِ لَبيت العنكبوت !

٧. والآن دونكم هذه الآية فأَعينوني على فهمها أعانكم الله : "وآتُوا اليتامى أموالَهم ولا تتبدَّلوا الخبيثَ بالطَّيِّب، ولا تأكلوا أموالَهم إلى أموالِكم. إنَّه كان حُوباً كبيراً. وإنْ خِفتم ألاّ تُقسِطُوا في اليتامى فانْكِحُوا ما طابَ لكم مِن النِّساءِ مَثنَى وثُلاثَ ورُباع؛ فإنْ خِفتُم ألاّ تَعدلوا فواحدةً، أو ما مَلَكَتْ أَيمَانُكم. ذلكَ أدْنَى ألاّ تَعولُوا" (٤ /٢-٣).

هذه الآية الأخيرة من الأعاجيب. فقد اجتمع فيها أمران لا يمكن الجمع بينهما إلاّ إذا أمكن الجمع بين الزيت والماء. فإنّي، رغم جميع ما قرأت في كتب التفسير وما فيها من مقبول ومرذول وثرثرة فارغة واغتصاب للمعاني، لا أزال حتّى الآن عاجزاً عن فهم العلاقة بين عدم القسط في اليتامى وبين النكاح.

وأرجح الظن أنَّ بين الشرط "وإن خفتم" وجواب الشرط "فانكحوا" في الآية الثانية آيةٌ ثالثة ناقصة أو منسوخة سقطتْ سهواً أو عمداً، ما لم تكن هناك "حكمة بالغة" أو "نكتة بلاغية" عوّدنا عليها المفسِّرون الثرثارون !! وإلاّ فإنّ جميع ما في جعبتهم من عمليّاتِ إنقاذٍ للآية لا يُغني شيئاً.

فالآية على هذا الوجه وبهذه الصفة لا معنى لها ! لقد رفض الجمود أن يستطلع طلْعَ هذه الآية، وأبى إلاّ أن يُبقي عليها -كما نزلتْ- خشيةَ التحريف أو القول في كلام الله ما ليس فيه.

٨. وهناك خطأ منهجي كبير كنتُ أربأ بالقرآن أن يقع فيه.

فإنّه بعد أن وصف القرآنُ نعيمَ الجنة، وما ينتظر المؤمنين فيها ممّا لا عين رأت ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر -وهو نتيجة لمقدّمة نشأة العالم نشأة أخرى- عرَّج على المقدّمة، بدلاً من أن يبدأ بالمقدمة وينتهي بنتيجتها أو -بالأحرى- بإحدى نتائجها ! وهذا قَلْبٌ للأشياء ما كان ينبغي للقرآن أن ينـزلق فيه :

"إنّ الذين سبقتْ لهم منّا الحسنى، أولئك عنها (جهنم) مُبعَدُون. لا يَسمَعونَ حسيسَها، وهم في ما اشتهتْ أنفسُهم خالِدون. لا يَحْزُنُهُمُ الفزَعُ الأكبرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكةُ : هذا يومُكُمُ الذي كُنتُم تُوعَدون. يومَ نَطوي السمَاء كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُب، كما بدأنَاهُ أوَّلَ خلْقٍ نُعيدُه، وعداً علينا، إنَّا كنَّا فاعلين" (٢١/ ١٠١-١٠٤).

أفما كان من الواجب أن يبدأ بطيِّ السماء ثمّ يذكر ما يترتب على الخلق من جزاء وعقاب ؟ هل القلب يا أمراء البيان باب من أبواب البلاغة أو البيان ؟ هل قطْع التسلسل بآيةٍ معترضة لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها، ثمّ استئناف الكلام بعد ذلك، هل هذا القطع نتوءٌ وشذوذٌ ونشازٌ، أم هو من دلائل الإعجاز ؟ لا تقولوا على الإعجاز إلاّ الحقّ، إنما الإعجاز إحكام الكلام وتواصله وتماسكه، وعكوفه بعضه على بعض، واعتماد بعضه على بعض، ليخلص إلى ما يروم صاحبه ويبغي. لا انقطاع ولا نتوء ولا شذوذ في الكلام المعجز البليغ.

٩. وبعد أن تحدّث القرآن عن أهل الكهف وكيف بعثهم الله من مرقدهم، عرّج على عددهم، واختلاف الناس فيه. وبدلاً من أن يذكر لنا هذا العدد-اللغز، هذه التحفة النادرة، هذا السر المكنون، ضنّ علينا به، ليجعل ذلك حسرة في قلوبنا :

"سيقولون ثلاثةٌ رابعُهُم كلبُهم، ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم، رجماً بالغيب، ويقولون سبعةٌ ثامنُهم كلبُهم. قلْ: ربّي أعلم

بعدَّتِهم ما يَعلَمُهُم إلاّ قليلٌ، فلا تُمَارِ فيهم إلاَّ مِرَاءً ظاهراً، ولا تستفْتِ فيهم منهم أحداً" (١٨/ ٢٢).

وحبّذا لو استكمل الحلقة الأخيرة من القصّة، ومنّ علينا بمعرفة مدّة إقامتهم في الكهف هم وكلبُهم الأثير، لكنّه سبحانَه آثر -لحكمة لا يعلمها إلاّ هو أيضاً- أن يقطع لهفتنا على هذه المعرفة بنتوءٍ شاذٍّ آخَرَ لا أرى، أنا العبد الفقير، وجهاً له وإنْ كان سادتُنا المفسِّرون يرون له ألف وجه ووجه.

ثمّ قال بعد الآية السابقة مباشرة : "ولا تقولَنَّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً ! إلاّ أنْ يشاء الله. واذكرْ ربَّك إذا نسيتَ، وقل عسى أن يَهديَني ربِّي لأَقْرَبَ مِن هذا رَشَداً" (١٨/ ٢٣-٢٤).

ودونكم الآن التحفة المرضية والمفاجأة السارّة بعد هذا الانتظار الطويل: "ولبثُوا في كهفهم ثلاثَ مِئَةٍ سِنينَ وازدادوا تِسعاً" (١٨ /٢٥). وليته سبحانه استقرّ على هذا العدد، ولكنّه أبى إلاّ أن يظلّ مطوياً في غيب السموات والأرض "قلِ اللهُ أعلَمُ بما لبثوا. له غيب السموات والأرض، أَبْصِرْ به وأَسْمِعْ ما لهم من دونه مِن وليٍّ ولا يُشرِكُ في حُكمِه أحداً" (١٨ /٢٦).

ومَن يدري ؟ فلعلّه سبحانه لا يعلم عددهم هم وكلبهم الميمون، ولا كم لبثوا في الكهف، وعوَّضَنا من ذلك هذه الفتوحات الكلاميّة الغنيّة، والتموّجات الاسلوبية العريضة، والرفرفة اللفظية الحرّة الطليقة ! وليتَه لم يأت على ذكر هذه القصّة أصلاً وفرعاً. فهي قصة مبتورة لا أدري رأي أصحاب الفن القصصي فيها.

١٠. ومن أغرب آيات القرآن وأكثرها تشويشاً وارتباكاً وبُعداً عن السلاسة والسلامة والانسجام، وذلك لكثرة ما فيها من جمل إعتراضية لا آخر لها، حتى اشتبكتْ فيها الأطراف وبقايا الآيات بحيث يجد المرء صعوبةً في العثور على بقيّة الآية الأولى

-هذا إذا كان لها بقيّة- وتمييزها من بقايا الآيات الأخرى مما أرهق علماء التفسير المساكين، واضطرهم إلى تقدير بقيّة لها، حفظاً لماء الوجه على الأقلّ ! أقول من أغرب هذه الآيات وبعدها عن الوحدة والتماسك، الآية-الكوكتيل الطويلة الثالثة التي تتحدّث عن اليهود :

"فَبِما نَقْضِهِم ميثَاقَهم، وكُفرِهم بآياتِ الله، وقتْلِهِمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ، وقولِهم قلوبُنا غُلْفٌ، بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرِهم فلا يُؤمِنون إلاّ قليلاً. وبكفرِهم وقولِهم على مريمَ بُهتاناً عظيماً، وقولِهم إنّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابنَ مريمَ رسولَ الله. وما قتلُوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم، وإنَّ الذين اختلَفوا فيه لَفي شكٍّ منه، ما لهم به من علمٍ إلاّ اتِّباعَ الظنِّ، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه اللهُ إليه، وكان اللّهُ عزيزاً حكيماً. وإنْ مِن أهلِ الكتاب إلاّ لَيُؤمِنَنَّ به قبل موتِه، ويومَ القيامة يكونُ عليهم شهيداً. فبِظُلْمٍ مِن الذين هادوا حَرَّمْنا عليهم طيِّباتٍ أُحِلَّتْ لهم، وبصدِّهِم عن سبيل الله كثيراً، وأَخْذِهِمُ الرِّبَا وقد نُهُوا عنه، وأكلِهم أموالَ الناس بالباطل، وَأَعتَدْنا للكافرين منهم عَذاباً أليماً" (٤/ ١٥٤-١٦١).

هل هذا الخليط المليط من الإعجاز ؟ ما بالنا لا نجد أحداً يستشهد بهذه الآيات في حديثه عن جمال القرآن وسبك القرآن وموسيقى آيات القرآن، بل يكتفي بالروائع، أم لعل اختلاط الحابل بالنابل في القرآن من إعجاز القرآن ؟!!

١١. وأخيراً، دونكم هذه الآيات-الكوكتيل بلا تعليق لتتولوا أنتم التعليق: "وإذ قُلنا لكَ إنّ ربَّكَ أحاطَ بالناسِ، وما جعلْنا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إلاّ فِتنةً للناسِ، والشجرة الملعونةَ في القرآن، وَنُخَوِّفُهُمْ، فما يَزيدُهُم إلاّ طُغياناً كبيراً. وإذ قُلنا للملائكةِ اسجُدُوا لآدمَ فَسَجدوا إلاّ إبليسَ، قال أأسجُدُ لمَنْ خلَقتَ طيناً؟" (١٧/ ٦٠-٦١).

خامساً

خلل في توزيع الموضوعات

هذا وقد نتج عن ظاهرة التفكك البارزة في القرآن فوضى عارمة في توزيع الآيات، وعجز عن تتبع الموضوعات المراد فحصها... فالقرآن ليس كتاباً أكاديمياً ينقسم إلى فصول يتناول كلُّ واحد منها مسألة معيّنة، كما أن أسماء السور لا تدلّ على شيءٍ ذي بال. فسورة البقرة مثلاً لا تتحدّث عن البقرة، وإنما سمّيت كذلك لورود قصة قصيرة عنها وكان يمكن أن تسمى أي اسم آخر. وكذلك سورة النحل والنمل...

ولما لم يكن القرآن منقسماً إلى موضوعات وأبواب وفصول. فإنّك تجد الموضوع الواحد مبعثراً في سور متعددة وآيات متفرقة مقحمة هنا وهناك. ولا أدري سبباً لذلك إلاّ أن يكون هذا من مقتضيات البلاغة والإعجاز. ومَن يدري، فلعل وراء هذه ا الخربطة العجيبة حكمة عظيمة لا تدركها الأفهام !!!

١. دونكم **سورة النساء**، مثلاً، رقمُها ٤، عدد آياتها ١٧٦. لم ينلِ النساء منها سوى ٣٢ آية، وما تبقى من السورة مجموعات متفرّقة مفكّكة تدور كل مجموعة منها على مسألة دينية معينة كالصلاة، والزكاة، وبرّ الوالدين، وعلاقات القربى، والميراث، والتوبة، والرضى بقضاء الله، واليهود، والنصارى، وعبودية المسيح لله، ونبذ الشرك. وكلام طويل على القتال والجهاد، والهجرة في سبيل الله كان يجب إلحاقه في نظري بسورة التوبة أو

سورة الأحزاب، إذ لا موقع له في هذه السورة، بل هو كالنشاز فيها.

والغريب أن القرآن بعد أن تحدث عن النساء في الخمسة وعشرين آية الأولى، قفز فجأة إلى الحديث عن التوبة وعلاقات القربى من الآية ٢٦ إلى ٣٣، ثم عاد إلى الكلام على النساء من الآية ٣٤ إلى ٣

ثم تحدث في موضوعات أخرى كثيرة لا يجمعها عنوان واحد، ثمّ توقّف عند الآية ١٢٦ ليتابع الحديث عن النساء وذلك من الآية ١٢٧ حتّى ١٣٠.

ثمّ انتقل إلى موضوعات ومسائل أخرى حتى الآية قبل الأخيرة من السورة، أي حتّى الآية ١٧٥. ثم تذكر أن في القوس منـزعاً أخيراً فادّخره للكلام على موضوع آخر لا شأن له بالنساء بل هو شركة بين النساء والرجال وهو الميراث الذي لم يستكملْه في الآيات السابقة وأعني به الكلالة، التي ترك الحديث عنها للآية الأخيرة من السورة ورقمها ١٧٦.

٢. وهناك سُوَر أخرى كثيرة في القرآن تتحدّث عن النساء كـ**سورة الأحزاب** مثلاً، رقمها ٣٣، وعدد آياتها ٧٣. فهذه السورة تبدأ بتوطئة من الآية ١-٣ ثم من الآية ٤-٦ كلام في الزواج والتبنّي. ثمّ تأتي آية سابعة مقحمة لا صلة لها بما قبلها وما بعدها. ومن الآية ٨ إلى ٢٧ حديث عن القتال والجهاد. ثمّ عودة إلى الحديث عن النساء والزواج والتبنّي من الآية ٢٨ حتّى ٣٨. ثم تقفز آية مقحمة هي الآية ٣٩. ومن الآية ٤٠ حتّى ٤٨ كلام جميل على محمّد هو في نظري من الروائع القليلة التي نجدها في القرآن. [والرأي عندي أنّ هذه الآية كان يجب إلحاقها بسورة محمّد، وهي السورة ٧٤ من سور القرآن. لكنّ "حكمة" الله اقتضت أن يكون

موقعُها هنا]. ومن الآية ٤٩ إلى ٥٩ عودة إلى الحديث عن النساء والزواج والتبنّي، وعن أزواج النبي مع بعض الإقحامات التي عوّدنا عليها القرآن. ومن الآية ٦٠ حتى آخر السورة "كوكتيلات" مختلفة لا تخلو منها صفحة واحدة من صفحات القرآن !!

وبمناسبة ورود كلمة (محمّد) في هذه السورة في آية قلت إنها من الروائع، فإن ورود هذه الآية في هذا الموضع قد شوّه روعتها وذهب بالكثير من جمالها. ولعلّ هذا من البلاغة ومن دلائل الإعجاز ! وهذا يكاد ينطبق على عدد كبير آخر من روائع القرآن. فكم من آية رائعة خبا ضوؤها لسوء اختيار مكانها، لقد ضاعت في ركامٍ كبيرٍ من المواد المتنافرة لا تعرف لها لوناً ولا حجماً ولا شكلاً ولا غاية، كالحسناء في منبت السوء.

وهكذا نرى أن ترتيب آيات القرآن ترتيبٌ بدائي جداً. وقد نجد تعليلاً لهذه الظاهرة الغريبة في الناسخ والمنسوخ من القرآن. قال تعالى : "ما ننسخْ مِن آيةٍ أو نُنسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها" (٢ /١٠٦). فقد ذهب من القرآن قرآن كثير[1]. وقد أثنى السيوطي على النسخ فقال إنّه مما خصّ الله به هذه الأمّة لِحكمٍ منها التيسير.

وينقل السيوطي أمثلة كثيرة على ما أسقطه عثمان عند جمْعه للقرآن على أساس أنّه منسوخ، من ذلك حديث عن عائشة قالت : "كانت سورة الأحزاب تُقرَأ في زمن النبي مئتَي آية"[2]، بينما هي الآن 37 آية فقط. كما ذكر السيوطي أيضاً أنّ سورةً بكاملها نزلت ثمّ رُفعت[3].

1 جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ٢/ ٢٥.

2 ألمرجع السابق نفسه.

3 ألمرجع السابق نفسه.

هذا النسخ شوّه القرآن وتركَه مِزقاً ليس من الممكن رتقها والتأليف بينها. وهذه المِزق هي القرآن الذي بين أيدينا الآن. فالتشويش الذي نراه في القرآن، وما فيه من تفكّك فاضحٍ ربما كان نتيجةً حتميّةً لتعدّد السور في السورة الواحدة، أو بقايا سوَرٍ سقطتْ وبقيت منها هذه المِزق. أو لعلّها "مسودّات" لآياتٍ كان يجب تنقيحُها وإعادةُ النظر فيها، ولكن موت النبي المفاجئ متأثراً بالسمِّ الذي دسّتْه المرأةُ اليهوديّة في طعامه لم يمكِّنْه من إجراء التنقيح المطلوب.

والرأي عندي، أنّ هذا التشويش في القرآن يجب مواجهته بخطّة جريئة صارمة تعيد ترتيب الآيات المبعثرة التي لا رباطَ بينها، والمتناثرة هنا وهناك في مئات الصفحات التي يضمّها المصحف بين دفتيه. يجب المبادرة إلى لمِّ شعث هذه الآيات المترامية الأطراف وجمْع شملها في نسق عقلاني حديث، من الترتيب والتنظيم والتبويب، يتجاوب مع مطالب العصر ويشيع الوحدة بين هذا الكمِّ الهائل من الشعث المتنافر، ويزيل الجفاء بين أجزائه التي لا يُعرف لها أوّلٌ من آخِر، ولا رأسٌ من قَدَم.

إنّ هذا الوضع يسيء إلى القرآن وإلى الذين يؤمنون بالقرآن إساءة كبيرة، وبخاصّة إلى الجيل الطالع الذي لا يقبل إلاّ أن يرى القرآن بحلّة قشيبة وأن يتعامل معه بعقلانيّة وانفتاح.

فطوال أربعة عشر قرناً لم يرتفع صوت واحد لتدارك هذا الخلل، كما لم يرتفع في الهند صوتٌ واحد يحتجّ على الاغتسال في النهر المقدس في المناسبات الدينية أو التماساً للشفاء، وهو نهرٌ قذرٌ يزيد المرضى مرضاً. كذلك لم يرتفع صوت واحد في الهند يحتجّ على إطلاق العنان للبقر تصول وتجول على هواها، وتتهادى في الشوارع والساحات العامّة، وتجوس بين البيوت والأحياء

والحوانيت من غير أن يمسَّها أحدٌ بسوء، في بلدٍ جائعٍ يرى ثروته الحيوانية تُهدر أمامه فلا يُحرِّك ساكناً. هذا رغم أنَّ تمثيلَنا بالهنود غيرُ دقيق.

هل هذا التشويش في القرآن من لدن حكيم عليم؟ يا قوم أعملوا عقولكم ولا تتخلّفوا عن الركب، هل هذا من دلائل الإعجاز؟ أليس منكم رجل رشيد ؟

فما أحوجنا إلى قرآنٍ جديد ينسف القرآنَ القديم ويقتلعه من الجذور ! أجل إنّنا بحاجة إلى قرآنٍ جديد يساير العصر وحركة التاريخ والتطور بعد أن أعلن نيتشه موتَ الإله القديم واندحار مُلكه وملكوته. بل دع عنك القرآن القديم، فلا خير في ترقيعِ القديم إذا أمكن إيجادُ الجديد.

لقد كان القرآن اختراقاً فأصبح احتراقاً. لقد كان ثورةَ الثورات في عصرٍ انعدمت فيه الثورات. لقد كان القرآن في عصر القرآن من أهم عوامل التقدم، وأمّا اليوم فهو معرقل لكلِّ تقدم. ولا أدلُّ على ذلك من تلك القفزة النوعية المذهلة الرائعة التي نقلت أجدادَنا العرب من هامش التاريخ إلى سدّة التاريخ، وجعلتْ منهم صنّاعاً للتاريخ وسادةً من سادات التاريخ. فلولا القرآن لظلّوا يتسكّعون في وضعهم الآسن إلى يوم يُبعثون. فكأنما القرآن جاءهم على موعد مع الأحداث فقذف بهم في خضم الأحداث. واخترقَ بهم الآفاق.

نعم، لقد كان القرآن ثورةً، ولكنّه -ككلِّ ثورة- ثورة إلى أجَل، ثمّ يأخذ طريقَه إلى المتحف. لقد أصبحت الثورة -ككلِّ ثورة أيضاً- حركة مضادة للثورة. لقد تبدّلت الثورة غير الثورة، ولكنّنا أبينا إلاّ أن نتصوّر أنّ الثورة لا تزال هي الثورة. نحن الآن مع قرآننا في ظلمات المتحف نجترُّ ذكريات حياتنا عندما كنّا خارج المتحف.

وكلّما رفعنا رؤوسَنا وحاولنا الخروج من المتحف أُرْكِسْنا فيه. فمنذ قرون ونحن نعيش في عصر احتضار الثورة، ولن نرى النور إلاّ بالإيمان بالنور ومعانقة النور، فذلك وحده كفيل برؤية الأشياء على حقيقتها بلا زيف ولا تضليل.

لا يصلُح آخر هذه الأمة بما صلُح به أوّلها، فالزمان غير الزمان، والقوم غير القوم، والحاجات والتطلعات غير الحاجات والتطلعات، ولكن أبى المتخلِّفون إلاّ العيش مع الأشباح ومغازلة الأشباح، وعدم التصديق بأنَّ الأشباح أشباح. هذه براعة الأشباح عند من يؤمنون بالأشباح !

سادساً

ألغموض في القرآن

إنّ وضوح الألفاظ من وضوح الرؤية، والرؤية النقيّة يصنعها الفكر النقي واللّفظ النقي، أمّا اللّفظ الغامض فلا يأتي إلاّ بالمعنى الغامض. كثيرة في القرآن هي الآيات التي صُنعت من مادّة الغموض، فلا تنقاد للعقل ولا تبين بالفهم. ألغازٌ تختال أمامك فما تدري لها وجهاً، وكلماتٌ تستحيل إلى طلاسم غيرِ مدركة كأنَّ العقل منها في عقال. وهذا مما فتح الباب واسعاً للقَصَص الشعبي والخيال الأسطوري والإسرائيليّات وعلوم الأسرار، وما هبّ ودبّ من المعاني الغريبة، والصور العجيبة، وكان كلُّ غواص يَخرج بدُرٍّ ثمين!!

١. وأوّل هذه الألغاز هي **الحروف المقطّعة** في أوائل بعض السور : ألم (البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة)، وألمص (الأعراف)، وألر (يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر)، وألمر (الرعد)، وكهيعص (مريم)، وطه (طه)، وطسم (الشعراء، والقصَص)، وطس (النمل)، ويس (يس)، وص (ص)، وحم عسق (الشورى)، وق (ق)، وحم (غافر، وفُصِّلت، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف)، ون (القلم).

ما هذه الألغاز؟ هل هذا من القرآن الذي فُصِّلت آياتُه بلسانٍ عربيٍّ مبين؟ أين الإبانة يا قوم؟ هل هي في الإلغاز؟ هل استحالت البلاغة في القرآن إلى مجموعة من الألفاظ التي لا تعني لنا شيئاً، أم لعلّ الأمر تشابه عليه سبحانه، فحَسبنَا مثله نحيط بكلِّ شيءٍ

علماً حتّى كنّا إيّاه وكان إيّانا؟ هل الإعجاز هو الإلغاز؟ إنَّ أحد أهم شروط البلاغة مخاطبة الناس بما يفهمون، أم لعلَّ الأمر على خلاف ذلك عند مَن أوْحَى بذلك؟ إيتوني بعلم إن كنتم تعلمون؟

٢. ولا يقف الأمر هنا عند هذا الحدّ. فإذا كان الغموض هنا يلفّ الحروف، فسنرى بعد قليل أنه أيضاً يلفّ الآيات "البينات". لقد حاولتُ أن أقرأ بعض الآيات، والقراءة المخلصة ممتعة ولكنها مرهقة أيضاً. تتوالى الكلمات لا يتبع بعضها بعضاً، بل يقفز بعضها على بعض، ويصطدم بعضها ببعض. تتقارب وتتباعد، تتشابه وتتدافع وتتعارض، تقف ثم تستأنف.

إنقطع السياق ثمّ انظر، ها هو يعود فجأة السياق! أعاجيب من فن القول وصناعة الألفاظ ترتسم أمامك فيما يشبه الوشي المنمنم الذي تسيطر عليه وحدة غامضة. لقد استطاعت الكلمة أن تصنع من الحروف شيئاً أقرب إلى الطيف، والطيف لا حدود واضحة له. فالصنعة البيانيّة قادرة على أن تحيل السياق إلى تناغم غامض ليس له مدلولٌ دقيق، ولكنّه يستطيع أن يخرجك من الحياة وأثقالها وأهوالها، وينقلك إلى جنّة عدْن.

هذه طاقة الكلمات. فالكلمات مخاتلة مراوغة حمَّالة أوجه. إنها تُروِّع بتداخلها وتفاعلها وتناوشها... إنّها فيض فيّاض، إمّا أن تغرق فيه، وإمّا أن تسبح سباحةَ الماهر الذي يبحث عن نفسه بمعزل عن سلطان الكلمات.

وهذا في نظري ما يفسّر فعل القرآن العجيب في عقول العامّة وأرواحهم، بل في عقول الخاصة وخاصة الخاصة، من علماء وأدباء وشعراء وفلاسفة ومن على منوالهم ممن لا يُجيدون السباحة، بل إنّ هؤلاء يطلعون علينا كلَّ يوم بفتوحات "علميّة" سبق إليها القرآن منذ أربعة عشر قرناً على لسان رجلٍ أمّيٍّ لا يقرأ

ولا يكتب، نشأ في صحراء نائية بعيدة عن مراكز العلم والحضارة. وهذا مما يستهوي العامة ويزيدهم إيماناً بإعجاز القرآن.

٣. والغريب أنّ القرآن كثيراً ما يندفع في تفاصيل لا موجب لها بل لا معنى لها، ويُقصِّر في أخرى كان من الواجب تبيانها وعدم التلكؤ فيها. خذ هذه الآية مثلاً : "واذكُرْ في الكتاب موسى، إنّه كانَ مُخلَصاً وكانَ رَسولاً نبيًّا. وناديناه من جانب الطورِ **الأيمَنِ** وقرَّبْناه نجيًّا" (١٩/ ٥١-٥٢).

أنا لا أفهم أيّ معنى لكلمة "**أيمن**" في شعابٍ واسعة لا معالم لها وكلُّ شيء فيها يصلح أن يكون على يمين شيء آخر أو على يساره. فالجهات من المضاف، أي ليس لها معنى مطلق بل هي نسبية يتحدد معناها بالقياس إلى غيرها.

٤. كذلك نرى القرآن عندما يعرض لقصة أهل الكهف وكلبهم الأمين، نراه يأتي على تفاصيل بلغت مبلغ السخف، ومع ذلك لا يستقرّ على عدد معيّن لهم، فيقول، كشأننا نحن البشر عندما نعجز عن تقرير معنى ما : "يقولون سبعة، ويقولونثمانية" مع أنّ الله علاّم الغيوب!

٥. كذلك لا يفوتني أنْ أذكر هنا أيضاً هذه الآيات-الألْغاز حكايةً عن موسى بعد أن نزل من الطور ووجد قومَه يعبدون العجل، فاستطار غضباً وأخذ بخناق أخيه المسكين هرون :

"فرجع موسى إلى قومِه غضبانَ أسِفاً. قال يا قومِ! ألم يعِدْكم ربُّكم وعداً حَسناً، أفطالَ عليكم العهد؟ أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم فَأخلفْتم موعدي؟ قالوا : ما أخلفنا موعدَك بِمَلْكِنا، ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها، فكذلك أَلقَى السامريُّ. فأَخرَجَ لهم عِجلاً جَسَّداً له خُوَارٌ، فقالوا: هذا إلهُكم وإلهُ موسى

فنسي. أفلا يَرون ألاَّ يَرجِعُ إليهم قولاً ولا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفْعاً؟ ولقد قال لهم هرونُ مِن قَبلُ: يا قومِ! إنما فُتنتُم به، وإنّ ربَّكم الرحمنُ، فاتَّبعوني وأَطيعوا أمري. قالوا : لن نبرحَ عليه عاكِفينَ حتّى يَرجِع إلينا موسى. قال: يا هرون! ما منعَك إذ رأيتَهم ضَلُّوا ألاّ تَتَّبِعَنِي، أَفَعصَيتَ أمري؟ قال: يا ابنَ أمَّ : لا تأخذْ بِلِحيتي ولا برأسي، إنّي خَشِيتُ أن تَقول فرّقتَ بين بني إسرائيل وَلم تَرقُبْ قولي. قال: فما خَطبُكَ يا سامريُّ؟ قال : بَصُرْتُ بما لم يَبصُروا به فقبضْتُ قبضةً مِن أَثَرِ الرسولِ فنبذْتُها، وكذلك سَوَّلَتْ لي نفسِي" (٢٠/ ٨٦-٩٦).

مجموعة من الألغاز في هذه الآيات، كالكلمات المتقاطعة اضطرّت المفسِّرين إلى أن يُفرِّجوا عن كلِّ مخزونهم الأسطوري ويثرثروا على هواهم ليفكّوا طلاسمها ويزيلوا الغموض الذي يحيط بها. فمن المعروف في علم البلاغة أنّ الإيجاز في غير محلّه إخلال بالمعنى، كما أنّ التطويل يُفسد المعنى.

فما المقصود بقوله تعالى : "ولكنَّا حُمِّلْنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها" (٢٠/ ٨٧). أينَ قذفوها؟ يقول المفسِّرون إنّهم قذفوها في النار. كيف عرفوا ذلك لولا أساطير التوراة التي يقول القرآن إنّها محرّفة؟ فما ضرَّ لو ذكر كلمة (نار)؟ لِمَ يُلجئنا إلى كتابٍ "محرَّف" لنفهم غير المحرّف؟

ولكنّ اللغز الكبير يتجلّى في الآية الأخيرة التي بلغ فيها الخلل أقصاه : "بَصُرْتُ بما لم يَبصُروا به فقبضْتُ قبضةً مِن أَثَرِ الرسولِ فنبذْتُها" (٢٠/ ٩٦). ما هي هذه القبضة؟ وعن أيِّ رسول يتحدّث؟ ما أخصبها من تربة لإنعاش الإسرائيليّات وحشد الأساطير طبقاتٍ فوق الأساطير، وبالتالي أسطرة المؤمنين بقرآن عربي "غير ذي عِوَج لعلهم يتّقون" (٣٩ /٢٨).

٦. وإذا أردتم مزيداً من الألغاز في آيات القرآن فدونكم هذه الآية : "ولقد فتنَّا سليمان وألقينا على كرسيِّه جسداً ثمَّ أناب" (ص ٣٤).

لا شيء كالاسطورة يضفي المعنى على هذه الآية. مرحى مرحى بهذه الآيات التي لا يضاهيها شيء في تغذية عقول المسلمين بالأسطورة وشل أذهانهم، وصرفهم عن العالم الذي يدور من حولهم ليسبحوا في عالم الغيب بعيداً عن عالم الشهادة!! أتعرفون ما هو هذا الجسد الذي ألقاه الله على كرسي سليمان؟ إنه جنِّيٌّ يبدو أنّه عربيٌّ لأنّ اسمه "صخر"، جلس على كرسي سليمان الذي تزوج بامرأة هَوِيَها كانت تعبد الصنم، وكان مُلكُه في خاتمه المشهور فنزعه مرّة عند إرادة الخلاء ووضعه عند امرأته، فجاءها ذلك الجنيُّ في صورة سليمان وأخذه منها وجلسَ على كرسي هذا الأخير. فخرج سليمان في غير هيئته الأصليّة التي سلبه الجنِّيُّ إيّاها ورأى الجنِّيَّ على كرسيه. فقال للناس أنا سليمان فأنكروه، ثمّ أنابَ إلى الله ورجع إلى ملكه بعد أيام!!

٧. وكأنّ هذا الكمّ الكبير من الغموض الذي يلفّ القرآن ويضع فكرة الإعجاز فيه على كفّ عفريت، لا يكفي، فأضاف إليه عبئاً جديداً. فممّا يُثقل القرآن بالغموض ويزيده غموضاً إلى غموض، هو كثرة استعماله للألفاظ المتضادة، أي الألفاظ التي تفيد معنَيين متضادَّين في وقت واحد، حتَّى في المسائل العقائدية وآيات الأحكام، وهذا كان من الواجب أن يكون من المحرَّمات في كتاب لا يؤتى بمثله.

فالفعل (**غَبَرَ**) مثلاً له معنيان متضادان : مضى وبقي. فقد وردت هذه الكلمة سبع مرات في سبع آيات تتحدّث عن امرأة لوط : "ولما جاءت رُسلُنا إبراهيمَ بالبشرى قالوا إنّا مهلكو أهل هذه

القرية، إنّ أهلها كانوا ظالمين. قال إنّ فيها لوطاً، قالوا نحن أعلم بمن فيها، لنُنَجِّيَنَّهُ وأهله، إلاّ امرأته كانت من **الغابرين"** (٢٩/ ٣١-٣٢). وهكذا فقد أخرج ملائكة العذاب لوطاً وأهله من القرية وأبقوا على امرأته فكانت من الغابرين أي الباقين في القرية لتنال حظَّها من العذاب.

٨. وقد يكون استعمال هذا اللفظ الذي يفيد معنيين متضادين غير ذي أهمية هنا لأنه لا يتعلق بقضية إيمانيّة، لكن الأمر غير ذلك في كلمة أخرى لها معنيان متضادان أيضاً غاية التضاد وتمسّ هذه المرة قضية أساسية من قضايا الإيمان، وأعني بها **(ظَنّ)**، وهذا الفعل يفيد الشكَّ ويفيد اليقين، ومع ذلك فإنّ القرآن لم يجد حرجاً في استعمالها : "وَاستعِينوا بالصبر والصلاة، وإنّها لَكَبيرةٌ إلاّ على الخاشعين الذين **يَظُنّونَ** أنّهم مُلاقو ربِّهم وأنّهم إليه رَاجعون" (٢ /٤٥-٤٦).

فهل يصح استعمال الفعل **(ظنّ)** في هذا الموضع. إذ قد يكون معناه ههنا أنّه ليس من الضروري أن يبلغ إيمان المرء باليوم الآخر مبلغ اليقين، بل يكتفي الله من العبد في هذه الحالة الظنّ وهو أضعف الإيمان. فما المانع أن يكون معنى الآية كذلك والنصّ لا يمنع ذلك؟

٩. وهناك لفظ آخر في القرآن له معنيان متضادان وهو يتعلّق بحكمٍ شرعيٍّ أساسيٍّ في الدين وأعني به الكلمة **(قُرْء)** فهي من المضاد، إذ معناها حيض المرأة وطُهرها، أي خروجها من الحيض في وقت واحد. فإذا كان أمرها كذلك، فكيف عسانا نفسّر قوله تعالى وهو أصدق القائلين : "والمطلَّقاتُ يتَربَّصن بأنفسهنَّ ثلاثة قُرُوء" (٢ /٢٢٨). فأيّ المضادَّين هو المقصود هنا؟ المسألة فيها قولان!

١٠. ومن هذا القبيل أيضاً كلمة (**إحصان**) ومشتقّاتها. فهي تعني العفّة، أي عدم الزواج : "ومريم ابنة عمران التي أَحْصَنَتْ فرْجَها" (٦٦/ ١٢)، وتعني الزواج :"فإذا أُحْصِنَّ" (٤/ ٢٥) ؛ كما تعني أيضاً العتق والحريّة : "فإذا أُحْصِنَّ فإن أتينَ بفاحشة فعليهنَّ نصف ما على المحصنات" (٤/ ٢٥). فقد استعملت هذه الكلمة هنا بمعنيين مختلفين في آية واحدة. ومَن يدري، فلعلّ في ذلك قمّة الإعجاز!

قولوا لي بربكم : مَن المسؤول عن هذا الغموض؟ ما حيلة المفسِّرين أمام هذه الآيات-الألغاز؟ تُرى هل كان في وسعهم أن يفعلوا غير ما فعلوا؟ مَن ألجأهم إلى ذلك؟ هل لو كان القرآن واضحاً، أكان بإمكان الغموض أن يكرَّس هكذا في كتب التفاسير؟ أم لعلّ الإلغاز باب من أبواب البلاغة ودليل من دلائل الإعجاز؟

لو كان القرآن واضحاً حقًّا، لو حدَّث الناس بما يفهمون لا بما لا يفهمون، لو كان أكثرَ رزانةً وعقلانيّة، لأورث المفسِّرين عقليّة رزينة صلبة يتعاملون بها مع القرآن بجدّيّة أكبر، ولما غرق المسلمون في الغيبيّة الأسطورية التي لم تفارقهم يوماً، بل ظلَّت تنمو وتتعاظم كلما ابتعدنا عن لحظة الإلهام الأولى، حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من جهلٍ وتخلّفٍ لا أمل في الخروج منهما في المستقبل المنظور على الأقل!

سابعاً

غريب القرآن

في إعجاز القرآن باب غريب أسهم كثيراً في غموض القرآن، وهو إلى التعجيز أقرب منه إلى الإعجاز، ويسمَّى هذا الباب (غريب القرآن).

والمراد بـ (غريب القرآن) مفردات من القرآن وألفاظ وتعابير وتراكيب غريبة جاءت فيه على اصطلاح لم توضع له في العربيّة قبله. فهي في غير المعنى الذي يفيد في وضعها الأصلي الأوّل، فكانت كما يقول الرافعي "مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلُها وسائرُ الناس. وجملة ما عدّوه من ذلك في القرآن كلِّه سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً"[1]. كما يقول السيوطي في توكيده لغرابة هذه الألفاظ بأنّ العرب وهم "أصحاب اللغة الفصحى ومَنْ نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقّفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها"[2].

وغريب القرآن يقع عادة في ألفاظه الغريبة، وفي ألفاظه من غير لغة قريش، وفي ألفاظه من غير لغة العرب أصلاً ؛ كذلك يقع غريب القرآن في أشياء أخرى ذكرها السيوطي لا يتّسع لها المقام هنا، وهي في استعمال الضمائر، وفي الوجوه والنظائر، والتراكيب غير المعهودة في كلام العرب.

---

1 مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن**، ص ٣٤.

2 جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ١/ ١١٩.

ولمّا كانت الألفاظ الغريبة في القرآن تُعَدُّ بالمئات فإنّي سأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة فقط.

فقد أخرج أبو عبيدة عن إبراهيم التيمي أنّ أبا بكر الصديق سُئل عن قوله تعالى : "وَفَاكِهَةً وَأَبًّا" (٨٠ /٣١)، فقال : "أيُّ سَماءٍ تُظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقلُّني، إنْ قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم؟"[3].

وأخرج الغريابي عن ابن عباس قال : "كلُّ القرآن أَعلَمُه إلاّ أربعاً : غِسْلِين (٦٠ /٣٦)، وحَنَاناً (١٩/ ١٣)، وأَوَّاهٌ (٩/ ١١٤)، والرقيم (١٨/ ٩)[4].

ومِن الألفاظ الغريبة أيضاً : (قلوبنا غُلْف) و(ما ننسخ) و(مثابة) و(جِنَفاً) و (بهتاناً) (غير متجانفٍ) و (مدراراً) و (يضاهئون) و (صنوان) و (جُذاذاً) و (كَطيِّ السجلِّ للكتب) و (ثاني عِطْفه) و(هيهات هيهات) و (الأجداث) و (زخرفاً) و (برزخ) و (رواكد) و(يوبقهن) و (ذي المعارج) و (سبلاً) و (جَدُّ ربنا) و (فلا يخاف بخْساً) و (ولا رهقاً) و (كثيباً مهيلا) و (وبيلا) و (شواظ) و (يطمثهن) و(نضّاختان) و (رفرفٍ خضر) و(مترفين) و (فَرَوْح ورَيحان) و (نبرأها) و(لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) و (انفقوا) و (ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً) و (عتت) و (فسحقاً) و (لو تُدهن فيدهنون) و (زنيم) و (يوم يُكشف عن ساق) و (مكظوم) و (مذموم) و (ليزلقونك) و (طغى الماء) و (يوم عسير) و (أمشاج) و (مستطيراً) و (قَمْطريراً) و(رواسي) و (ألفافاً) و (جزاء وفاقاً) و (فُراتاً) و (المعصرات) و(كواعب) و (الرادفة) و (سَفَرة) و (قَضْباً) و (عسعس) و (عِلّيِّين) و(ضريع)

3 ألمرجع السابق نفسه، ١ /١١٩.

4 ألمرجع السابق نفسه، ١/ ١١٩.

و (حسير) و (يتمطّى) و (أتراباً) و (مرساها) و (ممنون) و(أرائك) و (معاذيره)[5]...

هذه كلها ألفاظ عربيّة وردت في القرآن تختلط فيها لغة قريش بلغات قبائل عربية أخرى، لكن هناك أيضاً ألفاظ غريبة غير عربية تزيد على المئة وردت في القرآن مثل : (سندس) و (إستبرق) و(أباريق) و (أبْ) و (الأرائك) و (الأسباط) و (أكواب) و (الأوّاه) و(ربّانيّون) و (الرَّقيم) و (زنجبيل) و (سجِّيل) و (سرادق) و (غسّاق) و(القسطاس) و (مشكاة) و (صراط)...

***

والآن هل هذه الألفاظ الغريبة، عربية كانت أو أعجمية، من دلائل الإعجاز في القرآن ؟ كيف يصحّ للقرآن أن يتحدّاهم بالإتيان بمثله وهو بلغات لا يعرفونها ؟ هل هذا إعجاز أم تعجيز ؟

أين الوضوح في هذا، بل، باصطلاح القرآن، أين الإبانة في هذا : "ألر. تلكَ آيات الكتاب المبين"(١٢/ ١)؟ كيف يجوز وصف القرآن بالمبين وهو غير مبين ؟ أم عدم الإبانة هي إبانة شئنا أو أبينا على طريقة "صدقَ الله وكذب بطن أخيك"؟

والغريب أنّ المسلمين الأوّلين، بدلاً من أن تساورهم الشكوك في هذه الغرائب، حملوا المبخرة في كلِّ مكان وصلوا إليه، وأبلَوا في الدفاع عنها أحسن بلاء. هنا يبلغ الترقيع و"اللفلفة"أقصاهما وعلى غير شعور منهم،وهم يظنون، بطبيعة الحال، أنَّهم يُحسنون صنعاً. ولم يقتصر الأمر عند بعضهم على حدِّ الدفاع ونثرِ البخور على كلِّ آية غريبة، بل لقد جعلوا هذه الغرابة من دلائل الإعجاز !

5 ألمرجع السابق نفسه، ١ /١١٩-١٤٢.

ومن أعجب هذا الإعجاز ما أخرجه ابن جرير بسندٍ صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال : "في القرآن من كلِّ لسان"[6].

وروي مثله عن سعيد بن جُبير ووهب بن منبّه : "فهذه إشارة إلى حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنّه حوى علوم الأوّلين والآخِرين، ونبأ كلِّ شيء. فلا بدّ أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليُتمَّ إحاطتَه بكلِّ شيء. فاختير له من كلِّ لغة أعذبُها وأخفُّها وأكثرُها استعمالاً للعرب"[7].

ويضيف السيوطي أنّه رأى ابنَ النقيب صرح بذلك فقال : "مِن خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنّها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم. والقرآن احتوى على جميع لغات العرب، وأُنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير"[8].

ويؤكّد السيوطي ذلك بأنَّ "النبي (ص) مرسَلٌ إلى كلِّ أمّة، وقد قال تعالى: "وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسانِ قومِه" (١٤ /٤). فلا بدّ وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كلِّ قوم"[9].

أرأيتَ إلى هذا التهريج، إلى هذا المنطق الذي هو لَعمري أغرب من غريب القرآن الدخيل ؟ أرأيتَ إلى هذا التعجيز الظالم لأهل اللسان العربي المبين بكلام دخيل لا يعرفونه، من كل لسان، وإذا عرفوه، وإذا عرفوا معناه لا يتذوّقونه لأنّه ليس من أصول لغتهم البيانية.

---

6 ألمرجع السابق نفسه، ١/ ١٤٢.
7 ألمرجع السابق نفسه.
8 ألمرجع السابق نفسه، ١/ ١٤٢-١٤٣.
9 المرجع السابق نفسه، ١ /١٤٣.

ثامناً
ركاكة القرآن

وثالثة الأثافي في ضعف آيات القرآن هي الركاكة. نعم الركاكة، وقد تجدُ صعوبة كبيرة في تصديق ذلك، وتنسُبني إلى التحامل على كتاب الله، فالقرآن هو عنوان البلاغة والفصاحة والبيان، حتى ليؤمن الملايين بعد الملايين أنه ليس من جنس كلام بني البشر، فكيف يكون ركيكاً ولا يلحظ ذلك أعداء القرآن وهم يتربّصون به الدوائر ؟ هذا غير معقول، هذا غير معقول !

إنّ هؤلاء الأعداء إمّا أنّهم ماتوا في الحروب التي اندلعت بين المسلمين والمشركين فضاعت اعتراضاتهم أو ضُيِّعَت في ما ضاع أو ضُيِّع، وحيل بينها وبين الوصول إلينا، وإمّا أنّهم دخلوا في الإسلام في مَن دخل واندمجوا في البيئة الإيمانيّة العامة بجهازها الدفاعي الضخم وماكيناتها التبريرية، وانتحلوا شواهد من الشعر الجاهلي يستشهدون بها على صحّة النص الركيك، بل يشيدون بما ينطوي عليه من نُكت بلاغيّة وحِكَم عظيمة لا تدركها أفهامنا.

إنّ الإيمان وحده قادر على صنع الأعاجيب، فكيف إذا أعانه على مُرامه عقلٌ تمرّس بالبحث والنظر. ثمّ دارت الألسن بهذا الركيك ودارت حتى صقله الاستعمال اليومي وكرّسه التكرار، وأزال ما فيه من عوج، وزيَّن ما يبدو عليه من عوار، ومن هنا دخل في الموروث والمألوف والآثار، وهكذا حصل قسراً عنّي وعنك بل قسراً عن دهاقنة علماء اللغة وأمراء البيان وأصحاب

القرار، على حق الدخول إلى عرين اللسان العربي وقدْس أقداسه فلا خِيَرَةَ لأحدٍ ولا اختيار، وأصبح جزءاً من الذائقة اللغوية، يُحتَجّ به ويقاس عليه، فاعتبروا يا أولي الأبصار !!

١. قال تعالى في بيان فضله على الناس وجحود الناس لهذا الفضل : "هو الذي يُسيِّركم في البرِّ والبحر، حتّى إذا كنتم في الفُلْك **وَجَرَيْنَ بِهِمْ** بريح طيّبة **وفرحوا** بها، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كلِّ مكان، وظنّوا أنّهم أُحِيطَ بهم، دَعَوا الله مخلِصين له الدين، لئن أنْجَيتَنا لنكونَنَّ من الشاكرين. فلمّا أنجاهم إذا هم يَبغونَ في الأرض بغيرِ الحقِّ"(١٠/ ٢٢-٢٣).

إن نقطة الضعف بل والركاكة في الآية السابقة هي سوء استعمال الضمائر إساءة من شأنها إحداث اختلالٍ في السياق. إنّ سوء استعمال الضمائر إذا صدر عنّي أو عنك نسبونا إلى الجهل، واتّهمونا بنقص معلوماتنا اللغوية، ونصحونا بدراسة علم الصرف والنحو من جديد. وأمّا إذا صدر ذلك عن القرآن فهو من البلاغة، بل أفردوا له باباً من أبواب البلاغة.

ويهمنا من هذه الأبواب هنا باب الالتفات !! ودونكم الآية السابقة مرّة أخرى لتروا موضع الخلل فيها، هذا ما لم تكونوا قد تنبّهتم له من تلقائكم، لأنّه اختلال صارخ لا يمكن أن يمرّ عليه السامع من غير أن يحسَّ بنشازٍ في أذنيه: "هو الذي يُسيّركم في البرّ والبحر، حتّى إذا كنتم في الفُلك **وَجَرَيْنَ بِهِم"** بدلاً من "وَجَرَيْنَ بِكُم"، "وَفَرِحْتُم" بدلاً من "وَفَرِحُوا". صدِّقوا أو لا تصدِّقوا أنّ هذا النشاز من بلاغة القرآن. فلولا الأعرجان ما ظهرت بلاغة القرآن. إنّه ليس نشازاً إلاّ في عقولنا المعوجة، وإنما هو التفات، والالتفات باب من أبواب البلاغة اختُرع ليكون مخرجاً لهذه الآية وأمثالها.

٢. وهناك باب آخر يسمّونه (أسلوب الحكيم). فقد سئل النبي عن الأهِلّة، أي اختلاف أوجه القمر من يوم إلى آخر.وبدلاً من أن يفسِّر لهم ذلك على قدر عقولهم -ولو فعل لكان ذلك منه إعجازاً حقيقيًّا- فقد تهرّب من الجواب الذي كانوا يتشوّفون إلى سماعه مِن الذي خلق الأهِلّة ليتلقَّوا منه جواباً مخيِّباً للآمال يعرفه الصغير والكبير : "يَسألونَكَ عن الأَهِلَّة. قلْ : هي مَواقيتٌ للناس والحجِّ"(٢/ ١٨٩)[1].

يا لَلجواب المذهل الخارق ! لقد خلق الله الأهِلّة للناس ليعلموا بها أوقات زرعهم ومتاجرهم وعدّة نسائهم وصيامهم وإفطارهم وحجّهم إلى بيته الحرام، كما يقول المفسِّرون ! حسناً. فإذا صح ذلك، فماذا عسانا يا تُرى نُفسِّر اختلاف أوجه القمر -بل الأقمار- في المرِّيخ والمشتري وزُحَل وغيرها من الكواكب الأخرى ؟ هل هناك بشرٌ مثلنا في هذه الكواكب يحجّون إلى الكعبة المشرَّفة ولهم اهتمامات ومصالح كما لنا، ونساء كنسائنا يحضن ويطهُرن من الحيض استعداداً للصلاة والصوم ؟

والحق أنّ أسوأ أنواع التوقيت هو التوقيت القمري الذي ابتُلينا به والذي أحدثَ فينا شرخاً لا أملَ في رأبه. فضلاً عن أنّ هذا الجواب فيه توكيد صارخ لمركزيّة الأرض في العالم : وشمس واحدة وقمر واحد، وعبادات ومناسك واحدة. وهكذا صرَفَهم القرآن عمّا يطلبون إلى ما لم يخطر ببالهم أن يطلبوا، وعن معرفة ما لا يعرفون إلى ما يعرفون.

لقد صُدِم علماء البلاغة حقاً بهذا الجواب ولم يُصدموا. وكيف يُصدمون وهو صادر من لدن حكيم عليم ؟ لقد رجعوا إلى

---

1 علماً أنّ هذه الآية لا تدخل في باب الركيك من الكلام؛ ولكن تخريجها هذا التخريج فعل على السفسطة واللفلفة والترقيع.

الحظيرة، واشترَوا البلاهة والغباء بوجوب النقد لإحقاق الحقّ ومعرفة وجه الصواب. لقد صرفهم الله عن الجواب، باسمِ تأديبهم وتوجيههم وتعليمهم كيف يكون السؤال. وفضلاً عما في هذا الجواب من ازدراء بالسائل وتقريع له، فهو في نظري جواب لا معنى له إلاّ وجوب الكفِّ عن السؤال. وكأنما السؤال جريمة لا تُغتفر. وفي ذلك لَعمري تجاهل للتوق الميتافيزيقي الذي يشتعل في الإنسان. ألله هو الحكيم الذي يعلم حاجات عباده، ويبيّن لنا الأسلوب في توجيه خطابه. هذا هو (أسلوب الحكيم)، وهو أيضاً باب من أبواب البلاغة.

مسكينةٌ هذه البلاغة، كم تخرَّصوا باسمها !! وارتكبوا من أكاذيب ومفتريات عليها !!

ويبدو أنّ هذه اللعبة لم تكن تخفى على المتنبِّي. فقد انتقد بعض النحاة شعره، إذ وقع فيه على خطأ لغوي لا يحضرني الآن، فاستشاط المتنبي غضباً وأجاب النحويَّ بكبرياء الواثق بنفسه : "عليَّ أن أقول وعليكم التخريج". ولعل لسان حاله يضيف هذه العبارة الموحية "أليس هذا ما تفعلونه في القرآن؟ فالقوالب إنما وضعت للصغار. وأمّا الكبار فيُباح لهم ما لا يُباح للصغار، خسئتَ، فارجع إلى قبيلك وأهل عشيرتك الصغار".

والرأي عندي، أنّ من أهمِّ أسباب نشأة علم البلاغة في الإسلام الدفاع عن القرآن على أيِّ وجه اتّفق وإيجاد الحلول لما اعوجَّ فيه، لا لوجه العلم والحق والبيان. فقد عثروا فيه على أشياء كثيرة حيَّرتْهم وبلبلت أذهانهم. لقد رابهم فيه ما لو كان في كتابٍ غيره لبلغوا في التشهير به غاية المدى. ولكن ما العمل وقد أُنزل من لدن عزيز عليم "قُرآناً عَربيًّا غيرَ ذي عِوَج" (٣٩/ ٢٨)؟ هذه مسلّمة المسلّمات لا يمكن لأيِّ مسلم التفريط فيها.

إنّ كلّ مسلم صادق الإيمان يتّهم نفسَه ولا يتّهم قرآنه، مهما بدا له في القرآن ما يمكن الطعن فيه أو على الأقل يستوقف النظر. هنا جاءت علوم البلاغة والبيان والبديع... لرتقِ ما انفتق، ورأبِ ما انصدع، وسدِّ ما انثلم، وقطعِ دابرِ ما انشقّ وفَجِيَ ولم ينتظم. فلا انفتاق ولا انثلام ولا تصدع ولا فجوات في القرآن، إنما كلُّ ذلك قصور في عقولنا نحن بني الإنسان. وعلم البلاغة والبيان كفيل بتحقيقِ اختراقٍ عظيم في هذا الشان.

بالسخف والسفسطة والهراء يمكنك أن تكشف ما تريد، وتحجب ما تريد، وتستطيع ما تريد، وتفسِّر ما تريد، وتخبر بما تريد، وتسوّي كلَّ عِوَج تريد.

كنت دائماً أقول: أعطِني مجنوناً وأنا أستطيع أن أستخرج لك من كلامه حكمةَ الأوَّلين والآخرين. ولكن يبدو أنّ المفسّرين الذين تربّوا في أكثر من مدرسة من مدارس الفصاحة والبلاغة، وحُمّلوا أوزاراً من زينة البيان والبديع والمعاني... قد سبقوني أشواطاً في هذا الباب.

٣. "مَن كَفَرَ باللهِ مِن بَعدِ إيمانِه، إلاّ مَن أُكْرِهَ وَقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان، ولكن مَن شرَح بالكفرِ صدْراً، فعليهم غضبٌ مِن الله ولهم عذابٌ عظيم"(١٦ /١٠٦).

أستحلفكم بمن تحبّون : هل فهمتم شيئاً ؟ قلتُ في نفسي لعلّ في هذه الآية خطأً في النسخ، أو لعلّ فيها كلمة ناقصة أو كلمة محرّفة. فرجعتُ إلى طبعاتٍ مختلفة من النسخ كُتبتْ في أزمنةٍ مختلفة، عسى أن أجدَ بينها اختلافاً ما. ولكنْ عبثاً. فهناك تطابق تامّ بين جميع النسخ وفي جميع الأزمان والأمكنة. هل هذا حقًّا كلام ربِّ العالمين الذي تحدّى الإنس والجن أن يأتوا بمثلِه ؟ أعان الله المفسِّرين الذين يَنحتون الصخر بأظافرهم ليحصلوا على قليل من الماء !

إن جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتلون هذه الآية كلَّ يوم صباح مساء، في صلواتهم وعباداتهم ويَسمعونها في إذاعات القرآن الكريم، من غير أن يشعر أيٌّ منهم بأيِّ ضعف فيها أو تشويش أو نشاز.

لقد تكسّرت النصال على النصال فلا يبالي المؤمن على أيِّ جنب كان "مقتلُه". فقد تبلّد الحسّ اللغوي فيه، ورثّت ذائقتُه، وضعفت سليقتُه. لقد مات الشعور بالنشاز فيه في ما يتصل بآيات القرآن فقط، وبقي سليماً معافًى في كلِّ شيءٍ آخر. كلُّ شيء فيه لا يزال على فطرته الأولى، بل ازداد دقّة وأداء، واكتسب مهارات وقدرات ومواهبَ في كلِّ شيء إلاّ هاهنا. فإذا طغى الإيمان ارتفع العقل، ويفعل الإيمان ما لا يفعله العقل !!

أعترف بكلّ صدق أنّي لم أتنبّه لهذه الآية وكثيرٍ من أمثالها إلاّ الآن. ولولا أنّي في أساس عملي أدرس القرآن دراسةً نقديّة تحليليّة ممحّصة آية آية، ولولا أنّي قسّمتها أبواباً وفهارس لهذه الغاية، لظلّت الغشاوة على عينيّ. فما قولك بمَن لا يعبأ بهذا من المتعبِّدين؟! ألا ترون ذلك العدد الكبير من المفكّرين المسلمين وأساتذة الجامعات الذين لا يقلّون إيماناً بأسطورة إعجاز القرآن عن أي رجل من العوام؟ إنّهم ليسوا في موقع تشريح آيات القرآن وهتك أستاره. بل لا يقدرون على ذلك.

فالقراءة قراءتان: قراءة تعبّدٍ تعمى عن المكشوف الذي يكاد يفقأ العين في مخالفته للمعقول والمقبول. وإذا كان في هذه القراءة مِن تدبّر فهو تدبّر الدفاع والتبرير الذي يرى في الآية حكمة الأوّلين والآخرين؟ وقراءة فحْص ونقد وتحليل تَزيد المكشوفَ انكشافاً، وتضع أيدينا على ما لا يريد المتعبِّدون أن يروه والاعتراف به. ولذلك يداورون ويناورون ليوارَوا سَوْآتِه بشتّى العلل والتعلاّت والتعليلات!

ولعلّ هذا الكتاب يستطيع أن يُحدث لديهم -أو لدى طائفة منهم على الأقلّ- صدمات موجعة. فهناك فنّ جديد من العلاج هو العلاج بالصدمات!

٤. وهاكم آية أخرى تشبه الآية السابقة في الضعف والركاكة وإن كان فهمُها غيرَ عسير، فسرِّحوا النظر فيها لعلّكم أفصح منّي لساناً وأكثر بياناً، على أن تبتعدوا عن المفسِّرين الميامين الذين لا يجدون فيها عوجاً ولا أمْتاً. لا بأس أن ترجعوا إلى كتب التفسير، لكن بمقدار، بل يجب أن ترجعوا إليها على أن يكون ذلك بمنتهى الحذر: "وَهُوَ الذي أنْزَلَ من السماءِ ماءً، **فَأَخْرَجْنَا** بِهِ نباتَ كلِّ شيء، **فَأَخْرَجْنَا** مِنه خضيراً **نُخْرِجُ** مِنه حبًّا متراكماً" (٦/ ٩٩).

ليت شعري ! أتشعرون بشيء غير طبيعي عند سماعكم هذه الآية ؟ في هذه الآية عَيبان، أو "بلاغتان"، إذا شئتم : بلاغة الالتفات "هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا"، هذا أولاً، وثانياً تكرار الفعل "أخرج" ثلاث مرات تكراراً يخدش الأذن ويشعرها بالضيق والتبرّم، ما لم يكن الضيق والتبرّم من دلائل الإعجاز ! ولو تردّى ابن المقفع أو الجاحظ أو غيرهما من أمراء البيان في مثل هذا السقم لهشمّوهما ولأوسعوهما نقداً وتجريحاً. ولكن ما العمل إذا كان الصقل والتكرار وقراءة التعبّد أورثتْ أصحابَها تبلُّدَ الحسِّ وفقدانَ الشعور بالنشاز !!

٥. وهاكم آية أخرى تشبه الآية السابقة في الضعف والركاكة لم أفهم منها شيئاً فسرِّحوا النظر فيها لعلّكم أحدٌ منّي بصراً وأكثر فهماً، على أن تبتعدوا عن المفسِّرين الميامين الذين يجدون فيها كلَّ شيء ! لا بأس أن ترجعوا إلى كتب التفسير، بل يجب أن ترجعوا إليها، على أن يكون ذلك بمنتهى الحذر : "وإذْ

نادَى ربُّكَ موسى أنِ ائتِ القومَ الظالمين، قومَ فرعون، ألا يتّقون؟" (٢٦/ ١٠-١١). وفي حواره مع فرعون سأله هذا : "ألَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَليداً ولبثتَ فِينا من عمرِكَ سِنين ؟ وفَعلتَ فَعلَتَك التي فَعَلْتَ... قال فَعلتُها... ففررتُ منكم لمّا خِفتُكُم، فوَهَبَ لي ربِّي حُكْماً وجعَلَني مِن المرسَلِين. وتلك نعمةٌ تَمُنُّها عليَّ أنْ عبّدتَ بنِي إسرائيل" (٢٦/ ١٨-٢٣).

ألآية-اللغز هنا هي الآية الأخيرة. وما سبق من الآيات فهو تمهيد لها. إقرأوها ثمّ أعيدوا قراءتها مثنى وثُلاث ورُباع وعُشار، وزيدوا في القراءة ما تشاؤون، وقولوا لي بصدقٍ وإخلاص هل فهمتم شيئاً ؟ وأنا لكم من الشاكرين.

أنا لم أفهم كيفَ يكون (التعبيد) أي الاستعباد كما يقول المفسِّرون، نعمة يمُنُّ بها فرعونُ على موسى. وإذا أُريد لهذه الآية أن يكون لها معنى، فلا بد من قراءتها على الشكل التالي : "وتلك نعمة يمُنُّها الله عليَّ" أي : "أن أكون من المرسَلين نعمة يمُنُّها الله عليَّ".

أمّا بقية الآية "أنْ عبَّدتَ بني إسرائيل" فهي محرّفة لا معنى لها؛ أو هي بقيّة آية منسوخة؛ أو شيء من هذا القبيل، وقد تلقّاها النسّاخ والقرّاء والمقرئون على الوجه الذي ورد في القرآن كما يتلقّى الصُمُّ والبُكمُ والعُميُ ما يُلقَى إليهم بلا اعتراض ولا معارضة، بل يقولون كلٌّ من عند ربنا". وجاء المفسِّرون في أعقابهم فلم يجرؤوا على إحداث أيِّ تغيير فيها، وتفنّنوا في اختلاق شتّى المعاني لها؛ ولم يقل أيٌّ منهم : لا ترهقوا أنفسَكم فالآية على هذا الوجه لا معنى لها !!

٦. كذلك إقرأوا الآية-اللغز التالية وأعيدوا قراءتها ضمن الشروط السابقة وقولوا لي هل فهمتم شيئاً : "قل لا يَعلمُ مَنْ في

السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلاّ الله، وما يَشعُرون أيّانَ يُبعَثُون. بلِ ادَّارَكَ عِلمُهم في الآخِرة، بل هم في شكٍّ منها، بل هم منها عَمُون" (٢٧/ ٦٥-٦٦).

تُرى، هل في هذه الآية الأخيرة ذرّة من البلاغة ؟ هل يبلغ الكلام من الإرتباك والإلتواء والركاكة والتشويش أكثر منه هنا ؟ إنه لعمري الإعجاز في عدم الإعجاز !!

أنا لا أنكر أن هذه الآية وأمثالها من الآيات-الالغاز لا بدّ أن يكون لها معنى، ولكن هذا المعنى لا يزال مخبوءاً في بطن صاحبه. فالألفاظ المذكورة غير صالحة للكشف عنه، لما فيها من ركاكة وارتباك والتواء، وبالتالي لما فيها من عجز عن التعبير الواضح عن المراد، وهذا مما ترك الباب مفتوحاً أمام هراء المفسرين وسخفهم وتخرّصاتهم.

ما هكذا تكون البلاغة. كلاّ. وما هكذا يكون الإعجاز. فنحن هنا أمام عجز فاضح لا أمام إعجاز. أين سلاسة الإعجاز الذي نجده عند الجاحظ، بل أين انسياب الكلام البليغ الذي جاء به كاتبٌ أعجميٌّ كابن المقفع بلسان عربي مبين لم يدَّعِ يوماً أنّه أُنزِل من لدن حكيم عليم ؟ فعلى قدر ما يبقى المعنى محجوباً، يكون عجز؛ وعلى قدر ما يسرع إلى الظهور، يكون إعجاز.

٧. "وإذْ قال مُوسى لِفَتاهُ: لا أَبْرَحُ حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحرَينِ أو أَمْضِيَ حُقُباً. فلمّا بَلَغا مجمعَ بينِهما نَسِيا حُوتَهما فاتّخذَ سبيلَه في البحر سَرَباً. فلمّا جاوزَا قالَ لفتاهُ : آتِنا غداءَنا. لقد لَقِينا مِن سَفَرِنا هذا نَصَباً. قال: أرأَيتَ إذ أَوَيْنا إلى الصخْرةِ؟ فإنّي نَسيتُ الحوتَ، **ومَا أَنْسَانِيه ِ إلا ّ الشيطانُ أن أَذْكُرَهُ**، واتَّخذ سبيلَه في البحر عَجَباً" (١٨ /٦٠-٦٢).

يقولون إنّ كلام الله ليس فيه زيادة، فالألفاظ فيه على قدود

المعاني بلا زيادة ولا نقصان ! حسناً. لكن هذه الآية فيها زيادة أحدثتْ فيها خللاً ظاهراً. هذه في رأيي ليست زيادة بل حشوٌ كما في كثيرٍ من آيات القرآن. إنّ كلمة **"مَا أَنْسَانِيهِ إلاّ الشيطانُ"** كافية لتأدية المعنى المطلوب. فما الحكمة "البالغة" من إضافة **"أن أذْكُرَهُ"**؟ وإذا كان القرآن حريصاً على كلمة **"أنْ أَذْكُرَهُ"**، فما فائدة الضمير في **"أَنْسَانِيهِ"** هنا ؟ لقد كان من الواجب أن يقول "وما أنسانيه إلاّ الشيطان"؛ أو "وما أنساني إلاّ الشيطان أن أذكره". وأما الجمع بينهما معاً فهو نشاز صقلَه اللسان فمات الإحساس به.

٨. "وسخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض جَميعاً **مِنْهُ**. إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون"(٤٥/ ١٣).

أنا لم أفهم لهذه الـ **"مِنْهُ"** أيَّ معنىً أو وظيفة. إنّها حشو في حشو، ولم يبق على البلاغيّين إلاّ أن يجعلوا الحشو باباً من أبواب البلاغة. ولعلها ذيلٌ لآية أخرى نُسخت فأثبتها النسّاخ سهواً فانسابت في النص من غير أن يخطر على بال أحد أن يشكّك فيها. قد تكون لها حكمة لا يعلمها إلاّ الله! وهنا دخلت الحذلقات والمماحكات المعروفة لإخراجها من عزلة اللاّمعنى وإدخالها زوراً وبهتاناً في رحاب المعنى، إنقاذاً لها من محنتها حتّى ولو كان هذا المعنى هو عين اللاّمعنى، فقيل : "سَخّر لكم... جميعاً منه"، أي سخّرها كائنة منه تعالى! فهي هنا حال إذن، ولم يسأل أحد نفسه : ما ضرورة هذا الحال؟ فهل هناك سفسطة أكثر من هذه السفسطة : "كائنة منه" يا أساتذة السفسطة بدلاً من شطبها وحذفها من النص نهائياً ؟ ولكن مَن يجرؤ على ذلك ؟

٩. "وسِيق الذين كَفروا إلى جهنَّمَ زُمَراً، حتّى إذا جَاؤوها فُتحتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنتُها: أَلَمْ يأتِكم رُسُلٌ منكم يَتلون عليكم آياتِ ربِّكم؟.. قالوا: بلَى... قيلَ ادخُلُوا أبوابَ جهنَّمَ خالدِين فيها،

فبئسَ مَثوَى المتكبِّرين. وسِيقَ الذين اتَّقَوا ربَّهم إلى الجنَّة زُمَراً، حتَّى إذا جاؤوها **و** فُتحتْ أبوابُها وقالَ لهم خزَنَتُها: سلامٌ عليكم، طِبْتُم فادخُلُوها خالِدين. وقالوا: الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وعْدَهُ، وأَورَثَنا الأرضَ نَتَبَوَّأُ من الجنَّة حيث نشاءُ. فنِعْمَ أجرُ العامِلين. وترَى الملائكة حافِّينَ مِن حَول العرشِ يُسبِّحون بحمدِ ربِّهم، وقُضِي بينهم بالحقِّ، وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين" (٣٩/ ٧١-٧٥).

هذه الآيات هي في رأيي من الروائع لولا أنّ فيها عيبين شوَّها جمالَها كفتاة رائعة الجمال نبت الشعر في شاربها وذقنها. لكنَّ دورانَ الألسنة بهذه الآيات طويلاً أخفى التشويهَ كما تُخفي المساحيقُ عيوبَ وجه الحسناء.

فهناك عدم توازٍ بين الآيات التي تصف دخول الذين كفروا إلى جهنم ودخول الذين اتَّقَوا. فعندما سيق الذين كفروا إلى جهنم ووصلوا إليها فُتحت لهم أبوابها. فالوصول أدّى إلى فتح الأبواب. أي لقد جاءت المقدمة (الوصول) وتبعتها النتيجة في الحال. ولكن ذلك لم يحدث ما يوازيه للذين اتَّقوا : فالآيات التي تصف وصول هؤلاء هي، في الظاهر على الأقلّ، مجموعة مقدّمات بلا نتيجة، وإن كانت النتيجة معروفة بالإستنتاج. ألنتيجة في الآيات الأولى معروفة لفظاً واستنتاجاً، وأمّا في الآيات المتبقّية فالنتيجة معروفة استنتاجاً فقط.

وبعبارة أكثر تبسيطاً : نجد في آية المتَّقين (**واو العطف**) زائدة شوّهت المشهد كلَّه حتّى ليظنَّ الإنسان أن هذه الآية لا جواب لها. في الآية الأولى يأتي الجواب في الحال : "حتّى إذا جَاؤوها فُتِحَتْ أبوابُها"، بينما لا جواب في الآية لدخول حرف العطف : "حتى... **و**فتحت" فكيف انزلقت هذه الواو الثقيلة هنا ؟

يقولون إنّها زائدة، ولكنها زيادة على حساب أهل الجنّة المتلهّفين لمعرفة مصيرهم ! فإذا فعلتُ ذلك، أنا وأنت عُدَّ تقصيراً منّا، ولكن إذا فعله القرآن فهو إعجاز. مسكينان أنا وأنت !!

والعيب الثاني في هذه الآيات هو الفعل "**سِيق**" الذي يستعمل للدواب ولا يجوز تطبيقه على الإنسان. فكما يُساق الحمير والبغال والماشية على أنواعها، هكذا يساق البشر في القرآن. وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل لقد سُوِّي في هذا الاستعمال الظالم بين "**الذين كفروا**" و"**الذين اتقوا**". وهي تسوية أمعن في الظلم، وفيها احتقار شديد للذين "**اتّقوا**". فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أم أنّ في الأمر هنا حكمةً خفيت على العقول والأذهان؟ وكأنما أحسّ المفسِّرون "الملفلفون" بقبح هذه التسوية وما فيها من هُجنة وإجحاف بحق المتّقين فرقّعوا كلمة "**سِيق**" الاولى بإضافة كلمة "بعنف"، ورقّعوا الثانية باضافة كلمة "بلطف"؛ فقالوا: "وسيق الذين كفروا بعنف إلى جهنم زُمَراً"، "وسيق الذين اتّقوا بلطف إلى الجنّة"، ونسوا أن السَّوق هو السَّوق، سواء كان بعنف أو بلطف!

١٠. "قل أئنَّكُم لَتكفُرون بالذي خلَق الأرضَ في يومَينِ وتَجعلون له أنداداً، ذلك ربُّ العالمين. وجعلَ فيها رَواسي مِن فوقِها وبارَك فيها وقدَّر فيها أقواتَها في أربعةِ أيَّامٍ سَوَاءً للسَّائلين. ثمّ استَوى إلى السماء وهي دُخانٌ، فقال لها وللأرضِ: ائتِيَا طَوعاً أو كَرْهاً. قالتا: أتَينا طائِعينَ. فقضَاهنَّ سبعَ سموات ٍفي يومَينِ، وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها. وزيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيحَ وحِفْظاً. ذلك تقديرُ العزيز العليم"(٤١/ ٩-١٢).

هذه الآية كسابقاتها يختلط فيها الغموض بالركاكة. وبتعبير أدقّ إنّ غموضها من ركاكتها ومن تعارضها مع آيات أخرى في

القرآن. وقد يكون العكس هو الصحيح. فعدم وضوح الرؤية في ذهن صاحبها يورثه الإرتباك بل الإلتواء في التعبير عنها، فيخبط ذات اليمين وذات الشمال، فتتناثر المعاني بعيداً عن الألفاظ، وتبتعد الأعداد عن المعدودات. لقد فقَدَ النصُّ اتّساقه، فكلّ شيء بعد الآن متوقَّع منه. فلا ترى إلاّ قفزات تقطع حركة السياق وتُوقف اندفاعه نحو بلوغ أغراضه.

إنَّ شيئاً من هذا القبيل قد حدث في الآية التي نحن الآن بصددها وفي آيات أخرى سابقة مشابهة تعاني من التفكك والإنفكاك:

إنّ كلّ ما جاء في القرآن بخصوص عدد الأيام التي خلق الله فيها العالم تحصر هذا العدد في ستّة أيام، إلاّ الآية الأخيرة. كما أنّ جميع الآيات المتعلقة بعدد أيّام الخلق في القرآن تدخل إلى الموضوع مباشرة بلا نوافل أو طفيليات ضارة إلاّ ههنا. فبصرف النظر عن عزلة هذه الآية وعدم ارتباطها بما قبلها وما بعدها كما عوَّدَنا القرآن، فقد بدأت بداية غريبة: **"قُلْ أَئِنَّكُم"**. فهل هذا سؤال؟ أم إنكار؟ أم تقرير لواقع؟!. أم ماذا؟! أفتوني في أمري، وأنا لكم من الشاكرين!

كذلك إنّ هذه الآيات الأربع نشاز يجمع بين أطرافٍ متباعدة : التعريض بالمشركين الذين يَكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومَين، ولا يكتفون بذلك بل يجعلون له أنداداً. ثمّ يأتي بعد هذا بيان أنّ الذي خلق كلَّ ذلك هو ربّ العالمين. ثمّ اتبع ذلك بتقوية الأرض بالجبال وتقدير أقواتها في أربعة أيام.

وهكذا تكون الأرض وحدَها قد تطلبت منه سبحانه ستة أيام عمل مستمر. وهي تستحق هذا الجهد منه تعالى نظراً إلى أهمّيتها البالغة في العالم. وهذا مفهوم عند القدماء، كيف لا وهي مركز

العالم وقلبه النابض، وما تبقَّى فأشياء تافهة : شمس وقمر وسبع سموات تزيّنها عدّةُ مصابيح يهتدي بها الناس في البر والبحر، وهذه كلّها يكفيها يومان فقط بالتمام والكمال.

صدِّق أو لا تصدِّق أنّ خلق السموات لم يستغرق سوى يومَين، ما لم تكن سموات من كرتون، بل من ورق ضعيف القوام تفيض عن حاجة الملائكة التي لا أقدام لها كأقدام البشر ثقيلة الوزن، شديدة الوقع، قويّة الوطء. فالملائكة لها أقدام أثيرية لطيفة جداً لا تستخدمها في المشي بل لها أجنحة رقيقة تُغْنيها عن المشي. وهذا يذكّرني بقول أحد الشعراء الفرنسيين في وصف حبيبته هذه ترجمته:

للّـهِ مـا ألْطفُ أقدامِهـا   تمشِي على العشبِ فلا يَشعـرا!

والخلاصة، إن الله بعد أن أتمّ خلق الأرض في ستة أيام خلق السموات السبع في يومَين. ثم نثر المصابيح هنا وهناك في السماء الدنيا زينة لها، دون السموات الأخرى على ما يظهر، فبقيت مظلمةً، لأنَّ السموات مقرُّ الملائكة، فهي لا تحتاج إلى مصابيح لأنَّ الملائكة أجسام نورانيّة. ولعل مصابيح السماء الدنيا من الشمع، وآية ذلك قصر المدّة التي استغرقها خلْق السماء !

وختمت الآية ذلك كله بأنه من تقدير العزيز العليم. فتبارك الله أحسن الخالقين.

لقد حار المفسِّرون في فهم هذه الآيات التي تتوسّع في عدد أيام الخلق فتجعلها ثمانية، وفي التوفيق بينها وبين جميع الآيات الأخرى التي تكتفي بستة أيام فقط، فقالوا إنّ الأيام الأربعة التي أتم الله فيها خلق الأرض يدخل فيها اليومان الأوّلان اللّذان خلق الله فيهما الأرض. مخرج لطيف لا بأس به، ولكنّه إن صحّ أفلا يدلُّ

على ركاكة القرآن الذي كان في مقدوره أن يستعمل ألفاظاً أكثر وضوحاً وبياناً، فعدل عنه إلى الركيك الغامض، لا سيّما وإنّ الإبانة صفة ملازمة للقرآن تتكرر في كل صفحة تقريباً "بلسان عربي مبين"؟!

١١. "ولقد أرسلْنا نوحاً وإبراهيمَ وجعلنا في ذرِّيَّتِهما النبوَّةَ والكتاب، فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون. ثم قفَّينا على آثارهم برُسُلِنا وقفَّينا بعيسى ابنِ مريمَ وآتيناه الإنجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعُوه رأفةً ورحمةً، ورهبانيَّةً ابتدعوها ما كتبْناها عليهم إلاّ ابتغاءَ رضوانِ الله، فما رَعَوها حقَّ رعايتها. فآتَينا الذين آمَنوا منهم أجرَهم، وكثيرٌ منهم فاسِقون"(٥٧ /٢٦-٢٧).

لا يمكن لأحد يُنقِّبُ عن الآيات المرتبكة في القرآن أن يمرَّ على الآية الأخيرة بسلام. فلا يعرف المرء هل الرهبانيّة من ابتداع النصارى أم إنَّ الله كتبها عليهم وأمرَهم بها ؟ والغريب أنّ القرآن جمع النقيضَين وأثبت المتعارضَين، فكيف يستقيم لها معنى ؟ كيف ابتدعوها وكيف كتبَها الله عليهم.

ولمّا كان المفسرون لا يملكون إلاّ أن يَقبلوها على علاّتها وبكلِّ قضِّها وقضيضها من غير أن ينبسَ أيٌّ منهم بكلمةِ نقدٍ واحدة، فقد اتَّهموا أنفسَهم من غير أن يجرؤوا على اتّهام الآية : "فعِلمُها عند ربّي. لا يضلُّ ربِّي ولا يَنسى". ولإعطائها شيئاً من المنطق قالوا في تفسير: "إلاّ ابتغاءَ رضوان الله" بإضافة جملة مقدّرة هكذا : "**لكنْ فَعَلُوهَا** ابتغاءَ مرضاة الله" لقد أعطوها معنى بعد أن لم يكن لها معنى. وليتهم لم يفعلوا لأنّ أحداً لا يقتنع بهذا المعنى، فهل يُصلح العطّارُ ما أفسد الدهر؟ ومتى كان التشويش من دلائل الإعجاز ؟

١٢. وكأنّ هذا التشويش لا يكفي، وكأنّ الركاكة مطلب

بلاغيّ كبير، لذلك اقتضت الحكمة الإلهية -فتنة للذين كفروا- أن تتلو هذه الركاكة ركاكة أخرى تزيد في تشويش القرآن، وذلك بعد آية واحدة من الآيات السابقة : "يَا أيُّها الذين آمنوا! اتَّقُوا الله وآمِنوا برسوله، يُؤتِكم كِفلَينِ مِن رحمتِه، ويَجْعلْ لكُم نوراً تَمْشُون به، ويَغفِرْ لكم، والله غفورٌ رحيم. لئلاّ يعلمَ أهلُ الكتاب ألاّ يَقدِرونَ على شيءٍ مِن فضلِ الله، وأنَّ الفضلَ بيدِ الله يؤتِيهِ مَن يشاء. والله ذو الفضل العظيم" (٥٧ / ٢٨-٢٩).

في هذه الآية عقدتان من الأحاجي لا ندري أيَّتهما أكبرُ من إختها، وضَعَتا المفسِّرين في موقفٍ لا يُحسدون عليه. ويبدو أنّ القرآن يجد نشوةً في إنهاك هؤلاء المساكين الذين لا يقدرون على شيء غير الهراء :

ألعقدة الأولى هي هذه الـ **"لئلاّ"** المحيِّرة. إنّها هنا كالزئبق لا تستطيع أن تلمس أيَّ معنى أو أيَّ وظيفة لها. ومما زاد في شدّة هذه العقدة على المفسرين أنها لم تكد تفرغ شحنتها في أذهانهم لتأخذ بتلابيبهم، حتى أعقبتْها عقدة ثانية أشدُّ وطأة، كأنّها الراجفة تتبعها الرادفة التي تحدّث عنها القرآن في سورة النازعات. قلوب يومئذ واجفة. وكلّها من علامات الساعة والعياذ بالله تعالى، وقانا الله من شرورها !!

ما أشقى هؤلاء المفسرين الصابرين وما أصعب الأعباء والمهمّات الملقاة على عاتقهم ! إن كلمة "أفٍّ" واحدة لم تصدر عنهم. لم يتذمّروا ولم يعترضوا، بل استبسلوا وأقدموا وغاصوا في اللجج ليجمعوا كلام الله ويحيطوا على قدر الطاقة البشرية بالأبعاد والمرامي التي ينطوي عليها، وكان كلُّ غوَّاص يخرج بلآلئ جديدة أحسن من أخواتها !!

إنّ معنى الآية الأخيرة ظاهر، شريطة ألاّ تلتزم بالألفاظ التي تُثقلها وتخرج بها عن معانيها. فالنفي **"لئلاّ"** حشوٌ لا معنى له، بل هو مضلّل أساء كثيراً إلى الآية، وجعلها من الأحاجي والألغاز، مع أنّ المعنى المراد بسيط جداً.

كما أنّ إثبات النون للفعل المضارع **"يقدرون"**، رغم حرف النصب، مضلّل آخر. كلّ ما يريد القرآن أن يقوله في هذه الآية : "ليعلم أهلُ الكتاب أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله". ولكن الحشو أثقلها حتّى أفقدها كل ما تبقَّى لها من معنى. ومَن يدري فلعل الحشو من دلائل الإعجاز! فكلّما كنتَ أكثرَ حشواً كنتَ أكثرَ إعجازاً، فلا يُحسن الحشوَ إلاّ النادرون !!

١٣. "ن. والقلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ. ما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ بمجنونٍ، وإنَّ لكَ لأَجْراً غيرَ ممنونٍ، وإنَّك لعلَى خُلْقٍ عظيمٍ. فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرونَ : بأيِّكُمُ المفتونُ؟" (٦٨ /١-٦).

في هذه الآيات معانٍ سهلة بسيطة ينساب السياق فيها على رسله انسياباً جميلاً، لكنّه يختل في الآية الأخيرة اختلالاً مشيناً، لحكمة أرادها الله. فقد أبى القرآن -كعادته في حالات مشابهة أقف حائراً أمامها- إلاّ أن يُخرِّب ما بنى ويُفسد ما أتقن، على قاعدة "أبى الله أن يرفع شيئاً إلاّ وضعه"، هذا ما فعله حرف الباء المشؤوم "**بـ**ِ أيِّكم المفتون" ومع أن الصُمَّ البُكمَ العُميَ ينفون الزيادة عن كلام الله، فإنّ حرف الجر هذا حرف زائد، شاءوا أو أبَوا، هذا إذا كان معنى الآية : فستبصر ويبصرون : "أيّكم المفتون" أي المجنون.

واذا لم يكن حرف الباء هنا حرفاً زائداً وقعنا في إشكال آخر وهو كلمة "مفتون"، وهي كلمة لا معنى لها هنا، والأصح أن تكون "فتون" أي جنون: هل الجنون بك يا محمد أم بهم ؟

والحقيقة، إنّ المفسِّرين الذين قالوا بهذا الرأي قد صحّحوا "كلام الله"، وهم يظنّون أنّهم يفسرونه، وإلاّ فلا معنى لها.

وسواء أخذنا بهذا التفسير، أو ذاك، أي سواء كان حرف الجر حرفاً زائداً أو كانت كلمة "مفتون"بمعنى "فتون"، فإنّ الآية في نصّها الأصلي مختلّة ركيكة لا معنى لها، ما لم يكن في الأمر خداع ما،

١٤. وهاكم تصحيحاً آخر لكلام الله قام به "الملفلفون" الثرثارون وهم يظنّون أنهم يفسّرونه : "فَلا أُقْسِمُ بربِّ المشارق والمغارب إنّا لَقادِرونَ على أنْ نُبَدِّلَ خَيراً منهم، وما نحنُ بمَسْبُوقِينَ"(٧٠ /٤٠-٤١)، أي بعاجزين عن ذلك.

فإذا كان القرآن يريد هذا المعنى فلم عدل عنه واختار له لفظاً آخر غريباً عنه، وغير مناسب له، ولا علاقة له به بوجه من الوجوه ؟ لِمَ لمْ يقل "وما نحن بعاجزين"؟ أوَليس ذلك أكثر فصاحة وبياناً يا أهل الفصاحة والبيان ؟ والحقُّ أنه لم يكن أمام المفسِّرين خيار آخر غير هذه الكلمة لإنقاذ هذه الآية-الورطة ! فما أكثر الورطات التي أوقعهم فيها القرآن، ما لم يكن وراء ذلك "حكمة بالغة" تخفَى على الأوّلين والآخِرين استأثر بالعلم بها ربُّ العالمين !!

هل هذا كلام الله حقاً ؟ هل هذا ما تحدّى الإنسَ والجِنَّ أن يأتوا بمثله ؟ !! لو كان القرآن كلُّه من الروائع لهان الأمر ولكن الروائع فيه كحلقة في فلاة. أو قل هي واحات متناثرة هنا وهناك في صحاري شاسعة لا بداية لها ولا انتهاء. وحتى لو كان القرآن كلّه من الروائع فالتحدّي لا معنى له، لأن الروائع لا يؤتَى بمثلها، إنما يؤتى بأحسن منها أو بأقلّ منها أو في مستواها، أما أن يؤتى بمثلها فهذا من المستحيل، فكيف إذا كانت هذه الروائع كتلك التي

يزدان بها القرآن ؟ إنّ كلام ابن المقفع والجاحظ وأبي حيان التوحيدي[2] على مستوى عال من الجودة والرفعة، فهل يمكن لأحد أن يأتي بمثله، لا سيّما اذا تذكّرنا أنّه ليس في كلامِ أيٍّ من هؤلاء ما نجد في القرآن من تشويش وتفكّك وركاكة وغموض ؟

2 وكدت أقول: "والمعرّي"، لولا أنّه غامض كالقرآن. لكنّه يظلّ على مستوى واحد من الجودة لا اختلال فيه.

تاسعاً

ألتناقض سمة بارزة في القرآن

وحبذا لو أن الأمر وقف بالقرآن عند الآفات التي ذكرنا. فهناك آفات أخرى أشدّ خطراً لعلّ أهمها التناقض الصارخ، أجل، إنّ القرآن مليء بشتى التناقضات التي لا يمكن السكوت عنها، فالتناقض سمة بارزة في القرآن.

دونكم هذه الآيات التي يختلط فيها الغموض بالتناقض:

١. "شهرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القُرآنُ" (٢/ ١٨٥). فالمعلوم أن القرآن "نزل منجَّماً"، أي متفرِّقاً على دفعات وفي آجال مختلفة وليس جملةً واحدة. فما معنى نزول القرآن في رمضان إذن؟ لا حلَّ لهذا التناقض إلاّ بالأسطورة. فقد كان القرآن أوّلاً في "اللّوح المحفوظ"، ومن "اللوح المحفوظ"نزل منجّماً إلى السماء الدنيا. وهكذا حُلَّت المشكلة بجرّة قلم.

٢. لكن في أيِّ يومٍ من رمضان نزل القرآن؟ "إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدْرِ" (٩٧/ ١). وكأنّ الغموض الأوّل لا يكفي فأردفه بغموضٍ آخر إمعاناً في الغموض والتعمية، فحدّد النزول بليلة القدر وهي مجمع الأساطير: "ومَا أدراكَ ما ليلةُ القدْرِ؟ ليلةُ القدْرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ. تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذنِ ربِّهم من كلِّ أمرٍ، سلامٌ هي حتّى مطلعِ الفجْر" (٩٧/ ٢-٥).

هل فهمتم شيئاً؟ فالغموض في القرآن لا يفهمه المؤمن إلاّ بالمزيد من الغموض! أوَتلومون المفسِّرين بعد ذلك إذا لم يجدوا سبيلاً لإزالة الغموض إلاّ بالأسطورة. ففيها المخرج من كلِّ

غموض!! فما أكثر أساطير القرآن التي حيكت في ليلة القدْر، وما أكثر الفتوحات التي فتح الله بها على عباده المقرَّبين في ليلة القدر!!

٣. "أينما تكونوا يُدرِكُّمُ الموت، ولو كُنتُم في بروجٍ مشيَّدةٍ. وإنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يقولوا هذه مِن عندِ الله، وإنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يقولوا هذه من عندكَ. قلْ كلٌّ مِن عند الله، فما لِهؤلاءِ القومِ لا يَكادونَ يَفقهونَ حَديثاً؟ ما أَصابَك من حَسنة فمِن الله، وما أصابك من سَيِّئة فمِن نفسك. وأرسلناكَ للناس رَسولاً وكفَى بالله شهيداً"(٤/ ٧٨-٧٩).

إنّ الآيات المتناقضة في القرآن تكون في العادة متباعدة، متناثرة هنا وهناك تفصل بينها مسافات واسعة، إلاّ في حالات قليلة نادرة كما في الآيتين السالفتين حيث جاءت الآية الثانية معارِضة للأولى، ولمّا يتلاشَ صداها في الأذن، إذ لم تكد الآيةُ الأولى تقرِّر أنَّ الخير والشرَّ كليهما من الله حتّى جاءت الآية الثانية التي تليها مباشرة لتقرر العكس، وهو أنَّ الخير فقط من الله وأنّ الشرّ من الإنسان!!

٤. والآيتان التاليتان على نمط الآيتين السابقتين: "سَيقول الذينَ أشركوا: لو شاء الله ما أشركْنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنا مِن شيء، كذلك كذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهم حتّى ذاقوا بأسَنا. قلْ هلْ عندَكم مِن علمٍ فتُخرِجوه لنا؟ إنْ تتَّبِعون إلاّ الظنَّ، وإنْ أنتم إلاّ تَخرُصون. قلْ فللَّهِ الحجَّةُ البالغةُ، فلو شاءَ لهداكم أجمعينَ"(٦/ ١٤٨-١٤٩).

نعم عندنا ألف علم وعلم، وكلّها تستند إلى آيات كثيرة أهمّها الآيتان الأخيرتان واللتان قبلهما وآيات أخرى كثيرة، وهي مجموعة من المتناقضات تستوعب جميع ما قيل ويقال وما سيقال

في مقولتَي الجبر والاختيار إلى يوم القيامة. ثمّ ما معنى اتّهامه لهم باتّباع الظنّ، بل والأنكى من ذلك اتّهامهم بأنّهم يَخرُصون؟

فهل الاعتماد على الآيات الأربع السابقة وكثير غيرها ظنٌّ، بل وتَخرُّصٌ؟ هل هذا معقول. والغريب أنّه ختمَ الآيةَ بإثباتِ ما نفاه في أوّلها: "لو شاء الله ما أشركنا... كذلك كذّب الذين،،". وهذا ما أخذه عليهم!!

٥. "وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدْنا من دونِه من شيءٍ نحن ولا آباؤنا، ولا حرَّمْنا من دونه مِن شيء. كذلك فعل الذين من قبلهم..." (١٦ /٣٥).

فهل قولهم "لو شاء الله ما أشركنا"، "ولو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء"ظنٌّ؟ بل وتخرّص؟ إنّ كلامهم حقّ وسليم وموزون، وهو فوق ذلك له سند من القرآن الذي لا تعدو أقواله في هذه المسألة على الأقلّ "كوكتيلاً"من التناقضات التي لا تستقرّ على رأي، والتي أرهقت المفسِّرين وأنهكت قواهم في عبث لا خير فيه.

٦. أليهود شعب الله المختار بنصِّ القرآن: "يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأنّي فضّلتُكم على العالمين" (٢/ ٤٧ و١٢٢).

كلاّ. اليهود ليسوا شعبَ الله المختار، بل هم بشر كسائر البشر: "وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قلْ فلِمَ يعذِّبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشرٌ ممّن خلق. يَغفر لمن يشاء ويعذِّب مَن يشاء، ولله مُلكُ السموات والأرض وما بينهما، وإليه المصير"(٥ /١٨). "قل يا أيّها الذين هَادوا إن زعمتم أنَّكم أولياءُ الله من دون الناس، فتمَنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين"(٦٢/ ٦).

وسيسلط الله عباده على اليهود حتى تقوم الساعة: "وإذ تَأَذَّنَ

ربُّك لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة مَن يَسومُهم سُوءَ العذابِ، إنّ ربَّك لَسريعُ العِقاب وإنّه لغفورٌ رحيم"(٧/ ١٦٧).

ومع ذلك فسيعلون في الأرض بعد أن يفسدوا فيها مرّتين. أنا لا أفهم لِمَ حصر ذلك في مرّتين فقط مع أنّ حياتهم كانت كلُّها فساداً وإفساداً! "وقَضَينا إلى بني إسرائيلَ في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرضِ مَرَّتين، وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كبيراً" (١٧ /٤).

٧. والخلود في القرآن ثلاثة أنواع يناقض بعضها بعضاً: خلود مطلق إلى غير نهاية، وخلود مقيَّد بدوام السموات والأرض، وخلود مقيَّد بمشيئة الله. فأيّ هذه الأنواع هو الأحق بالإعتبار؟

في الخلود المطلق قال: "قال الله هذا يومُ يَنفعُ الصادقينَ صِدقُهُم، لهم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالِدين فيها أبداً. رَضِيَ الله عنهم وَرَضُوا عنه، ذلك الفوزُ العظيم" (٥/ ١١٩).

لكن أعجب أنواع الخلود هو الخلود المقيَّد بدوام السموات والأرض حيث لا سموات ولا أرض، فقد طُوِيَتَا بحلول يوم القيامة وذهبَتا إلى غير رجعة: "يوم نَطوي السماء كطيِّ السجلِّ للكتب" (٢١/ ١٠٤).

يليه الخلود المقيّد بمشيئة الله. وبهذه المشيئة لم يقيّد الله نفسَه بشيء، وأكاد أقول إنّه نسف فكرة الخلود من أساسها، ونفض يده منها على طريقة شعبه المختار: "فأمّا الذين شَقَوا ففي النارِ، لهم فيها زَفير وشَهيق، خالدين فيها ما دامتِ السموات والأرض إلاّ مَا شَاء الله، إنَّ ربَّكَ فَعَّالٌ لما يُريد"(١١/ ١٠٦-١٠٧).

والغريب أنَّ النوعين الثاني والثالث قد وردا في آية واحدة؛ وهي المذكورة سابقاً. وهذا، إذا صحّ، فهو في مصلحة "الذين شَقَوا"، لأنّه يضع حدًّا لمعاناتهم. "وأمّا الذينَ سُعِدوا ففي الجنَّة

خالدين فيها ما دامت السموات والأرض، إلاّ ما شاء ربُّك، عطاءً غيرَ مَجذوذ"(١١ /١٠٨).

وهذا، إذا صحّ، ليس في مصلحة "الذينَ سُعِدوا"، لأنّ من شأنه أن يجعل "الذين شَقَوا"خيراً منهم، لأنَّ قطْعَ الخلود الشقي عن مستحقِّه ورفْعَ المعاناة عنه أعظم لذّةً من متعةٍ طال عليها العهد وكان مقدَّراً لها أن تكون خالدة، ثمّ انقطعت عن مستحقِّها على حين غرّة، لارتباطها بمشيئةٍ إعتباطيّة لا قرار لها ولا استقرار، ولا تُسأل عمّا تَفعل. إنّ هذا لَعمري أشدُّ مضاضةً على النفس وإيلاماً لها من كلِّ ما عانى الشقيُّ من عذابِ جهنم. فإين المساواة في هذا؟

٨. "إنَّ الذين لا يؤمنون بآياتِ الله لا يَهدِيهِمُ الله ولَهم عذابٌ أليم"(١٦/ ١٠٤).

هل هذا صحيح؟ بل هل هذا معقول؟ ما هذا التعميم الغريب؟ ما هذا الحكم المطلق الذي لا يبرِّره منطقٌ ولا تاريخ؟ ما حكم أولئك الذين آمنوا بآيات الله بعد أن لم يكونوا مؤمنين؟ مَن هداهم؟ الشيطان؟ هل خرجوا من بطون أمّهاتهم مؤمنين؟ أوَلا تتعارضُ هذه الآية مع آيات كثيرة أخرى لا تُحصى يمنُّ الله فيها على المؤمنين أن هداهم للإيمان؟

٩. "يَمُنُّونَ عليكَ أنْ أَسْلَموا. قلْ لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكم، بلِ الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين"(٤٩ /١٧). "واعتصموا بحبل الله جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا، واذكروا نعمةَ الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّفَ بين قلوبِكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً، وكنتم على شَفَا حُفرَةٍ من النار فأنقَذَكم منها. كذلك يبيِّنُ الله لكم آياتِه لعلّكم تَهتَدون"(٣/ ١٠٣).

عجيب حقاً أمر هذه الآيات التي تنفي الهداية في المستقبل

عن الذين كانوا كافرين أو مشركين أو فاسقين أو ضالين أو مضلِّين وقت ظهور الإسلام، مع أنّ جميع الذين دخلوا فيه كانوا يَكفرون به من قَبْلُ، أو كانوا فاسقين وضالّين، فمَن هداهم إذن بعد أن لم يكونوا مهتدِين؟ ألم يَمُنُّ الله عليهم باستمرار أنّه هو الذي هداهم إلى صراطٍ مستقيم؟

والغريب أنَّ هذه الآيات تتكرّر كثيراً في القرآن حتّى ليخال المرء أنَّها وليدة النزوة والإنفعال أكثر منها وليدة التفكير والتروي.

١٠. "ومَن يَهدِ الله فهُوَ المهتدِ، ومَن يُضْلِلْ فلن تجدَ لهم أولياءَ مِن دونِه، ونَحشرُهم يومَ القيامة على وجوههم عُمياً وبُكماً وصُمًّا، مأواهُم جهنَّمُ، كلَّما خَبَت زِدْناهم سَعيراً"(١٧ /٩٧).

فإذا صحّ ذلك فما مصير الآيات الأخرى التي يتلاوم فيها أهل النار ويقذف كلٌّ منهم بالتبعة على الآخر: "إذْ تَبَرَّأ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذين اتَّبَعُوا ورأَوا العذابَ وتقطَّعتْ بهم الأسبابُ. وقال الذينَ اتَّبَعوا لو أنَّ لنا كُرَّةً فَنَتَبَرَّأَ منهم كما تَبَرَّأوا مِنّا. كذلك يُريهِمُ الله أعمالَهم حَسَراتٍ علَيهم، وما هم بخارجينَ مِن النار"(٢ / ١٦٦-١٦٧).

ليت شعري، أين ما تَنْسِب إليهم الآية السابقة من العمى والبكم والصم؟ إنهم أحدٌ بصراً منّي ومنك وأطلقُ لساناً وأشدٌّ سمْعاً. إنّهم رغم ما هم فيه من عذاب جهنّم وأهوال الجحيم قادرون على رؤية أهل الجنّة وما هم فيه من النعيم، والطلب إليهم بلسان عربيّ مبين أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله: "ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنّة أنْ أَفِيضوا علينا مِن الماء أو ممّا رزقَكُمُ الله. قالوا إنَّ الله حرَّمَهما على الكافِرينَ"(٧/ ٥٠).

لقد اعترفوا بذنوبهم ودعَوا الله أن يعيدهم إلى الحياة الدنيا

ليعملوا صالحاً ولكن عبثاً "تَلفَحُ وجوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالِحون. ألم تكنْ آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تُكذِّبون؟ قالوا: ربَّنا غلَبتْ علينا شِقْوَتُنا وكنَّا قوماً ضالِّينَ. ربَّنا أَخْرِجنا منها، فإنْ عُدْنا فإنّا ظالمونَ. قال اخْسَأُوا فيها ولا تُكَلِّمون"(٢٣/ ١٠٤-١٠٨).

إلى غير ذلك من الآيات العديدة التي تدلّ على أنّنا لسنا بأبصر أو أنطق أو أسمع منهم. لقد رأيتم أنهم باعتراف القرآن يظلّون في جهنّم بكامل حسّهم ووعيهم لم يَفقدوا منهما شيئاً، فأين دعوى العمى والبكم والصمّ يا قوم؟

١١. صدِّق أو لا تصدِّق! لقد أخرج الله بني إسرائيل من مصر وأورَثَهم مصر وخيراتِ مصر وكنوزَ مصر: "وأَوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعِبادِيَ إنَّكم مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلَ فرعونُ في المدائنِ حَاشِرينَ... فأَخرَجنَاهُم من جنَّاتٍ وعُيونٍ، وكُنوزٍ ومَقَامٍ كريمٍ، كذلك وأَورثْناها بني إسرائيلَ"(٢٦/ ٥٢-٥٩).

لا تعليق، فاللاّتعليق هنا أبلغ من التعليق! فقد أخرجهم الله من مصر فكيف أورثهم مصر؟ وحتّى لو كان الضمير في "أخرجناهم"يعود إلى المصريّين، كما يقول كثير من المفسِّرين، فكيف أورثَ الله مصرَ للإسرائيليّين بعد خروجهم من مصر؟

١٢. "إنّا أرسَلناك بالحقِّ بشيراً ونذيراً، وإنْ مِن أمَّةٍ إلاّ خَلا فِيها نذيرٌ"(٣٥/ ٢٤). لكن هذه الآية تعارضُها آيةٌ أخرى: "ولَو شِئْنا لَبَعَثْنا في كلِّ قريةٍ نذيراً"(٢٥ /٥١).

فالأمّة والمدينة والقرية لها معنى واحد تقريباً في القرآن. وكلّها تعني الجماعة المستقرّة التي تُقيم في أرضٍ تكفيها لتبادل المعايش والحاجات. بل إنّها تعني أيضاً الجماعةَ العابرة غيرَ المتوطِّنة: "ولمَّا وَرَدَ مَاءَ مَديَنَ وَجَدَ عليه أمَّةً مِن الناس يَسْقُونَ"(٢٨ /٢٣). ولها في القرآن معانٍ أخرى لا تهمّنا هنا.

١٣. أوَتُريدون المزيد من تناقضات القرآن؟ دونكم تناقضاً يتعلّق بيونس: هل قذفَه الله بالعَرَاء (بالساحل)، أم لم يقذفْه؟ للقرآن في هذه المسألة قولان متعارضان أحدهما يُثبت والآخر يَنفي:

"وإنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسَلين. إذ أَبَقَ إلى الفُلْك المشحونِ. فَسَاهَمَ فَكَانَ من المُدْحَضِينَ، فالتَقَمَهُ الحوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ. فلولا أنَّه كان من المسبِّحِينَ، لَلَبِثَ في بطنِه إلى يومِ يُبعَثونَ. فَنَبَذْنَاه بالعراءِ وهو سَقِيم"(٣٧/ ١٣٩-١٤٥). لقد نبذه الله بالعراء إذن. كلاّ. لم ينبذه: "فاصبِرْ لِحُكمِ ربِّكَ، ولا تكنْ كصاحبِ الحوت إذ نادى وهُو مَكْظُومٌ. لولا أنْ تَدَارَكَه ُ نعمة ً مِن ربِّه لَنُبذ َ بِالعَرَاء وهُوَ مَذمومٌ"(٦٨/ ٤٨-٤٩). لقد تداركه الله بنعمته وإلاّ لنبذه!!

فاخترْ أيَّ المعنيَين تُريد!! فماذا فعل الله به إذن بعد نفي النبذ واللاّنبذ؟ هل هناك خيار ثالث، يقال له "الثالث المرفوع" لا يعلمه إلاّ هو؟

١٤. عندما اختار الله موسى لوحيه بعد انصرافه من مَدْيَن ومعه أهلُه، نودي وهو بالوادي المقدس طُوى حيث رأى ناراً تحترق ولا تُحرَق، فأمره الله أن يذهب إلى فرعون بآياته لعلّه يَذَّكَّر أو يخشى. فلم يملك موسى إلاّ أن يمتثل لأمر ربِّه. لكنّه اشتكى أنَّ لسانَه به عقدةٌ فلا يُحسن النطق، وسأل الله أن يشفيَه منها، وأن يَشرح صدره ويُيسِّر أمره، فاستجاب الله دعاءه:

"قال: ربِّ اشرَح لي صدري، ويسِّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي... قال: قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى"(٢٠/ ٢٤-٢٧و٣٦).

هل استجاب الله له دعاءه حقاً، أم إنَّ الأمر فيه ما فيه؟ الظاهر أنّه سبحانه قد فعل قبل أن يفرغ موسى من دعائه، إذ قال له في الحال وبلا أيِّ تأخير "قد أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا موسى"، كما رأينا.

لكنَّ هذه الآية تعارضها آيةٌ أخرى تفيد أنَّ موسى، رغم استجابة طلبه، قد ظلَّ يعاني صعوبةً في النطق تمنعه من الإبانة. والدليل أنّ فرعون كان يجد عسراً في فهم أقواله: "ونَادى فرعونُ في قومه، قال: يا قومِ أليسَ لي مُلكُ مصرَ وهذه الأنهارُ تجري من تحتي، أفلا تُبصِرون؟ أم أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مَهينٌ، ولا يَكادُ يُبِينُ"(٤٣ /٥١-٥٢). فهو إذن لا يزال عاجزاً عن الإبانة، أي عن التعبير البيّن السليم الذي لا بدّ منه لتوضيح مراده والغاية من رسالته إلى فرعون. فهل أُوتي موسى سؤلَه حقاً أم لم يُؤْتِه؟

١٥. يوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، إنّه يوم الكرب العظيم ويوم الهول العظيم!! هناك "يُعرَف المجرِمُونَ بسِيمَاهُم، فَيُؤْخَذُ بالنَّوَاصِي والأَقْدامِ"(٥٥/ ٤١). وبصرف النظر عمّا إذا كان من الواجب القول "يُؤْخَذُونَ"بالجمع لأنَّها تعود إلى المجرمين، فإنّنا نتساءل: هل يُؤخذون هكذا بلا سؤال؟ هل معرفة الناس بسيماهم تكفي للحُكم عليهم؟ إنّ الأمر تشابه عليّ. ففي القرآن آياتٌ تؤكد السؤال وأخرى تَنفيه، ولذلك فأنا حائر لا أستطيع أن أقطعَ في هذه المسألة برأيٍ حاسم:

"فوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم أجمعين، عمّا كانوا يَعْمَلون" (١٥ / ٩٢-٩٣). "تَالله لَتُسْأَلُنَّ عما كنتم تَفْتَرون" (١٦/ ٥٦). "ولو شاء الله لجعلكم أمَّةً واحدة، ولكن يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويَهدي مَن يشاءُ، وَلَتُسْأَلُنَّ عمّا كنتم تَعمَلون" (١٦ /٩٣). "وإنّه لَذِكْرٌ لكَ ولقومكَ، وسوف تُسْأَلُون" (٤٣/ ٤٤).

لكنّ هذا التوكيد للسؤال لا يلبث أن يُصبح نفياً له في آياتٍ أخرى يُزَجُّ أصحابُها في النار بلا سؤال ولا محاكمة، اعتماداً في الظاهر على معرفة المجرمين بسيماهم. فهذه المعرفة على ما يبدو تُغني عن السؤال أو الجواب، و -بلغة العصر- عن المحاكمة! وقد

لا يدخل ذلك في عقولنا نحن البشر الضعفاء، لكن يظهر أنَّ الملائكة خبراء، محلَّفون، متمرِّسون بمعرفة الناس، جديرون بالثقة في هذا الباب، وإلاّ لما أَطلَق الله أيديهم يستقلّون بالفعل والترك كما يشاؤون. فلا موجب إذن لاجراءات المحاكمة وتعقيداتها التي لا تنتهي. ولو كان سبحانَه يعلم أنَّ في ذلك ظلماً لعباده لما سمح به. هل نسيتم قوله تعالى: "... ووَجَدوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحداً"(١٨/ ٤٩). تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

تذكّر جميلي إذ خلقتُك نطفةً

ولا تنسَ تصويري لشخصك في الحشا

ففوِّضْ إليّ الأمرَ وأعلم بأنّني

أدبّرُ أحكـــامي وأفعلُ ما أشـــا

لذلك لا خوف من الآيات التي تَنفي سؤال الناس عمّا كانوا يعملون "ولا يُسأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجْرِمون"(٢٨/ ٧٨) و "فإذا انشقَّتِ السماء فكانتْ وَرْدَةً... فيومئذٍ لا يُسألُ عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ"(٥٥ /٣٦-٣٩).

١٦. ولا يمكنني أن أختم حديثي عن تناقضات القرآن من غير أن آتي على تناقضٍ لعلّ أفضل تسمية له هي (التناقض الأكبر) أو (سيّد التناقضات) بل (تناقض التناقضات). والغريب أنّ القرآن يتّخذ من هذا التناقض شاهداً وحجّة على قدرة الله تعالى قدرةً مطلقة. فعلى حين يقول "سُنّة الله في الذين خلَوا مِن قبْلُ، ولن تجدَ لسنَّة الله تبديلاً"(٣٣/ ٦٢) و ".. فهل يَنْظرون.. فلن تجدَ لسُنَّةِ الله تبديلاً ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تحويلاً"(٣٥/ ٤٣).

هذه الآيات فيها تناقضان: عادي، كثير الوقوع، وتناقض آخر صارخ أسميناه (تناقض التناقضات).

فأمّا التناقض العادي فهو أنّ هذه الآيات قد جاءت في معرض الحديث عن الأوّلين، وكيف أنزل الله العذاب بالمخالفين منهم. فإذا كانت سنّة الله في الأوّلين الإنتقام منهم في الحال، أو على الأقلّ، إنزال العذاب بهم في الحياة الدنيا، فلِمَ لَمْ يحدث ذلك إلاّ في الماضي الذي لا يمكن التحقّق منه، بينما المخالفون - الذين جاءوا بعدهم، أي الذين عاشوا تحت أضواء التاريخ، وعلى الخصوص في هذه الأيّام-، يَعيشون بمنأى عن العذاب، بل يرفلون هانئين في أبهى حلل السعادة والنعيم؟

فإذا كان الله في القرآن يعني ما يقول، فلِمَ أوقف العمل بهذه السُنة في العصور التاريخية مكتفياً بالوعيد اللفظي الذي لا يعني شيئاً على الأرض، وإن كان يعني كلّ شيء في الكلام الفضفاض على الطريقة العربية المعروفة التي شحننا بها القرآن وعمّق جذورها؟ وإذن علام يدل حرف "**لن**" في الآية السابقة؟ "**لن** تجد لسنّة الله تبديلاً"؟ كيف تبدلت هذه السُنّة في الحاضر عنها في الماضي رغم وجود حرف "**لن**" الذي ينفي التغيير في المستقبل؟

قد يقال: ألا ترى ما ينزل بالمخالفين اليوم من أمراضٍ مستعصية وأزماتٍ خانقة ومصائب لا قبل لهم بها؟ نعم أنا أرى ذلك. ولكنّه لا ينزل بجميع المخالفين بل بقلّة منهم، وهي قلّة غنيّة قادرة على مواجهته والتخفيف من وطأته. وحتى عندما تعجز عن ذلك فإنّها تظل قلّة ليست شيئاً مذكوراً في جمهور المخالفين الآخرين. هذا أوّلاً، وثانياً إن ما ينزل بالمخالفين لتعاليم الله لا ينزل بهم وحدَهم بل ينزل بلا تفرقة بين مَن يطيع الله ورسولَه ومَن يخالف أمرهما.

وإذن فلا شأن لرضى الله وسخطه في ما ينزل سواء بالمخالفين أو المطيعين الملتزمين بأوامره ونواهيه، ولا سيّما

عندما نفاجَأ أنّ الله يَكيل بمكيالين: مكيال للماضي ومكيال للحاضر؛ مع أن جميع آيات القرآن تؤكّد أنّ مكيالَ الله واحد.

كلّ هذا يدخل في باب التناقض العادي إذا صح التعبير، ولكن بإزاء هذا التناقض يوجد ما أسميته بـ (تناقض التناقضات). وهنا الطامة الكبرى. فالدليل على نبوّة إبراهيم عدمُ احتراقِه بالنار التي أوقدها له المشركون، والدليل على نبوّة المسيح إحياءُ الموتى... إذا ألقينا في النار جسماً قابلاً للإحتراق فأيُّهما سُنّة الله: أن يحترق أو أن لا يحترق؟ وإذا مات إنسان أيُّهما سُنة الله: أن يُعيد الطبيبُ إليه الحياةَ، أو أن يقف دون ذلك مكتوفَ اليدين؟ فالمعجزة هي، في حقيقة الأمر، غير معجزة بنص القرآن نفسه "لا تبديل لكلمات الله". إذاً لا تبديل لقانون الاحتراق الذي استُثني منه إبراهيم، كما لا تبديل لقانون الموت الذي استُثني منه موت عيسى.

وهل نسيتم الآيات السابقة الداعمة للآية الأخيرة "فلن تجدَ لسُنَّة الله تبديلاً"، "ولن تجدَ لسُنَّة الله تحويلاً"، والآيات الأخرى التي على شاكلتها؟ وبما أنّ هاتين المعجزتَين (عدم الإحراق وإحياء الموتى) قد حدثتا في الماضي فقط ولا نظير لهما في الوقت الحاضر، فيجب ألاّ يؤخَذا مأخذاً جدِّياً، لأنَّ الماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء، كما يقول ابن خلدون[1]، بل يجب تناولهما بمنتهى الحذر. فما بُني على الباطل باطل كما هو معروف.

1 **المقدمة** ١ /٢٢٠.

عاشراً

ألقرآن والعلم

لا يمكن الحديث عن سلبيات القرآن من غير الحديث عما فيه من أخطاء علمية فاحشة تفقأ العينَين.

١. **فصورة الكون** في القرآن هي صورة من علم الفلك الأسطوري القديم كانت شائعة في عصور احتضار العلم اليوناني والفلسفة الإغريقية ممتزجة بأطياف شرقيّة وأخيلة دينية زاهية. فالأرض هي مركز العالم، وقاعدته الثابتة، تعلوها سبع سموات، طبقاتٍ بعضُها فوق بعضٍ، محمولة على أعمدة لا تراها العين. وليس لدى القرآن على ما يبدو أيُّ فكرة عن عالم لا نهائي مليء بالمجرّات والسَّدَم والثقوب السوداء والغبار الكوني. فعالَمُ القرآن عالَم مقفَلٌ موحِشٌ محدودٌ تضيئه الشمس في النهار، والقمرُ والكواكب والنجوم -المصابيح المعلّقة التي تزيّن السماء الدنيا- في الليل.

وهذه السماء (أو السماوات) ستنشقُّ يوم القيامة "فهي يومئذٍ وَاهِية. والمَلَكُ علَى أرجائِها، وَيَحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومَئذٍ ثَمانية" (٦٩ /١٦-١٧). ويظهر أنَّ العرش في السماء السابعة، لكنّها عندما تنشقّ سيتولّى عندئذ ثمانيةٌ من الملائكة حملَه. ولا أدري ما إذا كان العدد (ثمانية) هنا صحيحاً أم انسابَ في آخر الآية انسجاماً مع القافية! إذ إنّ الشكلانيّة البيانيّة -إذا صحّ التعبير- لها سحرٌ طاغٍ في القرآن بل قلْ هي إحدى الأولويّات التي تضحّي بالمعنى في سبيل المبنى!

٢. لقد كانت **النار** أحد العناصر الأربعة في الفلسفة اليونانية وكثير من الفلسفات الشرقية القديمة، لها كيانها الخاص المستقلّ، كالماء والهواء والتراب سواء بسواء، وكذلك النور. فإذا كان الله قد خلقَ الإنسانَ مِن طينٍ، فقد خلق إبليسَ والجِنَّ والشياطين من نار، كما خلق الملائكة من النور. بل إن الله نفسه من نور، أو قل هو نور، بل نور الأنوار "الله نور السموات والأرض" (٢٤ /٣٥).

٣. ويظهر أنّه يُعْقَدُ مِن وقتٍ لآخر، مجلسٌ إلهيٌّ في موضعٍ ما على أحد تخوم الأرض، لعلّه فلك القمر، يحضره سيِّدنا جبريل عليه السلام وعلى الخصوص سيِّدنا عزرائيل وبعض الملائكة المختصِّين بشؤون العالم الأسفل للتداول في أحوال الناس وأرزاقهم وعباداتهم ومدى التزامهم بأمور دينهم، ومَن سيُخلق هذا العام ومَن سيموت، ومَن سيدخل الجنَّة ومَن حُقَّ عليه العذاب...

ويظهر أنّ الرقابة لم تكن مشدَّدة في هذه المجالس، فكان من الممكن الإفلات من الحرَس وحضور الجلسات، فيتسلّل الشياطين إلى هذه الإجتماعات لمعرفة ما يَجري فيها، وإبلاغِ أهل الأرض بذلك. ويبدو أنّهم يستطيعون سرقةَ بعض الأخبار، وهذا ما يسمّيه القرآن (الخَطْفَة):

"إنّا زَيَّنّا السماءَ الدنيا بزينةٍ: الكواكب، وحِفظاً مِن كلِّ شيطانٍ ماردٍ. لا يَسَّمَّعُونَ إلى الملأ الأعلى ويُقذَفون من كلِّ جانب، دُحُوراً ولهم عذابٌ وَاصِب. إلاّ مَن خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَه شِهابٌ ثاقِبٌ" (٣٧ /٦-١٠).

ويتكرّر هذا المعنى في آيةٍ أخرى: "ولقد جعلْنا في السماء بروجاً وزيَّنّاها للنَّاظرين. وحفِظناها من كلِّ شيطانٍ رجيم. إلاّ مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ، فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبينٌ" (١٥ /١٦-١٨).

وهذه عبرة لنا نحن أهل الأرض. فأجهزة المخابرات، مهما كانت صارمة، فإنّها تظلُّ دون المستوى المطلوب، حتّى ولو كانت مخابرات من صنع السماء!!

فليس في هاتين الآيتين أي فكرة عن الشهب بمعناها العلمي. إنّها شواظ من نارٍ يُراد به دحْرُ الشياطين ورجمُهم ومطاردتُهم لا إحراقُهم، لأنَّ الشياطين لا يتأثّرون بالنار، إذ هم من نار!

٤. إنّ **عمليّة التجسّس** على مجالس السماء مستمرّة بلا انقطاع. لكن يظهر أنّ هذه العمليّة قد توقّفت توقفاً تاماً لمّا بُعث النبي عليه السلام. فقد فوجيء الشياطين يوماً أنّ السماء "مُلئتْ حَرساً شَديداً وشُهُباً، وأنّا كُنَّا نَقْعُدُ منها مقاعدَ للسَّمْع، فمَن يستمع الآنَ يجدْ له شِهاباً رَصَداً. وأنّا لا نَدري أشَرٌّ أُريدَ بمن في الأرض، أم أرادَ بهم ربُّهم رَشَداً" (٧٢ /٨-١٠).

كلُّ ذلك بعد بعثة النبي. لا تجسُّس بعد اليوم. فالحراسة مشدَّدة جداً بعد أن كانت رَخوة مِن قَبل. فمن يستمع منذ الآن، تطارده الشهب من كلِّ جانب. فالتجسّس بعد اليوم مرامٌ صعب، إن لم يكن مستحيلاً. هذا ما توحي به الآية السابقة على الأقلّ[1].

٥. "ولُوطاً إذ قَال لقومِه إنَّكُم لَتَأتُونَ الفاحشةَ. ما سبَقَكم بها مِن أحدٍ مِنَ العالمِين" (٢٨ /٢٨).

هل هذا صحيح؟ هل الشذوذ الجنسي من اختراع قومِ لوط فقط؟ إنَّ الشذوذ الجنسي صورة من صور الإشباع الجنسي القديم قدم الإنسان، إنّه ينبع من الغريزة الجنسيّة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان.إنّ هذه العادة منتشرة بين بعض أنواع الحيوان

1 إنّ هذا الحدث الخطير الذي صحب مولد النبي عليه السلام يذكّرني بحدث آخر لا يقلّ عنه خطورة وهو نجمة الفرس التي صحبتْ ميلاد السيد المسيح ودلّتْهم على المزود الذي وضعتْه أمّه فيه! فمولد الكبار تعقبه الأحداث الكبار!!

بل بين الحشرات، فكيف ينفيها القرآن هذا النفي المطلق عن إنسانِ ما قبل لوط؟! إنّه خطأ كنت أربأ بالقرآن أن يقع فيه.

٦. وهناك خطأ علميّ آخر وقع فيه القرآن، وهو سوء فهمه للأرض الميتة، والإنتقال منها إلى موتِ الإنسان لإثبات قدرة الله على إحياء الموتى كما يُحيي الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها: "ومِن آياتِه أنَّك تَرى الأرضَ خاشِعةً، فإذا أنْزَلنا عليها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ. إنَّ الذي أحيَاها لَمُحْيِ الموتَى. إنّه على كلِّ شيءٍ قدير" (٤١ /٣٩).

في هذه الآية مغالطة كبيرة مغطّاة بغلالة رقيقة جداً لا تراها العين الباصرة إلاّ بصعوبة بالغة جداً، هذا إذا تمكّنت من رؤيتها حقاً، وهي التوحيد البدائي الساذج، بين الموت المَجازي والموت الحقيقي. هناك مَوْتان كما هو معلوم: موت حقيقي وموت مَجازي، والخلط بينهما إمّا تمويه مقصود أو جهل فادح، ولا وسط بينهما. فالأرض الهامدة مَيتة لكن بمعنى مجازي فقط، وأمّا موت الإنسان عندما يتوقّف قلبُه ودماغه فهو موت حقيقي لا حيلة للإنسان فيه.

تُرى، كيف يشبّه الله في القرآن هذا بذاك ويصدر عليهما حكماً واحداً؟ ما هذا لعمري إلاّ غاية الإحالة. ليس الله وحده الذي يحيي الأرض بعد موتها، بل أنا وأنت أيضاً قادران على إحيائها من غير أن نكون إلهَين من دون الله، ما دام موتُها إنما هو موتٌ مجازي ليس له من الموت إلاّ اسمه. إذ تعيش في التربة كائنات دقيقة من الطحالب والسراخس والجراثيم تعمل على نقل الأزوت من الجوِّ وتثبيته في الأرض ليأخذ النباتُ حاجتَه منه، وفي ذلك صيانة للتربة تكفل لها الخصوبة واستكمال دورات الكربون والنتروجين أو الأزوت اللازمة لها. فالتربة إذن حيّة ناشطة متحرّكة ليست ميتة، ومع ذلك ينسب إليها القرآنُ الموتَ ليبني على

ذلك قلاعاً وقصوراً من النتائج لا صلة لها بالمقدِّمات، ويغدق وعوداً ليس إلى إنجازها من سبيل.

فالمبنيُّ على الباطل باطل، مهما كانت المرجعيّة التي رفعتِ البناء. هذه قاعدة منطقيّة معروفة، ومن حقِّ المشركين -هذه العقول المتمرّدة الجبّارة التي كال لها القرآن شتّى التهم- أن يرفضوا بكلِّ حرّيّة وإباء ما استعصى على عقولهم قُبولُه، فكان جزاؤهم التقريع والتسفيه والتبكيت وإلصاق شتّى التهم بهم: "ختَمَ الله على قلوبهم وعلى سمْعهم وعلى أبصارهم غشاوةً" (٢ /٧)؛ ولذلك فهم "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فهم لا يَعقلون" (٢ /١٧١).

وقد صدّق المسلمون هذه الآيات وأخذوها مأخذاً حرفيّاً، وبنَوا عليها وعلى آياتٍ أخرى مشابهة، مذاهبَهم في الكسب والجبر والإختيار، وقاموا بمحاولات جدّيّة رصينة للتوفيق بين هذا الشعث وجمع شمله، ولم يخطر لأيٍّ منهم على بال أنّ هذه النعوت لا يراد بها تقرير واقع بنقدار ما يراد بها التعبير عن السخط والغضب على المخالِفين المنكِرين. لعنة الله عليهم أجمعين!!

ولنرجع إلى ما كنّا فيه فنقول: أيُّ فضلٍ لله، لا في إحياء الأرض بعد موتها، بل في إيقاظها من سباتها، وهو إيقاظٌ لستُ أنا ولا أنت أقلّ قدرة عليه منه سبحانه. وأمّا الموت الحقيقي، فلا أنا ولا أنت. كلاّ. ولا هو أيضاً بقادرِين على أن نفعل بإزائه شيئاً!

٧. "إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عندَ الله اثْنَا عَشَرَ شَهراً فِي كتابِ الله يومَ خَلَقَ السموات ِ والأرضَ، مِنها أربَعة ٌ حُرُمٌ. ذلك الدِّينُ القَيِّمُ" (٩ /٣٦).

طوبى لكِ أيّتها الأرض، يا قرارَ العالَمِ ومركزَه وقاعدتَه. إنَّ هموم الله كلّها محصورة فيك، وحساباتِ الكونِ ومواقيتَ الزمان مبنيّةٌ عليك!! فلا زمان إلاّ زمانُك، ولا مكان إلاّ مكانُك، ولا قرار

إلاّ قرارُك!! فالشهور شهورُك، والأعوامُ أعوامك، والدهر كلّه مِن صنع ترابك. ولولا أنّك موضع عنايةِ ربِّك من دون سائر العوالم، ولولا أنّك بمنـزلة القلب من جميع الكوائن، لما جعل إنسانَك خليفتَه. مِن أديمك صنعَه، وعلى مثاله سبحانه خلقه وصوّره. ما أسعد هذا الإنسان، الذي كلأتْه منذ وجوده على هذه الأرض عينُ الرحمن، فلن تغفل عنه لحظةً ولن تنام. فطِبْ نفْساً وقرّ عيناً يا سيِّد الأكوان. أنتَ في حرز حريز وحصن حصين ولو تألّبتْ عليك الدنيا إلى يوم الدين، وكلُّ ما ترى غير ذلك فهو من خداع الحسِّ ونزعاتِ إبليس اللّعين. صدق الله وكذب بطنُ أخيك، فلا تكونَنّ من الممترين!!

٨. "ألله الذي رفعَ السموات بغيرِ عَمَدٍ تَرَونَهَا، ثمَّ استوَى على العرش، وسخَّر الشمسَ والقمرَ. كلٌّ يَجري لأجَلٍ مُسَمًّى. يُدَبِّرُ الأمرَ، يُفَصِّلُ الآياتِ لعلَّكم بِلِقاءِ ربِّكم تُوقِنُونَ" (١٣ /٢).

أتى عليَّ عهدٌ كنتُ أظنّ -أنا وكثيرون غيري- أنَّ السماء هي سقف العالم الأرضي، وفوق هذا السقف ستة أسقف أخرى، طبقاتٍ بعضها فوق بعض. هذا ما تلقّيته في البيت والكتاب والمسجد والشارع وجميعِ مَن كنتُ ألقاهم وأَجتمع بهم من شيوخٍ وشبابٍ وعجائز الحيّ. لقد كان هذا التصوّر الأسطوري للسماء إحدى المسلّمات الدينيّة التي يُوحي بها القرآن والأحاديث وأقوالُ السلف..

وبعد اطّلاعي على علم الفلك الحديث في مجلّة المقتطف أولاً وبعض الكتب النادرة في هذا العلم المنتشرة في بعض المكتبات آنذاك، لم أجدْ أيَّ أثرٍ للتصوّر الطبقي للسماء. وكذلك فعل كثيرون غيري. وهكذا انحسرتِ الأسطورة السابقة، واختفتْ من الدوائر العلميّة، إلاّ الدوائر الدينيّة من إسلاميّة ومسيحيّة وغيرهما

من الديانات التي لا تنفكُّ تعمل على التوفيق بين علم الفلك الحديث والنصوص الدينيّة، وإنْ ظلّ العامَّة يحتفظون بتصوراتهم الأسطورية الأثيرة.

وفيما يتصل بالمسلمين، فإنّ هذه الأساطير تحيي في نفوسهم كلَّ عامٍ قصَّةَ الإسراء والمعراج وانتقالِ النبي من سماءٍ إلى أخرى فوقها، بصحبة جبريل عليه السلام.

فبعد إسرائه إلى بيت المقدس (القدس) على ظهرِ البراق[2]، واجتماعِه بالأنبياء، صلَّى ركعتين، ثمَّ عُرج به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: مَن أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرسِلَ إليه؟ قال: قد أُرسل إليه. ففُتح لهما الباب. فإذا هو بآدم. فرحّب به ودعا له بخير. ثمّ عُرج به إلى السماء الثانية. فاستفتح جبريل، فقيل: مَن أنت؟ فقال: جبريل. فقيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه. ففُتح لهما الباب، فإذا بابنَي الخالة يَحيَى وعيسى. فرحبّا به ودعَوَا له بخير.

وهكذا حتّى بلغا (جبريل ومحمّد) السماءَ السابعة. فوجدَا في استقبالهما في السماء الثالثة يوسف الذي أُعطي شطر الحسن، وفي السماء الرابعة إدريس، وفي السماء الخامسة هرون ثمّ أخاه موسى في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة، وهو مستند إلى البيت المعمور الذي يدخله كلُّ يومٍ سبعون ألف مَلَك لا يعودون!

ثمّ ذهب به جبريل إلى سُدرة المنتهى. فإذا أَوراقُها كآذان الفِيَلَة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحدٌ مِن خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها. فأوحى الله إلى عبده ما أوحى.

2 دابّة ركبها النبيّ ليلة المعراج، تضع حافرها عند منتهى نظرها.

فإذا كانت هذه الصورة الرائعة لا تزال ترتسم في ذهني مع أنّي قد تخلّيت عنها منذ عقود طويلة، فما قولك بالعامّة الذين يتهافتون على سماعها في السابع والعشرين من رجَب الخير من كلِّ عام؟ والغريب في هذه الصورة أنّ الملائكة الموكلين بأبواب السماء لم يسمعوا بقدوم محمد، وكان قد أناف على الأربعين، رغم أن السماء يوم مولده مُلئتْ حَرَساً شديداً وشُهُباً، وضجّتْ بذكره الآفاقُ، كما مرّ معنا في آية سابقة. لقد كانوا جميعاً ينتظرون قدومه منذ زمن طويل. ولكنَّ أخبارَ بعثته، على ما يظهر، ظلّتْ محصورةً بين السماء والأرض، ولم تتجاوزْها إلى السماء الأولى (الدنيا)!!

هذه هي صورة السماء في القرآن مهما حاول المفسِّرون المحدّثون تشذيبها وإعطاءها صورة معقولة مهذّبة تتّفق مع روح العصر. فالسماء في القرآن سبع طبقات "ألمْ تَرَوا كيفَ خلقَ الله سبعَ سمواتٍ طِبَاقاً؟" (٧١ /١٥)؛ والسماء مبنيّة، أو هي بناء "والسماءَ بَنَينَاها بأيدٍ وإنَّا لَمُوسِعُونَ" (٥١ /٤٧) و"الذي جعلَ لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بناءً" (٢ /٢٢)؛ والسماء سقف محفوظ من الشياطين "وجعَلْنا السماءَ سقفاً محفوظاً" (٢١ /٣٢)؛ فمنها تنطلق راجمات الشياطين "وجعلنَاها رُجُوماً للشياطين" (٦٧ / ٥)؛ والسماء تُطوى كما تُطوى الكتب "يومَ نطوي السماءَ كطيِّ السجلِّ للكتب" (٢١ /١٠٤)؛ والسماء تُلمس وتُملأ "وإنَّا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرَساً شديداً وشُهُباً" (٧٢ /٨)؛ والسماء تنشقّ وتتصدّع كأيِّ جسم مادّي مبني أو مصنوع "وانشقَّتِ السماءُ فهي يومئذٍ واهية" (٥٥ /٣٧)؛ والسماء شديدة متماسكة محكَمة الخلق "والسماءِ ذاتِ الحُبُكِ" (٥١ /٧)؛ والسماء مزيَّنة بالمصابيح "وزَيَّنَّا السماء الدنيا بمصابيحَ" (٤١ /١٢)؛ والسماء تُنزَع عن أماكنها كما يُنزَع الجلد عن الشاة "وإذا السماءُ كُشِطَتْ" (٨١ /

١١)؛ وعند نهاية العالم ستتحرّك السماء حركة دورانيّة عنيفة "يوم تمور السماءُ مَوْراً" (٥٢ /٩)؛ "يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ" (١٤ /٤٨)، تمهيداً لبدء خلقٍ جديد "كما بدأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُه وعداً علَينا" (٢١ /١٠٤).

والسماء لها أبواب تُفتح وتُغلق عند الحاجة، "وفُتِحَتِ السماءُ فكانتْ أبواباً" (٧٨ /١٩)؛ والسماء -كأيِّ بناء- تقوم على أعمدة، ولكن هذه الأعمدة غير مرئية "الله الذي رَفع السموات بغيرِ عَمَدٍ تَرونها" (١٣ /٢)؛ أو هي تقوم في الفضاء بقدرة الله بلا أعمدة، وهذا ما ترونه بأمِّ أعينكم ؛ والسموات أجسام صلبة شديدة عددها سبعة "وبنينا فوقكم سبعاً شداداً" (٧٨ /١٢)؛ وهي طبقات بعضُها فوق بعض في غاية الحسن والإلتئام "الذي خلقَ سبعَ سمواتٍ طِبَاقاً ما تَرَى في خَلْقِ الرحمنِ مِن تفاوُتٍ، فَارْجِعِ البَصَرَ هل تَرَى مِن فُطُورٍ؟" (٦٧ /٣).

هذه باختصار صورة السماء في القرآن، فأينَ هذه الصورة من تلك التي يقدِّمها لنا علم الفلك الحديث؟ الأُولى صورة أسطوريّة قديمة من صنع الخيال الديني الشعبي والإلهامات الروحية الصوفيّة، والثانية صورةٌ علميّة حديثة من صنع المراصد الفلكيّة والسوابر الفضائية والأقمار الصناعية والمَرْكَبات التي تعمل بالدفع الذاتي. ومع ذلك يريد مفسِّرونا الجدد الفطاحل التوفيق بين الصورتَين لقراءة الصورة القديمة قراءة حديثة، والعثور فيها على جميع الإنجازات والمكاسب التي حققها علم الفلك في مراحله الأخيرة.

٩. فنظرية النسبيّة موجودة في القرآن، والنظريّة الذَّرِّيَّة قد سبق إليها القرآن، ونظرية الكم مأخوذة من القرآن، ولا أدري ما إذا كانت الثقوب السوداء قد أشار إليها القرآن. أين سماء القرآن من

كل هذا؟ ليس في علم الفلك الحديث سقف وأبواب وطي ونشر، وكشط وطبقات وأعمدة، ولا أثر فيها للعدد المقدس: سبعة.

١٠. ولعل من أطرف "تقليعاتهم"، أن نظرية تمدُّد الكون قد اكتشفها المفسِّرون الجدد في القرآن. ويستدلّون على ذلك بقوله تعالى: "والسماءَ بنَبناها بأيدٍ وإنّا لموسِعون" (٥١ /٤٧). وكم طبّلوا وزمّروا لهذه الآية التي هي الدليل القاطع على إعجاز القرآن! لقد كان من الممكن قراءة هذه الآية قراءة "إعجازية" لو أنّ القرآن فيه أجواء علميّة إيجابية تشجّع على قبول هذا "السبَق العلمي" لو كانت صورة السماء في القرآن فيها ما يشفع لتكوين صورة فلكيّة علميّة متحركة مشرقة مفتوحة لا نهائيّة، أي لو لم تكن صورة جامدة أسطوريّة معتمة ساكنة سكون الأموات.

أمّا وإنّ الأمر فيها على ما رأينا، فلا يمكنني أن أقرأ هذه الآية إلاّ كما قرأها القدماء في أجوائهم الدينيّة المغلقة التي تعبق بالأسطورة والغيب والتصوف. ولذلك لم يخرجوها عن معناها اللغوي، فقالوا "إنَّا لَمُوسِعُونَ" أي: لقادرون. يُقال: أوسع الرجل، أي صار ذا سعة وقدرة وقوّة. فلما كانت السماء بناء طبقياً فنحن (أي الله) قادرون على أن نزيد لبنةً من هنا وركناً من هنا وغرفة من هنا. هذا كل ما تؤدّيه الآية بلغة ذلك الزمان، وإنْ أضاف بعضُهم إلى هذه الصورة صوراً أسطوريّة أخرى وتفنّنوا فيها، ونسبوها كعادتهم إلى الملائكة المختصّين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

١١. ثمّ ما معنى حصر السماوات في العدد (٧) سوى قدسية هذا العدد في الميثولوجيات القديمة؟ فأنّى اتّجهت في هذا الكون فلن تجد أثراً لهذا العدد إلاّ في عقول المنجِّمين والسحرة والصوفيّة وعجائز الحيِّ وأهلِ العرفان ومَن إليهم ممّن يعملون في

علوم الأسرار. كيف يأتلف هذا العدد مع الأعداد الفلكية الخيالية للكواكب والنجوم والأنظمة النجومية والمجرّات والسدم والغبار الكوني؟

أين العدد (٧) في هذا الكمّ الهائل؟ أين السموات السبع والأرضون السبع؟ ثمّ ما معنى السماء الدنيا والمصابيح التي تتدلّى منها؟ هل هي هذا العدد البسيط من النجوم التي تراها العينُ العارية؟ بل قبل ذلك، هل السماء الدنيا -وبتعبير أدقّ ما يسميه القرآن كذلك-، هل هي عالم واحد متجانّس موحّد؟ هل هي مجرّد مجرّة واحدة تسمّى "درب التبّان" التي تتألّف من ملايين النجوم تزرع قبة السماء، أم وراء هذه المجرّة مجرّات أخرى ومجرّات، تُعَدُّ بالملايين، وتتألّف كلٌّ منها هي أيضاً من ملايين النجوم؟

فمِن السذاجة بمكان أن يُطلق على هذا الخليط المتلاطم المتفجّر، على هذه العوالم التي لا يصفها لسان، ولا يحيط بها بيان، ولا يحصيها عدد مهما كبر واستطال، أقول من السذاجة أن يطلق على هذا كلّه اسم (السماء الدنيا) التي حصرها القرآن في مثل هاتين الآيتين: "تباركَ الذي جَعل في السماء بُروجاً وجعلَ فيها سِراجاً وقمراً منيراً" (٢٥ /٥٩)، ووشّاها ببعض النجوم لنهتدي بها ليلاً "وهو الذي جعلَ لكم النجومَ لتَهتدوا بها في ظلماتِ البرِّ والبحرِ، قد فصّلنا الآيات لقومٍ يَعلمون" (٦ /٩٧).

١٢. ويَسْأَلونَكَ عن ذي القَرْنَينِ! قُلْ: سَأَتْلُو عليكُمْ منهُ ذِكْراً... حتّى إذا بلغَ مَغْرِبَ الشّمسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ... حتّى إذا بَلَغَ بينَ السَّدَّيْنِ، وَجَدَ مِنْ دُونِهما قَوماً، لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَولاً. قالوا: يا ذا القَرْنَينِ! إنّ يأجُوجَ ومأجُوجَ مُفْسِدونَ في الأرضِ. فهلْ نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً على أنْ تَجْعَلَ بينَنا وبينَهمْ سَدّاً؟ قالَ: ما مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيرٌ فَأَعِينُوني بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بينَكمْ وبينَهمْ

رَدْماً، آتوني زُبَرَ الحَديدِ، حتّى إذا ساوى بينَ الصَّدَفَينِ قال: انْفُخُوا حتّى إذا جَعَلَهُ ناراً قالَ: آتوني أُفْرِغْ عليه قِطْراً. فما اسْطاعُوا أنْ يَظْهَرُوه ُ وما اسْتطاعُوا له ُ نَقْباً... فإذا جاءَ وَعْد ُ رَبّي جَعَلَهُ دَكًّا" (١٨ /٨٣-٩٨).

لا نزال هنا ندور في علم الفلك الأسطوري الضيق القديم الذي لا يصعب على السائح فيه أن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها. فهي تغرب في عين ذات حمأة وهي الطين الأسود. ثمّ تغيب في علم الله حتى تطلع من المشرق في الطرف الآخر من الأرض. لقد بلغ (ذو القرنين؟) المشرق والمغرب كأنما يوجد حقاً نقطة ثابتة في الكون هي المغرب وأخرى هي المشرق. وفي أثناء رجوعه مرّ ذو القرنين على منطقة مجهولة. ومع هذا فقد استعمل القرآن (أل) التعريف للحديث عنها. وهذه المنطقة كانت تعاني الكثير من أذى ياجوج ومأجوج؟ لذلك ناشده أهلها أن يجعل بينهم وبين هؤلاء سدّاً منيعاً يدفع عنهم شرورهم. ففعل وما استطاع يأجوج ومأجوج أن يُظهروه، أي أن يعلوا ظهره لشدة ارتفاعه. كلاّ. ولا أن يخرقوه لصلابته وسُمكه، وذلك إلى يوم القيامة!

وقد حار المفسّرون في أمر هذا السدّ، وذهبوا في مجاهل الأسطورة كلَّ مذهب. ومع أنّه لا يوجد مكان أو موقع على الأقل فوق كوكب الأرض لم يُكتشف بعد، فإن شعار "صدق الله وكذب بطن أخيك" لا يزال رائدهم هنا. وسيكشفه الله ويجعله دكّاً في آخر الزمان.

فذو القرنين حقّ، والعين الحمئة في المغرب حقّ، ويأجوج ومأجوج حقّ، والسدّ حقّ. كل ذلك حقّ في حقّ. فلا تُمارِ في الحقّ. فالحقّ أحقّ أن يُتبع. فمن أوْلى باتباع الحقّ من أمّة محمد التي كرّمها الله بدين الحقّ؟

ففي هذه الآيات أكثر من أسطورة أضفى عليها القرآن الصفة التاريخية (يأجوج ومأجوج وذو القرنين، بل إنّ تسميته بذي القرنين لا تخلو هي أيضاً من الطابع الأسطوري) والصفة الجغرافية (سد يأجوج ومأجوج). كما فيها أيضاً أكثر من مخالفة للحقائق العلميّة (الوصول إلى نقطة شروق الشمس وغروبها)، كلّ ذلك في زمن انعدمتْ فيه المواصلات والاتّصالات السريعة. هذا فضلاً عمّا في هذه الشخصيّات والمواقع والأحداث من غموض، حجبتْه الأسطورة في عصر الأسطورة، واسبغت عليه درجة عالية من الوضوح لا يستحقّها. فالأسطورة في القرآن هي العلم ما دام قد نزل بها القرآن!!

ما أضيَقَه من كونٍ هذا الذي يصوّره القرآن! ما أصغر السماء إذا كانت مقصورةً على سماء القرآن! ولا سيّما إذا كانت الشمس والقمر والنجوم مقصورةً على السماء الدنيا المضاءة بالمصابيح! وأمّا السموات الأخرى فغير مضاءة! فما حاجة الملائكة -سكّان الملأ الأعلى- إلى النور، وهي مخلوقة من نور؟! كما أنّ الله هو نفسه نور، بل نور الأنوار! "الله نور السموات والأرض" (٢٤ /٣٥). ويظهر أنّه بهذا النور يستضيء الأنبياء الذين لقيهم النبي في أثناء عروجه إلى السماء، وهو ينتقل من سماء إلى أخرى، بصحبة جبريل، ليحظى بلقاء ربه، ويتلقّى وحيه "ثمَّ دَنا فَتَدَلَّى، فكانَ قابَ قوسَينِ أو أدْنَى. فَأوحَى إلى عبدِهِ مَا أوحَى، مَا كَذَبَ الفؤادُ ما رَأى، أَفَتُمَارُونَهُ علَى مَا يَرَى؟" (٥٣ /٨-١٢).

تجاهلُ قوانين الطبيعة، القفزُ على السنن الكونية، تعليقُ كلِّ شيءٍ بإرادة الله المطلقة: هذا هو دأب القرآن.

***

وأخيراً نقول:

إنّ أصحاب الفتاوى في حيرة من أمرهم في هذه الأيّام. فرغم أن عصر الفضاء لا يعنيهم في قليلٍ أو كثير، لأنّ جميع ما وصل إليه الكفّار من اكتشافاتٍ إنّما هو رجْس من عمل الشيطان، ورغم شكوكهم الكبيرة في صحّتها لأنّها لم تتحدّثْ يوماً عن الجنِّ الذين يسترقون السمْع، كلاّ. ولا عن الشهب التي يُرسلها الله رجوماً للشياطين، فقد ترامتْ إلى أسماعهم أخبارٌ -ألعهدة فيها على الراوي- مؤدّاها أنَّ القمر كرة شبيهة بالأرض يسعى روّاد الفضاء إلى إعدادها لسكنى البشر.

فإذا صحّت هذه الأخبار، فإن المُفْتِين والفقهاء منشغلون هذه الأيّام بمواجهة المشاكل الدينيّة التي ستطرأ حين تكتظّ المدينة القمريّة بالسكّان الذين سيكون من بينهم مسلمون يجب عليهم شرعاً أداء الفرائض الدينيّة من صلاة وصيام وحجّ.

إنّ السؤال الذي يُحيِّر علماءنا الأجلاّء هو: كيف سيُتاح لهؤلاء المسلمين القمريّين تحديد بداية شهر رمضان المبارك وهم على سطح القمر، بينما هلاله هو الأساس في تحديد تلك البداية؟

فإذا ما وَجد أصحاب الفضيلة حلاًّ لهذه المشكلة بالقول إنّ الأرض ستكون عندئذ بمثابة الهلال الذي يجب التماس رؤيته في آخر يوم من شعبان القمري، برزت مشكلة أخرى وهي مشكلة حجّ البيت لمن استطاع إليه سبيلا. فهل يعودون إلى الأرض لتأدية هذه الفريضة، والله لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها[3]؟

وكيف نحلّ مشكلة القبلة، ولا كعبة على القمر فيه يتّجه إليها المسلمون القمريّون في أوقات الصلاة؟ فإذا احتجّ بعضهم بقوله تعالى: "هو اجتبَاكم، فمَا جعلَ عليكُم في الدِّينِ مِن حَرَج" (٢٢ /

---

3 رَ: ٢ /٦٢٨٦/ ١٥٢؛ ٧ /٤٢؛ ٢٣ /٦١؛ ٦٥ /٧.

٧٨)، وبقوله: "ولله المشرقُ والمغربُ، فأينمَا تولَّوا فثَمَّ وجهُ الله" (٢ /١١٥)، برزت مشكلةٌ أخرى أدهى وأمرّ، وهي مشكلة الحجّ.

ففضلاً عن أنّ الحج مرتبطٌ بالأهلّة، ولا أهلّة على وجه القمر، فكيف يكون الطواف، ولا كعبة يطاف حولها؟

وكيف يكون السعي بين الصفا والمروة، ولا جبال على سطح القمر تشبه الصفا والمروة؟

وأين تُرمى الجمرات؟ وهل تصيبُ اللَّعينَ إبليسَ وهو على الأرض؟ وهل نسيتم الحجرَ الأسود والتبرّك بلمْسِه وتقبيله؟ والزيارة في المدينة المنورة؟

لكنَّ المشكلة الأهم، التي تقضّ مضاجع فقهائنا ومُفْتِينا، هي مشكلة مصير المسلمين الذي يموتون على سطح القمر، ويُقبرون في قبور القمر. فالله في القرآن يتحدّث عن بعثِ مَن في قبورِ الأرض، لا عمّن في قبور القمر. فماذا سيحلّ بهؤلاء المساكين؟ هل سيُحرَمون من نعيم الجنّة وحورِها العِين وولدانها المخلَّدِين؟ مَن سيذكرهم ويُعيدهم إلى الأرض والقيامة قائمة حيث "لكلِّ امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنِيه"؟ (٨٠ /٣٧).

قاتلَ الله علماء الفلك الغربيّين. لقد أوقعوا علماءَنا الأجلاّء في مشاكل ومعضلات ما كان أغنانا عنها؟ ألفتنة نائمة. لعن الله مَن أيقظها. فإذا كانت الحياة على سطح القمر في مصلحة الذين لا يؤمنون ببعثٍ ولا نشور، فإنّه ليس أبداً في مصلحة المؤمنين المسلمين. لذلك فإنّ فقهاءنا لا يُفتُون بالذهاب إلى القمر والإقامة عليه. بل إنّهم يُحرِّمون على المسلمين حتّى مجرّد الذهاب إلى القمر على سبيل السياحة.

فمن يضمن رجوعَهم والأعمارُ بيد الله؟! بل قد يموتون في

أثناء الطريق بين الأرض والقمر، فتتفتّت أجسامُهم وتتبدّد وتختلط بالغبار الكوني، فلا يُعرف لهم أصلٌ ولا هويّة، هذا إذا صدرتْ أوامر إلهيّة صارمة بتجهيز حملة فنيّة من الملائكة المختصّين للبحث عن المسلمين المفقودين في أقطار السموات والأرض. ما كان أغناهم عن هذه الرحلة المشؤومة!! لقد خسروا أنفسهم، وخسروا "الدنيا والآخرة. ذلك هو الخسران المبين" (٢٢ /١١)!!

وهكذا وقع القرآن في أخطاء علميّة كثيرة، كانت حقائق في عصرهم فتلقّفها القرآن كما هي، وأدخلها في محكم آياته، ثمّ جاء العلم الحديث وأظهر فسادَها. ولو اكتشفوا أمرها في عصرهم لما ضنّوا عليها بتأويلاتهم. وهذه الأخطاء هي اليوم من الوضوح بحيث إنّ "علماءنا" لا يجرؤون على مواجهتها.

ويتعلّق "علماؤنا" بآياتٍ أخرى تبدو لهم أنّها تشير إلى مكتشفاتٍ علميّة حديثة، مثل: إنّ الله "يُكوّرُ الليلَ على النهار ويُكوّرُ النهارَ على الليل" (٧٣ /٣٩)، فزعموا أنّ هذه إشارة إلى كرويّة الأرض؛ ومثل: "والسماء بنيناها بإيدٍ وإنّا لموسِعون" (٥١ /٤٧)، فزعموا أنّ هذه الآية إنما تشير إلى نظريّة توسّع الكون، فطنطنوا بها الدنيا، ولا يزالون يطنطنون ويطنطنون، وجميع الدلائل تدلّ على أنّهم جاهلون أو مماحكون أو دجّالون!!

وهكذا، فما لم يكن في القرآن بليغاً "بلّغوه"، وما لم يكن فصيحاً "فصّحوه"، وما لم يكن منطقيًّا "منطقوه"، وما لا يدخل في العقل أدخلوه، وما وجدوا فيه من تناقض رفعوه، أو خطأ صحّحوه، أو نشاز سطّحوه، بل وما ليس له معنى أعطَوه ألفَ معنى وأنقذوه. وهكذا فإنّ بلاغة القرآن هي في جزء كبير منها بلاغتهم، وإعجازه إعجازهم، ومنطقه منطقهم، وعقلانيّته هي عقلانيّتهم.

يروي أستاذنا الراحل د. زكي نجيب محمود عن القدّيس توما الأكويني -فيلسوف المسيحيّة الأوّل في أوروبّا إبان عصورها الوسطى- أنّه كان في الدير راهباً مع سائر زملائه الرهبان. لقد كان توما هذا رجلاً بسيطاً ساذجاً حتّى لكأنه أبله. فوقف زملاؤه بجوار النافذة وناداه أحدُهم وهو يتصنّع الدهشة، تعالَ يا توما وانظرْ إلى السماء لترى هذه الأبقار الطائرة في الجوّ! فأسرع نحوهم توما لينظر، فانفجر زملاؤه في الضحك ساخرين متهكّمين. وهنا التفتَ إليهم توما وقد اعتراه الجدّ وقال: ممن تَسخرون؟ لقد كان الأهون عليّ أن أتصوّر أبقاراً تطيرُ في جوّ السماء مِن أن أتصوّر رهباناً يكذبون[4]!

وهكذا كان مفسّرو القرآن. فقد كان من الأسهل عليهم أن يتصوّروا الأكوان والأشياء والأحداث تخطئ من أن يتصوروا القرآن يخطئ. ولقد قال لي أحد "الأذكياء"المؤمنين: القرآن ليس كتابَ علم، فلماذا تُحمِّله ما لا يحتمل؟ فقلت له: هذا صحيح، وصحيح أيضاً أنّه لا يجوز أن يخطيء في ما ليس له به علم. فإمّا أن ينطق بالصواب فيما هو علم أو غير علم، أو أن يصمت! ثمّ لماذا تحتجّون بالقرآن عندما تكون أقواله مطابقة للعلم، فإذا أخطأ تنفون عن القرآن أن يكون كتاب علم؟ ما هذا إلا غاية السفسطة!

وهذا يذكّرني بحديث العسل: فقد جاء رجل يشكو إلى "النبي" مرَضاً يعاني منه أخوه في بطنه. فأمرَه أن يسقي أخاه عسلاً، وذلك عقب "نزول" آية العسل بوقت قصير عندما كانت لا تزال طريّة في الذاكرة : "يَخرُجُ مِن بطونِها شرابٌ مختلِفٌ ألوانُه فيهِ شِفاءٌ للناس" (١٦ /٦٩). فذهب الرجل وسقى أخاه عسلاً فاشتدّ مرضُه. فرجع إلى "النبي" وذكر له ذلك، فقال له للمرّة الثانية:

---

4 في فلسفة النقد، ص ١٣٥.

إسقه عسلاً. فرجع وسقى أخاه عسلاً. فتفاقم مرضُ أخيه. ثمّ عاد إلى "النبي" للمرّة الثالثة يكرِّر شكواه. ويبدو أنّ "النبي" ضاق به وبأخيه فقال له للمرة الثالثة والأخيرة: إسقه عسلاً، صدقَ الله وكذبَ بطنُ أخيك"! وعلى هذا سار المفسِّرون: تكذيب الأحداث وتصديق القرآن. ألا مَنْ عُدم العقل فليقل ما يشاء.

حادي عشر

كلّ ما في القرآن هو من عند الله

لا قوانين طبيعية في القرآن، إرادة الله هي القانون. كلاّ. ولا سنن كونيّة. فالسنن إنما هي سنن الله لا سنن الكون. فالله في القرآن لا يعترف بسنن الكون. وينتج عن هذا أن الحياة والموت، والنجاح والفشل، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة... لا ترجع إلى جهود الإنسان، وإنما ترجع إلى الله الذي خلق الإنسان.

ومعنى هذا أن الحسنات والسيِّئات والطاعات والمعاصي، والعمل الصالح أو الطالح... هي البديل القرآني لما يسمّى بالقانون الطبيعي. فحسب الله أن يرضى عن الإنسان أو أن يغضب عليه حتّى تدور عجلة الأحداث له أو عليه، بصرف النظر عن أي قانونٍ طبيعي.

فالله هو الشافي لا الطبيب، والله هو الممرِّض لا الميكروب.. وهو المُعِزُّ وهو المُذِلّ، وهو المنجِّي وهو المُهلك، وهو المُحيي وهو المُميت، بيده الخير والشرّ، وهو على كلِّ شيء قدير:

"ألمْ يرَوا كمْ أهلكْنا منْ قبْلِهمْ منْ قرْنٍ مَكَّنّاهُم في الأرضِ ما لم نمَكِّنْ لكم، وأرسلْنا السماءَ عليهم مِدْرَاراً، وجعلْنا الأنهارَ تَجري منْ تحتِهم، فأهلَكْناهم بذُنُوبهم وأنشأْنا منْ بعْدِهم قرْناً آخَرينَ" (سورة الأنعام ٦ /٦).

ليست الأسفار ولا الحروب هي السبب في موت الإنسان: "يا أيُّها الذين آمَنوا لا تكونوا كالذين كَفروا وقالوا لإخوانِهم إذا ضَرَبوا في الأرض، أو كَانوا غُزًّى: لو كانوا عندَنا مَا مَاتوا ومَا

قُتِلوا، لِيَجعَلَ الله ذلكَ حَسْرَةً في قلوبهم. والله يُحيي ويُمِيت" (٣ / ١٥٦).

ألهلاك والإهلاك سببه الفساد في الأرض، لا أي شيء آخر: "ومَا كان ربُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصلِحونَ" (١١ /١١٧). هل هذا صحيح؟ هل يقول هذا الكلام عاقل؟ فإنّه لا يوجد بلد في العالم يخلو من المفسِدين ومن المصلِحين، أفيُهلك هؤلاء بما فعل أولئك؟ ألعواملُ الطبيعيّة لا تفرّق بين مُصلِح ومفسِد، فهل الله كذلك؟ الأخلاق والقِيم والطاعة والمعصية لا دخل لها في حركة الأحداث، ولكن القرآن يريد إقحامها بالقوّة في هذه الأحداث!

"أَفَأَمِنَ الذينَ مَكَرُوا السيِّئاتِ أن يَخْسِفَ الله بهم الأرضَ، أو يَأتِيَهُمُ العَذابُ من حيثُ لا يَشعُرون" (١٦ /٤٥).

ما أكثر هذه التهديدات التي تُطلِقُ الكلامَ على عواهنه في لغة القرآن وفي كلِّ صفحة من صفحات القرآن، يراد بها الإيحاء بأنَّ الله -لا القوانين الطبيعية- هو المتصرِّف في هذا العالم، وهو وحده الفاعل المطلق فيه "وهو القاهر فوق عباده" (٦ /١٨ و٦١).

ولا أدلّ على عدم جدّية هذه التهديدات من أنَّ مَا يُهَدَّد به قد يحدث وقد لا يحدث، وفي كلا الحالين فهو خاضع للعشوائيّة: "وإذْ أخذْنا ميثاقَكم ورفعْنا فوقَكُمُ الطورَ. خُذوا ما آتيناكم بقوّة... ثمَّ تولَّيتم من بعد ذلك. فلولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه لكنتم مِن الخاسرين" (٢ /٦٣-٦٤). لقد هدّد سبحانه، ثمّ تراجع عن التهديد. لماذا لم ينفِّذ تهديدَه؟ لإظهار منَّة مصطنعة: فضل الله عليهم. هل يستحقّون هذا الفضل وقد لعنهم وجعل منهم القردة والخنازير؟

دلّني على زلزال أو مرضٍ أو وَباء أصاب المفسِدين وحدهم، بل كثيراً ما حصد المصلِحين قبل المفسِدين، ولا سيّما في

الجنوب الذي يعجّ بالمرضى والمشوَّهين والأطفال-الأشباح الذين غارت عيونُهم والتصقتْ جلودهم بعظامهم ممّا لا تجده في الشمال المتجبِّر المتكبِّر. تُرى هل هؤلاء المقهورون هم المقصودون بالتهديد الإلهي ليزيدَهم قهراً إلى قهر؟!

الجوع والخوف لهما أسبابهما الطبيعيّة وقوانينهما التي لا تتخلّف. ولكن يأبى القرآن -كدأبه دائماً- إلاّ أن يتنكّرَ لهذه القوانين ويدوسَها بقدمَيه ليستبدلَ بها قوانين الكفر والإيمان، ويربطَها بها، وهي قوانين عشوائيّة غير مطّردة وغير ثابتة، ومن هنا يفقد التهديدُ الإلهي جدِّيَّتَه ومعناه ويغرق في مغالطات لا سند لها.

قد يقال إنّ القرآن ليس كتاباً علميًّا، بل هو كتاب دين وإرشاد، يحرص أوّلاً، وقبل كلّ شيء، على استنهاض الهمّة وتحريك الوجدان والاعتبار بالماضين. وهذا صحيح طالما أهاب به المفسِّرون وعلماء الكلام كلّما اصطدموا بعقبة من هذا القبيل. ولكن العقبة هي العقبة. ولولا أنّ العقبة فيها مخالفة للوقائع المحسوسة لما كانت عقبة. إنّ شرط العبرة ألاّ تكون على حساب الحقيقة. ألعِبَرُ يجب أن تكون مبنيّةً على حقائق، وإلاّ كانت لغواً لا قيمة لها. كثيرة هي العبر التي لا تتعارض مع الحقائق، وكثيرة أيضاً تلك التي تتعارض معها. فهل خفي ذلك على القرآن؟ فما بُني على الباطل فهو باطل ولو جاء به ألفُ قرآن وقرآن!

"وضرب الله مثلاً قريةً كانتْ آمِنةً مطمئنّةً يَأتيها رِزقُها رَغَداً من كلِّ مكان، فَكَفَرَتْ بأَنْعُمِ الله، فَأذاقَها الله لِباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يَصنَعون" (١٦ /١١٢).

الإيمان والكفر هما سبب نجاة البشر في الدنيا وسبب هلاكهم، وليس سببهما ما يتعاطونه من الوسائل الطبيعيّة: "اقتربَ للناسِ حِسابُهُم وهم في غَفلةٍ مُعرضون... مَا آمنتْ قبلَهُم مِن قريةٍ

أهلكْناها، أفَهُم يُؤمنون؟.. ثمّ صَدَقْناهُمُ الوعدَ فَأنْجَينَاهم ومَن نَشاءُ، وأهْلَكْنا المُسْرِفين" (٢١ /١-٩).

خسوف الأرض سببه شرور البشر لا العوامل الجيولوجيّة، بل إنّ الله في القرآن لا يطيق حتّى مجرد سماع ذكر الأسباب الطبيعيّة.

أُنظروا إلى ما حل بالثَّريِّ العظيم قارون، لا لشيءٍ إلاّ لأنّه تجرّأ وقال عن ماله إنما جَمَعه لعلمِه بأصولِ الكسْب. هذه هي جريمته: "إنّ قارونَ كان من قومِ موسى فبَغى عليهم. وآتَينَاه مِنَ الكنوزِ ما إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصبَة أُولِي القوّة. إذ قال له قومُه: لا تفرَحْ، إنّ الله لا يُحِبُّ الفَرِحِين... وَأَحْسِنْ كمَا أَحْسَنَ الله إليكَ، ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ... قال: إنما أُوتِيتُه على علمٍ عندِي[1]... فَخَسفْنا به وبِدارِه الأرضَ. فمَا كانَ له مِن فئةٍ يَنصرونَه مِن دونِ الله. ومَا كان مِنَ المنتَصِرين" (٢٨ /٧٦-٨١).

لقد خسف الله الأرضَ هنا بشخصٍ واحدٍ فقط، لأنّه على ما يبدو كان هو الوحيد المستوجِب للعقوبة، لا سيّما بعد قوله إنّه أُوتي ما أُوتي على علم منه. وهذه جرأة على الله لا يرضاها لنفسه مع أنّ أمراء المال اليوم في أمريكا أغنى من قارون، وأكثر جرأةً، وأعتى وأشدُّ شكيمةً، فلم يخسفْ بهم الأرض ؛ بل زادهم تجبّراً واستكباراً.

وفي ما يلي سيخسفُ الله الأرض ليطيحَ بشعبٍ بكامله لأنّه كذّبَ رسولَه، بلا أي اعتبار للعوامل الطبيعيّة الخاصة بجيولوجيّة الأرض. فبعد أن أهلكَ قومَ لوط برجْزٍ من السماء، بما كانوا يَفسقون أرسل بشُعَيب إلى مَدْيَن: "وإلى مَدْيَنَ أخاهمْ شُعَيباً، فقال يا قومِ اعبُدوا الله وارْجُوا اليومَ الآخِرَ، ولا تَعْثَوا في الأرضِ مُفسِدين.

1 أي جمعت هذا المال بسعيي وعرق جبيني وسيري على مقتضى معرفتي بوجوه الكسب وأبوابه.

فكذَّبُوه، فأخذتْهُمُ الرَّجفةُ، فأصبَحوا في ديارهم جاثِمِينَ" (٢٩ / ٣٦-٣٧).

والسدود محمية بتقوى الله ما يمسكها إلاّ الرحمن. فإذا جاء وعد ربّي جعلها دكًّا بلا أيِّ اعتبار لقوانين الهندسة وطبيعة الأرض التي تقوم عليها هذه السدود. وفي ذلك عبرة للسكّان الذين يقطنون على مقربةٍ من السدود، وإلاّ فلا يلومُنَّ إلاّ أنفسهم، وقد أعذر من أنذر! وأحدُ هذه السدود سدُّ مأرب باليمن: "لقد كان لِسَبأٍ في مَسكِنِهم آيةٌ: جنَّتانِ عن يمينٍ وشِمالٍ. كُلُوا مِن رِزقِ ربِّكُمْ واشكُروا له. بلدةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غفورٌ. فَأَعْرَضُوا، فأرسَلْنا عليهم سيلَ العَرِمِ... ذلك جَزَيناهم بما كَفَروا، وهل نُجزِي إلاّ الكَفُور؟" (٣٤ /١٥-١٦).

***

والآن دونكم هذا الإنذار الذي لم يُنفَّذ ولن يُنفَّذ. فتهاويل القرآن وتهديداته لن تنتهي. هذا الإنذار موجّه إلى الناس جميعاً لا إلى فئة دون أخرى أو شعب دون شعب. لقد بلغ السيل الزُّبى: "يا أيُّها الناس! أنتم الفقراءُ إلى الله، والله هو الغنيُّ الحميدُ. إنْ يَشأْ يُذهِبْكُمْ وَيَأتِ بِخَلقٍ جَديد. ومَا ذلك على الله بِعَزيزٍ" (٣٥ / ١٥-١٧).

إنّ هذا التحقير للإنسان والإلحاح على تفاهته في هذا الكون سمةٌ بارزة في القرآن. وإذا صحّ أنَ الإنسان فقيرٌ إلى الله حقاً محتاج إليه، فما باله سبحانه يختارُه وحدَه من دون سائر العالمين ليكون خليفتَه على الأرض ويكلُ إليه مهمّاتٍ لا ينهض بها غيرُه؟ ما باله يندّد به وبعصيانه له وتمرّده عليه، والتمرّد والعصيان من إمارات القوّة والجبروت؟ إنّه لا يتمرّد عليه إلاّ لشعوره بعدم الحاجة إليه: "ولقد صَرَّفْنا للناسِ في هذا القرآن مِن كلِّ مَثَلٍ، فأبى

أكثرُ الناس إلاّ كُفُوراً" (١٧ /٨٩). ومِن دأب هذا الإنسان الخصومة: خلقَ الإنسانَ "مِن نُطفَةٍ فإذا هوَ خَصِيمٌ مُبينٌ" (٣٦ / ٧٧)، ومن شأنه الإعراض عمّن أحسن إليه وأنعم عليه: "وإذا أنعَمْنا على الإنسان أعرضَ ونأى بجانبِهِ" (١٧ /٨٣).

فالإباء والخصومة والإعراض والرفض والكفور والبصر في الأمور كلّ أولئك وليد الغنى لا الفقر. إنّ أكثر الناس لا يخفون افتقارهم إلى الله، بل يؤكّدونه صباح مساء. غير أنّ ذلك لا يَعني شيئاً. وإذا كان له من معنىً فهو خضوعهم للأوهام ودليل على مبلغ سيطرة الأوهام عليهم، كيف لا وهذا لعمري هو الوهم الكبير، بل ماذا أقول: أكبر الأوهام!!

ثمّ إذا كان الإنسان فقيراً إلى الله حقاً، فما باله سبحانَه يتخلّى عنه في الشدائد، ويتركُه لمصيره يُعاني جميع أنواع الحرمان حتّى يموتَ جوعاً، كما تموت الفئران والكلاب والخنازير؟ أين قوله تعالى: "أَمَّنْ يُجيبُ المُضْطَرَّ إذا دعاه ويَكشِفُ السوءَ؟" (٢٧ / ٦٢). فعن أيِّ إجابة يتحدّث هنا؟ ولمن كشفَ السوء؟ ومتى؟ هل كشف السوء مرَّة عن امرأةٍ يتلوَّى طفلُها من الجوع فيسقط ميتاً بين يديها وهي لا تستطيع حيالَه شيئاً؟ وهي مشاهد تتكرّر يوميّاً على شاشات التلفزيون ويراها الناس جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها؟

أين قوله سبحانه أيضاً: "ومَا مِن دابَّةٍ إلاّ على الله رزقُها" (١١ /٦)!? إنّ الدوابَّ يأكلُ بعضُها بعضاً وليس الله هو الذي يُطعمها. فالحيوان الذي لا يستطيع انتزاع رزقِه بالقوّة والعنف، بل وبالعدوان، يموت جوعاً رغم التزام الله برزقه. فلا الله ولا خمسون إلهاً معه بقادر على أن يُنقذ دابّةً يهدّدها الجوع والعطش بالموت. هذا إذا شعر بها أو شعر بوجودها. أم حسبتم أنه

يدير شركة مطاعم "مساهمة" في السماء للإغاثة والنجدة وأعمال البر والإحسان؟!

وعد ووعيد، وطنطنة وتهويل، ومبالغات وبطولات وعنتريات فارغة لا تصمد للنقد... هذا هو القرآن "إنْ يشأْ يُذهبْكم ويأتِ بخلقٍ جديد". هكذا بكلّ بساطة؛ ولكن "لو" إنه لم يشأ ولن يشاء، وما أكثر "لو" في القرآن. دعوكم من تهويلات القرآن.

إنّ دارس القرآن الذي يقرؤه قراءةَ نظرٍ وتحقيقٍ وسبرٍ للأغوار دقيق -لا قراءة تعبدٍ بَبَّغَائيّة لا ينتج عنها سوى صناعة الرقيق- يرى بسهولة أن هذا القرآن ظاهرةٌ صوتيّة فذّة، لا مثيل لها إلاّ عند عباقرة الخطباء الديماغوجيِّين، وإن كان ذلك لا ينفي عنه اكتنازَه بأسمى الدلالات والمعاني.

إنّ هذا الدارس -بتركيزه على الآيات التي وصفناها بأنها من "الروائع"- لن يفوتَه أنْ يلاحظ مدى الجهد الخارق الذي بذله القرآن في اختيار ألفاظه، وتزويدها بجميع أدوات الجمال والجلال والروعة والإيقاع. وسيبهره هذا النقاء الموسيقي الذي يمسُّ شغاف القلب، وهذه الطلاقة الآسرة التي تجد في فضاء الآيات مراحاً لها.

ولكنَّ هذا الدارس نفسَه سيحسُّ بصدمةٍ قويّة، قد تبلغ درجة الصعق أمام بعض الآيات الأخرى التي تهبط من هذه العلياء لتسفّ وتفقأ العين في نُبُوِّها وتشويشها وتفكّكها. وما فيها من حشوٍ وافتعال يقارب "لزوم ما لا يلزم" عند أبي العلاء المعرّي. كما سيخرُّ صاعقاً أيضاً إذا كان يجمع إلى الذائقة اللغوية الثقافةَ العلمية "الحقيقية" التي لم يلوِّثْها تدجيُن الإيمان، فلا تفرِّق بين أخطاء الكتب "المقدسة" وبين سائر الأخطاء التي تجدها في أي مصدر آخر. فما أكثر رجال العلم من المسلمين والمسيحيّين واليهود وغيرهم الذين يكيلون الأشياء بمكيالين:

مكيال المؤمن الملتزم الذي يغمض عينيه ويَقبل بكلٍّ ما جاء في هذه الكتب من غثٍّ وسمين وهراء وأخطاء علميّة فاحشة، وفي هذه الحالة فإنّه يفوّض أمرها إلى الله، أو يتذرّع بشتّى التأويلات "للفلفتها" وستْر عوارها، كعجوز شمطاء، قبيحة الوجه، مترهِّلة البدن، تختال مُستعطرةً ليجد الناسُ ريحَها، مزدانة بالدرر واللؤلؤ والياقوت، لتشدَّ أبصارَهم إليها!

ومكيال رجل العلم الموضوعي المجرّد الذي لا يساوِم ولا يهادِن، ويقوّم الأشياء بالقسط، ويشهد للحقِّ، ولو على نفسه. إنّه يزنُ الخطأ بميزانٍ واحد بصرفِ النظر عن مصدره، كحسناء ترفل بجيدها الميّاس، وقدِّها الممشوق، وسحرِها الذي يكاد يضيء في الظلام ولو لم يمسسْه نور!!

وهذا هو الفرق الجوهري بين رجل العلم، ولمّا يدخل العلم في قلبه؛ وبين رجل العلم وقد أُشرب بالعلم وعمر قلبُه بالعلم، فلا يسكن ولا يتحرّك إلاّ بمنطق العلم. هل يستويان؟!!

وخلاصة هذا الحديث أنّ التشويش الذي يخدّش الأذن الصحية السليمة لبعده عن أبسط قواعد السلامة والسلاسة وقانون الإنسياب الجميل، ينـزل برداً وسلاماً على أُذن القارئ المتعبِّد الذي تبلّد حسُّه اللغوي وفَقَدَ ذائقتَه وقدرتَه على أن يَميز الخبيثَ من الطيب، والصحّة من الرطانة. فلا يتأتى هذا المَيْز إلاّ بعد المجاهدة والمكابدة، وبدوام العراك مع اللغة والاشتباك المتّصل مع أصولها وصوتيّاتها.

ليس صحيحاً إذن أن يكون القرآن على مستوًى واحد من الجودة والإتقان والأناقة. ففيه القمح وفيه الزؤان، وفيه ما بين ذلك، فيه من العيوب والشوائب ما يفقأ العينَ الفاحصة المدقِّقة التي لا ترى حرجاً في قول الحقّ، كما فيه من الصفاء والبلَّوريَّة ما لا

ينكره إلاّ مكابر. وهكذا اضطرب المشهد في القرآن، وضاع الوضوح، وتلاشت الرؤية السليمة وقوّةُ التجلي.

ومع ذلك يريدوننا لنصدِّق أنَّ القرآن "لو كان من عند غيرِ الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً" (٤ /٨٢). فكأنّ كلَّ ذلك لا يكفي لإثبات أنّه عملٌ بشريٌّ عاديٌّ، ليس خالصاً من السقطات والعيوب، ولا بريئاً من الآفات والمآخذ، إنّه كأيِّ عملٍ بشريٍّ، يختلط فيه الحقُّ بالباطل، والكمال بالنقص ؛ وبالتالي يمكن الإتيان بما هو دونه وبما هو أحسن منه، كما رأينا في فقراتٍ سابقة.

وهذا لا يتعارض مع القرآن الذي نفى فقط أن يؤتَى بمثله، وهذا صحيح ودقيق، ولكنّه لم يتطرَّق إلى الإتيان بما هو أحسن منه. فالروائع نسيجة وحدها، وفريدةُ ذاتِها، لا يمكن الإتيان بمثلها، وإن كان من الممكن جداً الإتيان بأحسن منها. وهكذا الآيات- الروائع في القرآن. هيهات هيهات لما تدّعون!!

ثاني عشر
آيات لا معنى لها

في القرآن عدد لا يُستهان به من الآيات لا معنى لها، وإن كان المفسِّرون قادرين دائماً على اجتراح المعجزات في الثرثرة واللفلفة والدفاع عن اللاّمعنى وإيجاد المعنى البليغ بعد المعنى! لقد هيمنتْ عليهم إيديولوجيا التبرير حتّى إنّ كلَّ ما اعوجَّ من آياتِ القرآن خرج مِن بين أيديهم درراً من المعاني وعقوداً من اللآلئ، وينابيع للحكمة، ومصادر للفصاحة والبلاغة، ونماذج للبيان لا يبلغها إنسان!

١. "والصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً، إنَّ إلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ" (٣٧ /١-٤).

ما معنى هذه الآيات الثلاث، بل هذه الألغاز الثلاثة؟ وما علاقتها بوحدانيّة الله؟ هل فهمتم شيئاً؟ أنا وأنت لم نفهم شيئاً. وأتحدّى الإنسَ والجِنَّ أن يفهموا شيئاً، عِلماً أنَّ الجِنَّ يعرفون اللغةَ العربية، كما رأينا في فقرة سابقة. وبقراءة سورة الجنِّ يتبيّن لنا أنّ في الجِنِّ الفحولَ في الفصاحة والبيان، فضلاً عن علوم الأسرار التي يتقنونها أكثر منّا!

ماذا أقول؟ إنّ المفسِّرين أنفسَهم لم يفهموا شيئاً. ولكنَّ هؤلاء المساكين مضطرُّون بحكم مهنتهم أن يفهموا كلَّ شيء. نعم، قد لا تخلو هذه الآيات من بعض المعنى، وهو المعنى القاموسي على الأقلّ، كأيِّ كلامٍ آخَر مما يُثرثر به الناس في غدْوِهم ورواحهم، ولكنّه معنًى تافهٌ لا يستحقُّ أن يُقسِمَ الله به لعباده.

فالمفسِّرون لا يقبلون أن يُقسِمَ الله بأشياء لا قيمة لها، بل يفترضون وراء هذه الآيات الحِكَم البالغة، والمعاني العميقة التي تليق به سبحانه! فَهُمْ بخيالهم المجنّح، بل بخيالهم المؤسطر، مسلَّحين بإيمان واثق وطيد، لا يتسرَّب إليه الشكُّ، أنّ هذه الآيات-الألغاز لها معانٍ جليلة ومقاصد رفيعة وغايات عليا لا تبلغها أفهامنا، ولا تصل إلى مداركها أذهاننا.. كيف لا وهي تنزيل من لدن حكيم عليم. ففكَّروا وقدَّروا، وقلَّبوا هذه الآيات ومحَّصوا، ومع ذلك لم يصلوا إلى شيء. هنا يتدخَّل الموروث الديني، والمادّةُ الأسطوريّة والتقنيّة التفسيريّة وأقوال الصالحين!

وهكذا فـ "الصَّافَّات" هم الملائكة تَصِفُّ نفسَها في العبادة، أو أجنحَتَها في الهواء، تنتظر ما تُؤمر به. وكذلك "الزَّاجرات"، فهي أيضاً ملائكة تزجر السحابَ، أي تسوقه. وأما "التّاليات" فهم قرّاء القرآن! ولعل استعمال المؤنث (تاليات) بدل المذكّر (التالون) أو (القرّاء) فيها نكتة بلاغيّة وإعجاز قرآني لا تصل إليه عقولنا!

أنا لا أنكر أن تكرار العبارات واستخدام الإيقاع الشعري والجناس والسجع وما إليها، تقنيات تساعد كثيراً على الإحتفاظ بالنص في الذاكرة، كما تيسّر إعادة الترتيل الدقيق بلا تحريف. كلّ هذا صحيح شريطة أن يكون لهذا الكلام معنى، أمّا إذا لم يكن له معنى فهو من سجع الكهان الذين هم أيضاً لا يقلّون حرصاً عن القرآن على تثبيت نصوصهم في الذاكرة، سواء كان لها معنى أو لم يكن لها أيُّ معنى.

إنّ الكلام الذي له معنى يسهم في زيادة الوعي الاجتماعي والتاريخي والعلمي والحضاري.. على نطاق واسع أو ضيّق، أمّا إذا لم يكن له معنى فهنا الطامة الكبرى والداهية الدهيا، فأيُّ وعيٍ أسهمت هذه الآيات-الألغاز في زيادته؟

ثمّ إنّ هذه الآيات تبدأ بالحرف (و)، أي واو القَسم. وحتّى لو كان لهذه الآيات معنى يتجاوز عقولنا الهشّة الضعيفة، فكيف يُقسم الله بمجهولٍ على معلوم؟ أليس القَسَم بالمجهول على المعلوم تشكيكٌ في المعلوم؟ ماذا أضافت هذه الآيات الثلاث إلى وحدانيّة الله؟ هل تنتقصُ الوحدانيّةُ، وهل يختلُّ معناها بحذفِها؟

٢. "وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ، وَالبَيتِ المَعْمُورِ، وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ، وَالبَحْرِ المَسْجُورِ، إنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ" (٥٢ /١-٧).

هذا من سجع الكهّان أيضاً وإن كان لا يخلو من المعنى. فمن قال إنَّ سجع الكهان لا معنى له؟! ولكنّه على كلِّ حال "حكي بحكي وصَفّ حكي للحكي". فإنّك إذا حذفتَه لم يغيِّر شيئاً في الآيات اللاّحقة، بل ربما زادها قوّة ونصاعة. لكنّ "البيت المعمور" هنا هو ما أثار خيالَ المفسِّرين الأسطوري. "والبيت المعمور" هو في السماء السادسة أو السابعة، بحيال الكعبة[1]، "يزوره كلَّ يومٍ سبعون ألف مَلَكٍ بالطواف والصلاة لا يعودون إليه أبداً"[2].

٣. "وَالمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَالعَاصِفَاتِ عَصْفاً، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً، فَالفَارِقَاتِ فَرْقاً، فَالمُلْقِيَاتِ ذِكْراً، عُذْراً أَوْ نُذْراً: إنَّ مَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ" (٧٧ /١-٧).

هذه دفعة أخرى من سجع الكهان لا يقدِّم حذفُها شيئاً ولا يؤخِّر، ولكنّها حشو ولعب بالكلمات والألفاظ، أربأ بالله خالق الأكوان أن يقع في مثله. ثمّ إنّه من المعروف أنّ المقسَم به هو دائماً أشرف من المقسِم (أنا وأنت)، فكيف يصحّ أن يُقسم الله بما

1 أرأيت إلى هذا التحديد "العلمي" الدقيق؟!

2 تفسير الجلالين، ص ٥٢٣.

دونَه من المخلوقات؟ولكنّه اللغو ادّخره الله -لحكمةٍ يعلمها- لبعض السور القصيرة المختارة التي جاء ترتيبُها في أواخر القرآن.

٤. "وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً، فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْراً، يَومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ" (٧٩ /١-٦).

وهذا سجع عجيب من سجع الكهان القرآني يراد به الكلام لمجرّد الكلام، لا لجرِّ منفعة أو دفع مضرّة، أو لزيادة وعيٍ أو القضاء على فساد "صفّ حكي للحكي"، ومجموع من الكلام الفضفاض ما كان أجدره بالترك. إنّ الحديث هنا يدور كلّه بطبيعة الحال على الملائكة، والملائكة فقط، والله يُقسم بهم لعظمتهم عنده.

فـ "النازعات" هم الملائكة التي تنزع أرواحَ الكفار. أمّا "غرقاً" العجيبة التي لا أرى لها وجهاً هنا فمعناها نزعاً شديداً!! ومَن يدري فلعلّ لها وظيفة بلاغيّة إعجازية فوق مستوى فهمي القاصر. وفوق كل ذي علم عليم. أليس كذلك؟

وكما أن النازعات نوع من الملائكة، فكذلك "الناشطات" هم نوع آخر من الملائكة، وظيفتهم تنشيط أرواح المؤمنين. فقد أرهقهم التهجد والصيام والقيام وبلادة العبادة، فأرسل الله لهم ملائكته المختصّين، من سابع سماواته لتنشيطهم ودفع الملل عنهم قبل أن يقتلهم الخمول. ولعلَّ المراد أيضاً -كما يقول الجلالان- سلُّ أرواح المؤمنين برِفْقٍ حتّى لا يعانوا من سكرات الموت، ولِيَلحقوا بسرعةٍ بالرَّفِيق الأعلى، مع أنَّ الله لم يرسل هذه الملائكة عند موت حبيبه وصفيّه محمّد، فكان يصرخ من الألم ويقول: "إنَّ للموت لَسكرات"!

والنوع الثالث من الملائكة وهم "السابحات سَبحاً"، وتسمّى كذلك لأنّها تسْبح في السماء بأمره تعالى. و"السباق" إلى الجنة له

ملائكته أيضاً، ولكنه ليس سباقاً عشوائياً كما في الحياة الدنيا، بل كل شيء هناك يجري بنظام وانضباط. فكما أنّ المؤمنين ليسوا سواء في درجات الإيمان، فمنهم من هم أحقّ بدخول الجنة قبل غيرهم، وكيلا تضيع الحقوق في هذا الزحام الشديد فلا يجور أحدٌ على أحد، وبما أنّ الإنسان، كلّما اشتدّ إيمانه اشتدّ حياؤه، فيسمح للأقلِّ إيماناً بالدخول قبله لتجنّب كلِّ ما من شأنه إثارة المشاكل على باب الجنة.

لكلِّ ذلك -وبما أنّ "الله لا يستحيي من الحق" (٣٣ /٥٣)، فالحق أحق أن يُتَّبع، وعلى الخصوص في يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون- أقول: لكلِّ ذلك وما إلى ذلك خلَق الله "السابقات سبقاً"، وهم الملائكة يَسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنّة ليجنبّوهم طولَ الإنتظار. كما أنَّ "المدبِّرات أمراً" هم الملائكة يدبِّرون أمور الدنيا، أي ينـزلون بتدبيرها!

٥. "وَالسَّمَاءِ والطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ، إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ" (٨٦ /١-٤).

سجع كهّاني جديد لم يحشر المفسِّرون فيه ملائكة السماء، لا كرماً منهم أو زهداً في الملائكة الذين طالما أسعفوهم وخفّوا لنجدتهم في أوقات الشدّة، بل لأنّ الآية لا تحتمل ذلك. فـ "الطارق" هنا ليس مَلكاً من الملائكة، إنّه النجم، ولكن أي نجم؟ "النجم الثاقب". حسناً. كلّ النجوم ثاقبة لأنها جميعاً تثقب الظلام بضوئها. ولذلك استقرَّ الرأي عند جمهورهم بأنّها الثريّا، ولكنّ الثريّا ليست نجماً واحداً بل هي مجموعة من النجوم. ولذلك قال آخرون بأنَّ النجم الثاقب هو أيّ نجم. وما حصيلة هذا كله؟ لا شيء.

فرقعة كلاميّة يمكن أن تصدر عنّي وعنك، أمّا أن تصدر عن الله، فهذا ما لا أفهمه. هذا مع أنّ النبي يقول: مَن كان يؤمن

بالله واليوم الآخر فليقلْ خيراً أو ليصمت. أمّا أن يكون هذا العبث الكلامي إعجازاً لو اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله فلن يأتوا، فهو ضحك على اللّحى واستهتار بأناس خرجوا من مرحلة الطفولة منذ زمن بعيد، وهم اليوم يدقّون أبواب السماء! ولكن ما حيلتي والقرآن مليء بالآيات التي تدلّ على أن الإنسان لم يبلغ، بل ولن يبلغ، رشدَه أبداً!!

"إنْ كل نفس لما عليها حافظ" هذا هو جواب القَسم. والحافظ هم الملائكة. عدنا -والعَوْد أحمد- إلى معزوفة الملائكة. فمَن طال انتظارُه للملائكة، فها هوذا قرنُها يذُرُّ من جديد. لقد انفرجتْ أسارير المفسِّرين. بشراكم اليوم!

وإذا كان القَسَم في الآيات السابقة -طالت أو قصرت- مصحوباً بجواب القسم، فكثيرة في القرآن هي الآيات التي لا جواب قَسَم لها، كالآية التالية مثلاً ؛ وإنْ كان الجواب حاضراً دائماً بطبيعة الحال في ذهنيّة أصحابِ إيديولوجيا التبرير والترقيع واللفلفة، إيديولوجيا سدِّ العوز وستْر العوار.

٦. "صَ. وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" (٣٨ /١-٢).

لا يقتصر الأمر على هذا القَسَم العجيب بلا جواب للقَسَم، فهُوذا قَسَم عجيب آخر يُقسم الله فيه بالقرآن أيضاً، ولكنه يُقسم على ماذا؟! "عِلْمُها عِندَ رَبّي، لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى" (٢٠ /٥١).

٧. "قَ. وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ، بَلْ عَجِبُوا أنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ الكَافِرُونَ: هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ" (٥٠ /١-٢).

ليس هذا القَسَم وحده بلا جواب للقَسَم، بل الآيات الأربع الأولَى من "سورة الفجر"، والتي سنراها بعد حين، خالية هي أيضاً من جواب القَسَم! وإذا كان الله في الآيتَين السابقتين يُقسم

بالقرآن المجيد، وهو شيء يستحق القَسَم، فإنه في الآيات الأربع التالية يقسم بأشياء أربعة يختلط فيها الغث بالسمين، لكن العجيب، في أمر هذه الآيات، أنّها خالية هي أيضاً من جواب القَسَم، وإنْ كان المفسِّرون لا يعجزون بطبيعة الحال، عن تقدير هذا الجواب.

٨. "وَالفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ، وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ، وَاللَّيلِ إذَا يَسْرِ[ي]. هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ؟" (٨٩ /١-٤).

فما معنى أنْ يُقسم الله بالشفْع (الزوج) والوتْر (الفرد)؟ ما هي هذه الليالي العشر؟ إنّها عَشْر ذي الحجّة. أوَلِعشْر ذي الحجّة كلُّ هذه الأهمّيّة حتّى يُقسم الله بها ويُنـزّل بها قرآناً؟ نعم. لها كلُّ هذه الأهمّيّة وأكثر، في كونٍ أسطوري مغلَق، مركزُه الأرض تنحصر كلُّ هموم الله فيه في الصلاة والصيام ومناسك الحجّ والعبادة والغُسل والحيض والإستبراء... وما إلى ذلك!

ولكنْ أين جواب القَسَم؟ لم يذكرْه الله لحكمةٍ لا يعلمها إلاّ هو. أوَتَظنُّ أنَّ الله عاجز عن الجواب يا جاهل؟ إخرسْ، إخسأْ، أخزاك الله! لقد خرستُ. وهل يسعني غير ذلك في عالَمٍ لا يُحسن غيرَ الثرثرة، ولا بضاعة له سوى بضاعة الثرثرة! وإذا كنتُ أرثي لأحد فإنّي أرثي لحالِ قوم نشأوا في الثرثرة، وأفنوا حياتهم في الدفاع عن الثرثرة، واستخلاص الحكم البالغة التي تكمن في الثرثرة. ففي الثرثرة جواهرُ لا يدركها إلاّ حكماءالثرثرة!!

أُنظر مرّة أخرى إلى الطابع المحلّي السكوني الأسطوري الضيّق لهذه الآيات، أعني "الليالي العشر" ليالي العرس الكوني، فعشر ذي الحجّة مناسبة عالمية وليست مسألة محلّية. وبالتالي فالفجر فجر كوني، وعيد الأضحى عيد كوني، تحتفل به الملائكة بحضور الأنبياء المنتشرين في السماوات، كما أنّ الزوجيّة والفرديّة وحصر الأعداد فيهما، والليل الكوني الذي يقابل الفجر

الكوني... كلّ أولئك تكريس لتصوّر أسطوري قديم للأرض كان شائعاً في هذه المنطقة.

فلا فجر غير فجر الأرض التي تقع في مركز العالم. والحجُّ إلى بيت الله الحرام عيد عالمي يحتفل به الملأ الأعلى ولا يقتصر على العالم الأسفل، ولا سيّما إذا تذكّرنا ما مر معنا في آيات سابقة من أنَّ الكعبة المشرِّفة تتمتّع بموقع إستراتيجي هام في خريطة الكون، إذ هي تقع بدقّة شديدة تحت البيت المعمور الذي اختلف العلماء في مكانه فقيل هو في السماء الثالثة، وقيل إنّه في السماء السادسة، وقيل بل هو في السماء السابعة، كما مر معنا في "سورة الطور".

وإذا كان المفسرون رضوان الله عليهم قد اختلفوا في أيِّ سماء هو، فإنّهم لم يختلفوا في أنّه فوق الكعبة بالضبط، فليس هذا محلّ خلاف والحمد لله، فهذا من فضله تعالى!

والغريب أن يتساءل القرآن هذا السؤال الإنكاري "هل في ذلك قَسَم لذي حِجْر؟" كأنما كلٌّ شيء واضح في هذه الآيات وضوحَ الشمس!!

٩. "لا أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ، وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي كَبَدٍ" (٩٠ /١-٤).

نحن هنا أمام "لا قَسم"، لكن يراد به القَسم، عجيب حقاً أمر هذا القَسم. يقولون إنّ حرف النفي "لا" هنا زائد، ولا يذكرون لنا لماذا زِيد، وما "الحكمة البلاغيّة" في ذلك؟ أنا لا أرى معنًى لهذا القسم، لأنَّ جوابَه معروف بقَسَم وبلا قَسَم. فلا أحد يجهل أنَّ حياة الإنسان على هذه الأرض حياة معاناة وشدّة ونصب، فضلاً عن أنّي لا أرى معنًى لنفي هذا القَسَم. ألمهم في هذا القَسَم الحفاظ على القافية مهما كان المعنى. كلٌّ ما هو مطلوب في هذا القَسَم حضور

حرف "الدال" في آخر الآية، كيلا يختل سجع الكهان، وهنا الطامة الكبرى. فلكل قَسَم في الآيات السابقة قافيته المفضلة، وليكن المعنى بعد ذلك ما يكون. فالمهم ضبط السجع وتأمين القافية، هذا هو المطلوب والسلام!!

١٠. "وَاللَّيلِ إذَا يَغْشَى، وَالنَّهَارِ إذَا تَجَلَّى، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى، إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى" (٩٢ /١-٤).

إكتشاف عظيم أنجزه القرآن في هذه الآيات الأربع، وإلاّ لما استحقّ الأمر كلَّ هذا القَسم. أَوَتَعرفون ما هو هذا الاكتشاف العظيم الذي كان خافياً على كلِّ إنسان حتّى نبَّأنا به القرآن؟ "إنّ سعيَكم لشتّى". فيا للاكتشاف العظيم ويا للنبأ العظيم! بشراكم أهل الدار، لقد انكشف سرُّ الأسرار! تُرى، هل سجع الكهان غير ذلك؟ وإلا فماذا عساه أن يكون؟

١١. "وَالعَادِيَاتَ ضَبْحاً، فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً، فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً. إنَّ الإنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٍ" (١٠٠ /١-٦).

لعل "الحكي" و "صفّ الحكي للحكي" لم يبلغ ما بلغه في هذه الآيات الست، إنّها خير نموذج لما بلغه سجع الكهان في القرآن من خَواء وفراغ. فحتّى الخيل تعدو في الغزو لم تسلم من القَسَم. ولئن دلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على تفاهة القَسَم وابتذال القَسَم، واحتقار الإنسان الذي يوجَّه إليه القَسَم. لقد استُهلك القَسَم حتّى فقدَ كلَّ قيمةٍ له القَسَم!!

كفرتُ بالله إذا كان كلُّ هذا الهذر من كلامِه! ليتَه لم يتكلّمْ! ألكلامُ ينُمُّ عن صاحبِه، فيوري ناره أو يزيد ظلامه. فإذا كان الكلام حشواً فماذا عسى يكون صاحبُه؟!

ثالث عشر

سجع القرآن وسجع الكهان

ألقرآن كتابٌ فريد حقاً، إنّه نسيجٌ وحدَه. فهو نثر ولكنه ليس كالنثر، وهو شعر وما هو بقول شاعر، وهو موزون وليس كأوزان العرب، وهو مقفّى وليس كلّه كمثل قوافيهم. إنّه هو. إنّه القرآن والسلام!

ألقرآن مولَع بالقوافي، مفتون بالسجع حتّى ليشبه في بعض الأحيان سجع الكهان. ولكنّ القوافي في القرآن وما يسجع بها من آيات بيّنات وغير بيّنات، ليست كلّها كذلك. فمنها ما يأخذ بمجامع القلوب، ومنها ما لا تهتزّ له القلوب، ومنها ما يميتُ القلوب. وذلك بحسب موضع القافية من الكلام ووظيفتها فيه، وهل هو حَسَن النظم بديع التأليف، كلّ لفظة فيه تقف مع أختها، أم بين ألفاظه نُفرة في المخارج أو في النغم، أم كلّ كلمة فيه نابية عن أختها غريبة في مكانها، نشاز في لحنٍ ليست هي له. كلاّ. وليس هو لها؟

والقرآن المكّي أكثرُه مقفّى، خلافاً للقرآن المدني فأكثره مرسَل، ما لم يكن من قصار السور. وهكذا فقد بدأ القرآن بالسجع الموزون المقفّى وانتهى بالكلام المرسَل. وتنقل الأخبار في صدد السجع أنّه كان في غالب أمره كلام الكهان والعرّافين والهواتف في الأحلام، ولكن الصورة الصادقة الصحيحة للسجع ومقطعاته وفنونه فإنما هي في القرآن. ولذلك اتّهم المشركون محمّداً -في ما

اتّهموه به- بأنّه "كاهن"، بسبب ما كان يتلوه من الآيات والسور المسجوعة كسورة "القمر" و"الرحمن" و"الإنسان"، حيث بلغ السجع أقصاه.

ولذلك اختلف المسلمون في حكم السجع في القرآن. فأنكره بعضهم وعلى رأسهم الرمّاني، والباقلاني، وشيخه الإمام أبو موسى الأشعري، وسائر الأشاعرة، وغيرهم كثيرون، ووضعوا له ضوابط وتعاريف وشروطاً يخرجونه بها عما جاء في القرآن.

أرأيتَ إلى التحجر والجمود وإنكار المحسوس واللّعب بالألفاظ لتبرئة القرآن من "تهمة" السجع خشية أن ينطبق عليه وصف "سجع الكهان"! ولا تظنَّنَّ أنَّ المنكِرين لوجود السجع في القرآن أناس عاديون، ولكنّهم رجال إعلام وأصحاب مدارس في الفكر والرأي، ولكنّها النصوص تُذِلُّ رؤوسَ الجبابرة! وفي هذه الحال لا يختلف العامّة عن الخاصّة، والأذكياء عن الأغبياء في التعبّد للنصِّ، والتخلِّي عن العقل حفاظاً على النصِّ! "صدق الله وكذب بطن أخيك"!

ليسوا سواءً. منهم طائفة لا يقلون إيماناً عن هؤلاء، ولكنّهم أكثر مرونة وتحرراً وأقلّ التصاقاً بحرفيّة النصّ. فابنُ الأثير، في كتابه "المثَلُ السائر"، يستنكر قولَ الذين يذمّون السجع، ويستنكر قول الذين لا يُسَمُّون ما في القرآن من اتِّحاد المقاطع في الحروف سجعاً، ويقول في ذلك: "وقد ذمَّه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة. ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزِهم عن أن يأتوا به. وإلاّ فلو كان مذموماً كما ورد في القرآن الكريم، فإنّه قد أُتي منه بالكثير، حتى إنّه لَيؤتى بالسور جميعها مسجوعة كـ "سورة

الرحمن" و"سورة القمر"، وغيرها. وبالجملة فلم تخلُ منه سورة"[1].

فهو كما ترون يستحسن السجع، ويَرمي الذين لا يستحسنونه بأنّهم لا يجيدونه. ودليلُه على حسن السجع ورودُه في القرآن كما مرّ معنا. فيكفي ورودُه في القرآن حتّى يكون فوق الشبهات. هذا هو معيار الجودة والرداءة عنده. فلو كان الأمر متعلِّقاً بحُكمٍ شرعي لكان قولُه السابق مفهوماً لا غبار عليه. أمّا أن يحتكر القرآن قضايا اللغة فهذا ما لا أرى له وجهاً. ولكنّه الإيمان كثيراً ما يورث صاحبَه قصرَ النظر. والرأي عندي أنّ السجع لا يمكن أن يكون حسناً في جميع الأحوال حتّى ولو جاء في القرآن وفي ألفِ قرآن معه، كما سنرى، كما أنَّ بيان الأحكام الشرعية في أيِّ كلامٍ بليغٍ لا يصحُّ أن يكون سجعاً. فلكلِّ مقامٍ مقال.

وخلاصة ما يقرره المثبتون للسجع في القرآن أنّهم يعتمدون على ما يتلونه من اتّحاد مخارج الحروف في مقاطع القرآن، ويقرّرون مع ذلك أنّ سجع القرآن أعلى من كلام البشر، فليس ثمّ ما يشبهه في كلام الناس، لأنّه أعلى من كلام الناس.

وبيانه أنّ السجع سجعان: مذموم ومحمود:

فالسجع المذموم هو الذي يَظهر فيه التكلّف والتصنّع والإستكراه، ويرهق الألفاظ والمعاني، لا سيّما في ما يطول من الكلام. وأمّا السجع المحمود فهو العفويّ الذي لا تكلّف فيه. بل هو مِن محسنات القول وليس عيباً فيه، وقد وقع كثيراً في كلام العرب الجيّد. هذا ولم يكن سجع الكهان هو السائد فقط، بل كان من بلغاء العرب مَن اتّجه إلى السجع البليغ. ومن ذلك ما رُوي عن الإمام علي بن أبي طالب أنّه قال لسيفٍ بن ذي يزن:

---

1 نقلاً عن محمّد أبو زهرة، **ألمعجزة الكبرى**، ص ٣٢١.

"أنبتك الله نبتاً طابتْ أرومتُهُ، وعزّت جرثومتُهُ، وثبت أصلُهُ، وبسق فرعُهُ، ونبت زرعُهُ، في أكرمَ موطِنٍ، وأطيبَ معدِنٍ"[2].

وأبو زهرة يَنفي التكلّف في القرآن، لا لشيء إلاّ لأنّه قرآن، وبالتالي فسجعه محمود كلُّه ولا شيء فيه مذموم:

"ونحن لا نفرض احتمال التكلّف في القرآن قط، لأنّه من عند الله تعالى"[3].

هذا هو معيار الجودة عن شيخنا الكبير: فما من عند الله لا تكلّف فيه. ورغم أنّ كتابَه يزيد على ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير، فإنّه لم يغيِّر شيئاً في حكمه على الأشياء، لأنّه ظلَّ يرى الأشياءَ بعينٍ واحدة فقط. أنا شخصيًّا لم اكن بأقلَّ حوَلاً منه، لكنّي ما زلت بعينَيَّ حتّى استقامتْ لي الرؤية أو كادت. فما جدوى الصفحات الطوال إذا كانت خبالاً في خبال؟

***

والآن أحبُّ أن أقدّم لكم نماذج ناطقة من سجع الكهان لتحكموا لها أو عليها، ولترَوا بأمِّ أعينكم، وتلمسوا بأيديكم، مدى التشابه الكبير بين سجع الكهان وسجع القرآن، ولا سيّما سجع قصار السور الأخيرة التي صادفنا بعضَها منذ قليل، والتي تبدأ بالأَيْمان المغلَّظة لتُقسِم بأشياءَ تافهة على أشياء أكثر منها تفاهة. فلا تثير خيالاً، ولا تُرهف حساً، ولا تولِّد فكراً، ولا تُخصب نتاجاً، ولا تُنشئ علماً، ولا تنمِّي ذوقاً، ولا توسّع أفُقاً، ولا تُطفئ حريقاً.

2 نقلاً عن محمّد أبو زهرة، **ألمعجزة الكبرى**، ص ٣٢٢.

3 رَ: المرجع السابق نفسه، ص ٣٢٠.

إنما قصاراها التقريع، والتسفيه، والزجر، والتبكيت، والإنذار؛ يتخلّلها قَصَصٌ فارغ أبلاه التكرار؛ حتّى ملَّته الأسماع، وصدِئت منه الآذان. فهل هذا غير سجع الكهان؟

هذه قراءة متفكِّر متدبِّر للقرآن؛ تفتح العقول، وتفجِّر المواهب، وتثير الأذهان؛ لا تلاوةُ ناسكٍ متعبِّدٍ وهو قائم يصلّي في المحراب. إنَّ تلاوة التعبُّد تورث العمى، وتُبلّد الحسَّ وتُشلُّ الحركة ؛ أمّا قراءة التفكّر فتورثُ البصرَ والبصيرة، وتفتِّقُ العقلَ والقريحة ؛ وتهدي سَواء السبيل. هكذا أريدكم لتقرأوا القرآن وتقارنوه بسجع الكهّان. أعمِلوا عقولَكم ولا تكونوا أمامه كالعاشق الولهان، أعماه الحبُّ فلا يرى ما يدور حوله وما يكون وما كان. وانظروا: أَخَيْرٌ هو من سجع الكهان أم هما يَستويان؟ وإذا لم يستويا أفلا يتقاربان؟ لكن دعوا الروائع جانباً فهي خارج الرّهان!

لم يكد خبرُ وفاةِ النبي ينتشر في المدينة حتّى وقعت حروب الرِّدَّة في خلافة أبي بكر؛ فانتهزها بعضُهم فرصةً للإنقضاض على الدِّين الجديد، ولادّعاء النبوّة طمعاً في السلطة التي استأثرتْ بها قريشٌ بعد ظهور الإسلام. ومِن هنا كانت فتنة المتنبِّئين، وأشهرُهم **مُسَيلَمَة الحنَفي مِن اليمامة**، ولعلّه كان نصرانيًّا، لأنّ النصرانيّة كانت سائدةً في بادية اليمامة.

وكان المتنبِّئون يقلِّدون النبي بالخلوة والتدثّر والتزمّل حينما يزعمون أنّه يوحَى إليهم. كما كانوا يرسلون أقوالهم التي كانوا يزعمونها وحياً، مسجَّعَةً تقليداً للقرآن وأسلوب الكهان في عصر النبي. وأكثر ما روي من ذلك أسجاع مُسيلمة، الذي اختار منطقة باليمامة جعلها حَرَماً آمِناً لا يحلُّ فيه قتال، تقليداً لحَرَم مكّة. وأطلق على نفسه إسماً كبيراً يدلّ على علوِّ منزلته وسموِّ مرتبته هو: "رَحمَان اليمامة". واستكمالاً لهيبة النبوّة، واستجماعاً لمظاهرها،

أحاط مساكنه بسورٍ، وسمّى الساحة المسوَّرَة "حديقةَ الرحمن".

وهاكم في ما يلي بعض ما رُوي عنه من السجع[4]:

١. "والليلِ الدارسِ، والذئبِ الهامسِ، وما قَطعتْ أُسَيدٌ من رطبٍ ولا يابسِ".

٢. "إنّ بني تميم قوم طُهْر لقاح، لا مكروه عليهم ولا أتارة. نجاورهم ما حيينا بإحسان، ونمنعهم من كلِّ إنسان، فإذا مُتنا فأمرهم إلى الرحمن".

٣. "يا ضفدع ابنة ضفدع، نُقّي ما تَنُقِّين، أعلاكِ ماءٌ وأسفلكِ في طين، لا الشاربَ تمنعين ولا الماءَ تكدِّرين".

٤. "والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قَمحاً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاّقمات لَقماً، لقد فُضِّلتم على أهلِ الوَبَرِ، وما سبقكم أهلُ المَدَرِ. ريفَكم فامنعوه، والمعترَّ فآووه، والباغي فناوئوه"[5].

عرض خالد بن الوليد على **طُليحة الأسدي المتنبِّئ** الدخول في الإسلام والطاعة، فأبى قائلاً إنّه يأتيه المَلَك كما كان يأتي محمّداً. وكانت ملحمة شديدة كادت تزعزع بعضَ أجنحة المسلمين. وأخذ عيينة زعيم بني فزارة يأتي إلى طليحَة مرّة بعدَ أخرى وهو متدثِّر في خيمته يزعم أنّه ينتظر الوحيَ ليسأله عمّا إذا نزل عليه شيء من السماء يبشِّرُه بالنصر على المسلمين. وفي المرة الثالثة قال له طليحة هبط عليّ الوحيُ يقول:

4 رَ: محمّد عزّة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٧ /٣٨-٤٠. وهناك مرويّات أخرى أشدّ سخفاً، فيها فحش كثير، تركناها. وليس من المستبعد أن تكون موضوعة. رَ: الطبري ٢ /٤٩٠-٥١٠.

5 محمّد عزّة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٧ /٤٠.

"إنّ لكَ رُجىً كرجاه، وحديثاً لا تَنساه، وإنَّ لكَ يوماً ستَلقاه، ليسَ لك أوَّلُهُ، ولكنْ لكَ أُخْرَاه"[6].

وممن ينسب إليه التكهّن ودعوة النبوة، **المختار بن أبي عبيد الثقفي**، وكان أوّل من قام بدعوة الكَيسَانيّة إلى إمامة محمد بن الحنفية. وفي أثناء ذلك أخذ يظهر منه بعض المخارق. ومما رواه البغدادي عنه هذه السجعة التي جاءت في خطبة له خطبَ الناسَ فيها بكربلاء، وزعم أنَّها مما ينـزل عليه من السماء:

"ألحمد لله الذي وعد وليَّهُ النصرَ، وعدُوَّهُ الخُسرَ، وجعلهما إلى آخر الدهرِ قضاءً مقضيّا، ووعداً مأتيا.،."[7].

وبعد أن تمّت له ولاية الكوفة والجزيرة والعراقَين إلى حدود أرمينية، تكهّن كأسجاع الكهنة وقال ممّا ادّعى نزول الوحي عليه به:

١. "أما والذي أنزلَ القرآن، وبيَّنَ الفرقان، وشرَع الأديان، وكره العصيان، لأقتُلَنَّ البغاةَ مِن أزْدِ عمان، ومذحج وهمذان، ونهدٍ وحولان، وبكرٍ وهزّان، وثُعلٍ ونبهان، وعبْسٍ وذبيان، وقيسٍ وعَيْلان"[8].

٢. ثمّ قال "وحقّ السميعِ العليم، العليِّ العظيم، العزيزِ الحكيم، الرحمنِ الرحيم، لأعركَنَّ عرك الأديم، أشرافَ بني تميم"[9].

ويروي البغدادي أنَّ المختار خدعتْه السبئيّةُ الغلاةُ من الرافضة فقالوا له: "أنتَ حجّةُ هذا الزمان". وحملوه على دعوى

---

6 ألمرجع السابق نفسه، ٧ / ٥١.
7 ألبغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص ٤٥.
8 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٦-٤٧. في الأصل "قيس عيلان"؛ والصواب: وعيلان.
9 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٧.

النبوّة، فادّعاها عند خواصّه، وزعم أنّ الوحي يَنـزل عليه، وسجع بعد ذلك فقال:

"أمّا ومنشئِ السحاب، الشديدِ العقاب، السريعِ الحساب، العزيزِ الوهّاب، القديرِ الغلاّب، لأَنبشنَّ قبرَ ابنِ شهاب، المفتري الكذّاب، المجرمِ المرتاب. ثمّ وربِّ العالمين، وربِّ البَلَد الأمين، لأقتُلَنَّ الشاعرَ المهين، وراجزَ المارقين، وأولياءَ الكافرين، وأعوانَ الظالمين، وإخوانَ الشياطين، الذين اجتمعوا على الأباطيل، وتقوّلوا عليَّ الأقاويل. وليس خطابي إلاّ لذوي الأخلاقِ الحميدة، والأفعالِ السديدة، والآراءِ العتيدة، والنفوسِ السعيدة"[10].

ثمّ خطب بعد ذلك فقال في خطبته:

"الحمدُ لله الذي جعلني بصيراً، ونوّر قلبي تنويراً، والله لأحرقَنّ بالمصر دُوراً، ولأنبشَنَّ بها قبوراً، ولأَشفِيَنَّ منها صدوراً. وكفى بالله هادياً ونصيراً"[11].

ثمّ أقسم فقال:

"بربِّ الحرَمِ، والبيتِ المحرَّمِ، والركنِ المكرَّمِ، والمسجدِ المعظَّمِ، وحقِّ ذي القلم، ليُرفعنّ لي علم، من هنا إلى أضَم، ثمّ إلى أكناف ذي سلم"[12].

ثمّ قال مهدِّداً:

"أمّا وربِّ السماء، لتنزلنّ نارٌ من السماء، فلتحرِقنّ دارَ أسماء"[13].

وأسماء هذا هو أبو حسان بن خارجة الفزاري الكوفي، من

10 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٧-٤٨.

11 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

12 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

13 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

سادات أهل المدينة ومن جلة التابعين، توفي سنة 56 هـ على الأرجح، فلما بلغه هذا القول خاف على نفسه وهرب من داره قائلاً: "قد سجع بي أبو إسحق، وإنّه سيحرق داري". وغادر الدار من ساعته. فبعث المختارُ إلى داره مَن أحرقَها بالليل، وأظهر من غده أنَّ ناراً من السماء نزلت فأحرقتْها"[14].

ثمّ إنّ أهل الكوفة خرجوا على المختار لمّا تكهّن، وعلى الخصوص لأنّه وعدهم أن يعطيَهم أموالَ ساداتهم. وقاتل بهم الخارجين عليه. فظفر بهم. وقتل منهم الكثير. وأسر جماعةً منهم. وكان بين الأسرى أسيرٌ ذكيٌّ يقال له "سُراقة بن مرداس البارقي". وخاف أن يقتلَه المختارُ، فقال للذين أسروه وقدَّموه له: "ما أنتم أَسرتمونا، ولا أنتم هزمتمونا بعدَّتِكم، وإنما هزَمَنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البُلق فوق عسكركم".

وأقسم أنّه رأى الملائكة يقاتلون معه، كما قاتلوا مع النبي يوم بَدْر، ويومَ حُنين، على ما أخبر به القرآن. ثمّ تقرّب إلى المختار بأبياتٍ قال فيها:

نُصرتَ على عدوِّكَ كلَّ يومٍ بكلِّ كتيبةٍ تَنعي حُسـَينا

كنصرِ محمّدٍ في يومِ بدْرٍ ويومِ الشعبِ إذ لاقَى حُنينا

فأُعجِب به المختار وعفا عنه. ولما أمِنَ سألَه أصحابُه عمّا رأى فقال لهم: ما كنتُ في أَيْمانٍ حلفتُ بها أشدَّ مبالغةً في الكذب منّي في أَيْماني هذه التي حلفتُ بها أنّي رأيتُ الملائكة. ثمّ لحق بجيشِ مُصْعب بن الزُّبَير عدوِّ المختار بالبصرة، وأرسل منها إليه هذه الأبيات ساخراً منه:

ألا أَبلِغْ أبا إسحـــقَ أنّي رأيتُ البُلقَ دهْماً مُعتِماتِ

---

14 ألمرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

وكفرتُ بوحيِكُم وجعلتُ نــذراً   عليَّ قتالَكم حتّى المماتِ
أُري عينيَّ مـــــا لم تُبصِراهُ   كلانا عالِمٌ بالترَّهـَاتِ
إذا قالـوا أقــولُ لهم كذبْتُم
وإنْ خرجوا لبستُ لهم أداتي[15]

***

والآن بعد هذا العرض السريع لسجع الكهان وسجع القرآن الذي اكتفيت منه بفواتح قصار السور الأخيرة بما في بعضها من قَسَم بلا جواب للقَسَم، ـ علماً بأنَّ سور القرآن الطويلة الأخرى لا تقلّ عن القصار سجعاً عابثاً لا معنى له ولا زبدة فيه- أقول بعد هذا العرض أرجو القارئ المنفتح المتفحّص المتحرّر القادر على الحكم على الأشياء بموضوعيّة وتجرّد، أن ينظر نظرة جدّية مقارنة إلى هذين الضربين من السجع: سجع الكهان وسجع القرآن، نظرة تأخذ الأمور في جوانبها المختلفة وأبعادها المتعددة، لا نظرة حولاء تكتفي بجانب واحد منها فقط.

15 محمّد عزّة دروزة، **تاريخ الجنس العربي**، ٨ /٣٩٧.

رابع عشر
ألقرآن والإيمان بالغيب

علينا أن نركّز على العقل دون النقل، وعلى العلم والمعرفة لا على السحر والعرفان، وعلى الإنسان أكثر منّا على خالق الأكوان. ويجب أن نتخلّى أوّلاً، وقبل كلّ شيء، عن عالم الغيب لنعيش في عالم الشهادة. وندخل باب العمل بموجب قوانين العقل والمنطق الصارمة، بدل أن نستسلم "للبلادة"[1]، وللإيمان بالغيب، بما فيه الأمل بحياةٍ غنيّة بالحور والقصور والجنّات والأنهار بعد الموت.

إلاّ أنّ مرض الأمراض الذي استحكم ويستحكم في حياتنا الثقافية، هو إيماننا بالغيب. هذا الذي استهوى عقولنا ومشاعرنا منذ فجر الإسلام، أي منذ أن جعله الله في القرآن شرطاً للإيمان لا يكمل إلاّ به: "ألم. ذلكَ الكتَابُ لا ريبَ فيهِ هُدًى للمُتَّقِينَ. الذينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ، ويُقيمون الصلاة وممّا رزقناهم يُنفقون" (٢ / ١-٣).

ولا أدلّ على أهميّة الغيب في الإسلام من ورود هذه الكلمة ٤٨ مرّة في القرآن. لقد حكمتْنا هذه الكلمة المشؤومة وما زالتْ، فأنهكتِ التاريخَ، وأنهكتِ الذاكرةَ، وارتهنتِ الإرادةَ، وكبّلتِ العقلَ بقيودٍ لا فكاك منها، وكانتْ مدداً للتافهين والعاجزين واللقطاء والمتسكّعين ومَن إليهم مِن سَدَنـة الهيكل ومؤجِّجي النار الآخَرِين.

وبمقدار ما كان القرآن عاملاً على تقدّم العرب وظهور

---

1 "يدخل في باب "البلادة الإسلاميّة"، **توقّفُ العمل في شهر رمضان**".

أمرهم وإسهامهم في العلم والحضارة، فقد كان منذ بداية عصور الإنحطاط عامل تخلف. لقد انتهى دورُه وقدَّم كلَّ ما كان في وسعه تقديمُه، ثمّ انكفأ على نفسه ليرتدَّ إلى الوراء ويرتمي في أحضان الماضي وعالم الغيب.

ألدِّين بطبيعته قبَسٌ من الغيب ودعوةٌ إلى الغيب، هذا في عز تقدّمه، فما قولكم في عصور التخلّف؟ لقد كان قبَساً من الماضي، ثمّ غدا دعوةً إلى الماضي وعراقة الماضي.

لا يمكن للمتديِّن أبداً أن ينسى الماضي، مسلماً كان أو مسيحياً. لقد كرّس القرآن الإيمانَ بالغيب تكريساً، لا نجد له نظيراً في الديانات الأخرى، إذ جعله مقدَّماً على سائر العبادات. هكذا جاء في مضمون الآية المذكورة سالفاً، فيحدّد "المتَّقين" بـ "الذينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيبِ"، أوّلاً، والذين "يُقيمون الصلاة"، بعد ذلك.

وآيات الغيب تتكرّر كثيراً في القرآن، فلا يكمل إيمان المؤمن إلاّ بالإيمان بالغيب. فإذا لم يؤمن بالغيب كان ناقصَ الإيمان، فإذا مات على هذه الحال مات على غير الإيمان -والعياذ بالله تعالى-. فالإيمان بالغيب شرطٌ لكلِّ إيمان، وإلاّ فلا إيمان.

لقد كان الإيمان بالغيب في أوّل أمره مجرَّدَ بندٍ من بنود الإيمان. لقد كان من أمارات الصحة والعافية، فأصبح عرضاً من أعراض المرض. لقد كان تبتّلاً، فأصبح ترهلاً. لقد كان باباً من أبواب الإيمان، فأصبح هو الإيمان وطريقاً إلى علوم العرفان. لقد كان دردشةً دينيّة حالمة، فإذا هو دروشة صوفيّة قاتلة. لقد كان عبادة، فأصبح إبادة.

لقد أفسَدنا عالَمُ الغيب منذ أعالي عصور الإنحطاط، وجعل منّا دراويش نترنّح في حلقات الحياة، كما نترنّح في حلقات الذكر، مُخصيِّي الكلمات والفكر، نمارس الركوع والسجود، والقيامَ

والقعود، نُعطي دروساً في التوكّل والتواكل وإسقاط التدبير، وندعو الله صباح مساء أن يَنصر المسلمين، ويقوّي وحدتهم، ويرفع بنيانهم، ويمحق دولةَ اليهود، ويشتّت شملهم، ويخرّب بنيانهم، ويجعلهم وما بين أيديهم غنيمةً للمسلمين.

لقد جفّتْ حلوقنا من كثرة الدعاء، وبريتْ أصابعنا بل وسُبّحاتنا من كثرة التسبيح، ولن نملَّ الدعاء، ولن نرعوي عن التسبيح. وسنظلّ ندعو اللّهَ وندورُ في حلقات الذكر، وندورُ بلا عقلٍ ولا فكر، ولا اقتحام للأمور.

نختلف على رؤية هلال رمضان وعلى ثبوت طلاق الثلاث، ولكنّنا نتّفق على الخضوع للسلطان واغتيال الأحرار والهرولة إلى إسرائيل، رغم الإذلال الذي توجّهه إلينا إسرائيل.

منذ أكثر من ألف عام وخطباء المساجد يسألون الله أن يَنصر المسلمين على أعدائهم. وسيظلّون يسألونه إلى يوم القيامة، ولن يتوقّفوا يوماً عن السؤال.

لقد آن لكم أن تدركوا أنّ الله -إذا كان لهذه الكلمة من معنى- ليس معنيًّا بكم ولا بأمثالكم. فله ما يُشغله عنكم. كيف يمكن لأيٍّ إلهٍ في هذا العالم أن يُزيل إسرائيل إذا كانت الحقائقُ الملموسة للحضور والامتلاك الإسرائيليّين في هذه المنطقة ظاهرة واضحة في هذا التوسّع المستمر الذي لا يردّه شيء؟

أي إله هذا الذي يستطيع أن يزجّ بنفسه في هذا الأَتّون المتفجّر من القوى وموازين القوى وعلاقات القوى لحساب أمّة تؤمن أنّ الله وحده هو قوّة القوى؟ إن هذا الأَتّون المتفجّر لا مثيل له في عالم الغيب، بل هو مجرّد مظهر واحد من مظاهر عالم الشهادة الذي طلّقتموه ثلاثاً، وأبيتم إلاّ عالم الغيب ملجأً لكم وملاذاً يعصمكم من عالم القوى!

لقد كان القرآن مثيراً كلَّ الإثارة منذ بداياته الأولى، وهو يكاد يكون بلا إثارة في نهاياته. لقد كان القرآن مُثيراً في حقائقه الضخمة وفي أوهامه وتهاويله معاً، ولكنه اليوم أكثر إثارة في أوهامه منه في حقائقه! ورغم الحضور القوي للقرآن في المجتمع والسياسة والاقتصاد والمعاملات والعلاقات العامّة والخاصّة، فهو حضور صوتي موسيقي أكثر منه حضوراً فعليًّا مؤثِّراً.

***

تهيمن على القرآن، وتتخلّل كلَّ صفحة من صفحاته عقيدةٌ راسخة في القضاء والقدر، لا يُخطئها البصر. ولئن كانت الآثار المدمِّرة لهذه العقيدة الإيمانيّة الأساسية غير ظاهرة في عصور الصعود -وإلاّ لم تقم لدولة الخلافة قائمة، ففي مواقف التحدّي والخطر يتخلَّى الإنسان عن أيِّ ارتباطٍ له بالقضاء والقدر، مهما كان إيمانُه بالقضاء والقدر- أقول: إذا لم تكن الآثار المدمرة لهذه العقيدة ظاهرة في فترات الصعود، كما تقدّم، فقد كانت واضحة جليّة في عصور الإنحطاط. بل لقد عجّلتْ بهذا الإنحطاط، واستقدمتْه قبل إيذانه ووقت أوانه. وهكذا صبّت جميعَ سمومها وإفرازاتها الفاسدة في نشاط المسلمين المتأخّرين وشلّت جميع حركاتهم.

ألقضاء والقدر لا يصنع سادةً بل يصنع عبيداً. ألقضاء والقدر لا يُقيم دولاً، بل دويلات وشراذم. ألقضاء والقدر لا يوحِّد، بل يشتّت ويفرّق. ألقضاء والقدر لا يُنشئ علوماً، بل جهالات. وهو لا يبني حضارة ولا عمراناً، بل يدمِّر الحضارة والعمران. فإذا رأيتَ أمّةً متقدِّمة وحضارةً زاهرة، وبلاداً عامرة، فاعلم أنَّ القضاءَ والقدر ليس له فيها نصيب أو أقلُّ نصيب.

خامس عشر

بربريّات القرآن

أعدى أعداء القرآن الثقة بالنفس والإيمان بالذات، تلك جريمة لا تُغتفر. "يَقُولُونَ: لَو كانَ لنَا مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنا. قُلْ: لَو كُنتُم في بيُوتِكُم لَبَرَزَ الذينَ كُتِبَ عَلَيهِمُ القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ" (٣ / ١٥٤). ليس المقاتلون هم الذين قتَلوا المشركين في حربهم معهم، إنما الذي قتَلهم هو الله وحده. بل حتى الرمي لم يكن النبي هو الذي رمى، بل الرامي هو الله وحده: "فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ. وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُمْ. وَمَا رَمَيتَ إذْ رَمَيتَ. وَلَكِنَّ الله رَمَى" (٨ /١٧). وحتى الأفكار والخواطر التي تحيك في صدري وصدرك لا سلطان لنا عليها: "واعلَمُوا أنَّ الله يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِه" (٨ /٢٤).

١. ألمشرك في القرآن ليس إنساناً، إنّه دون ذلك بكثير. فالقرآن ينظر إلى المشرك نظرةً بربريّة متخلّفة، بعيدةً عن أيِّ ذوقٍ فنيٍّ، أو تصوّرٍ حضاريٍّ متوازنٍ للإنسان: "يا أيُّها الذين آمَنوا إنما المشركون نَجَسٌ. فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَذَا" (٩ /٢٨).

وكم كنتُ أربأ بالقرآن أن يصف المشرك بأنّه "نَجَسٌ"، وهي كلمة نابية كنت أعتقد أنّ القرآن أكبر وأسمى من أن يذكرها بين مفرداته، فضلاً عن أن يُطْلِقُها على أحدِ خصومه. أنا أستحي أن ألفظَ هذه الكلمة، وأرفض أن ترد في كتاباتي رفضاً قاطعاً، فكيف أُطلقها على إنسانٍ مثلي له كلُّ الحقِّ في ممارسة حرِّيَّته في التفكّر وإبداء الرأي، مهما خالفَني هذا الرأي. أمّا أن يَنطق الله بهذه الكلمة

ويُنزِّل بها قرآناً من السماء نتلوه ونتعبّدُ به في صلواتنا وشعائرنا، فهذا ما لا أفهمه أبداً، ويجب تنـزيه الله عنه.

لقد كان من الممكن جداً استبدال هذه الكلمة بأخرى أكثر دلالة منها وأقل صفاقة لكي تنسجمَ مع ما يُنسب إلى القرآن من إعجاز لا تسمو إليه أذواقُ البشر ولا تبلغه قدراتهم ومواهبهم. أوَبهذه اللّفظة القذرة وأمثالها يريدنا القرآنُ أن نتصوَّر غيرَنا ونصنع مشروع نهضتنا؟ أوَبهذه اللّفظة القذرة يقرّر لنا القرآن مستقبلَ علاقتنا بالآخَر، وطريقةَ تعاملِنا مع الآخر، لا لشيء إلاّ لأنّه مجرّدُ آخَر، مخالِفٌ لنا في الدين والعقيدة؟ لقد صحّ قول القائل: "ألغرض مرض"! حقاً الغرض مرض حتى الله لم يَسْلَم منه!!

وليت الأمر اقتصر على هذا. فإلى جانب هذه البربرية القرآنية بربريات أخرى لا تقلّ عن هذه خطورة أهمها:

٢. الإستخفافُ بالمرأة والنظر إليها على أنّها مجرّد حرث للرجل، أي مزرعة "نِساؤُكُم حَرْثٌ لكم فَأتوا حَرْثَكُم أنَّى شِئْتُمْ" (٢ /٢٢٣).

٣. وقطْعُ يد السارق والسارقة: "والسَّارِقُ والسَّارقةُ فاقْطَعوا أَيدِيَهُمَا جَزَاءً بما كَسَبَا" (٥ /٣٨).

٤. وقتْلُ أسرى الحرب: "مَا كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أَسْرَى حتّى يُثْخِنَ في الأرضِ" (٨ /٦٧).

٥. وجلْدُ الزاني والزانية، بل رجمُهما بالحجارة، وعلى رؤوس الأشهاد، حتّى يموتا:"ألزَّانِيَةُ وَالزَّاني، فَاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منْهُما مِئَةَ جَلْدَةٍ، ولا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأفَةٌ في دينِ الله إنْ كُنتُم تُؤمِنونَ بالله واليومِ الآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طَائِفَةٌ مِنَ المؤمِنِينَ" (٢٤ /٢).

٦. والطلاقُ الثلاث: "ألطَّلاقُ مَرَّتَان: فإمساكٌ بمعروفٍ، أو تسريحٌ بإحسانٍ.. فإنْ طلَّقها [مرّة أخرى] فلا تَحِلُّ له مِنْ بَعْدُ حتَّى تَنْكِحَ زَوجاً غَيرَهُ" (٢ /٢٢٩-٢٣٠)[1]...

***

لقد قبل المسلمون الأوّلون ذلك كلَّه، بل وأكثر من ذلك، ولم يُبدوا أي معارضة أو تمرّد. حسب ذلك أن يكون من السماء ليخرّوا للأذقان سُجَّدا. تُرى، كيف عسانا ندخل القرن الجديد والألفيّة الجديدة بهذه الأوضار والأطمار والأوزار، بهذه البربرية التي أورثنا إيّاها القرآن وتواطأتِ السماء والأرض على تكريسها فينا، بهذه العقليّة المتخلفة التي جمدت على الزمن وبها توقفت حركة الزمن، الزمن العربي الذي كان مفخرة الزمن، ثم هوينا وهوى معنا الزمن. فيا حسرتي على عصر مضى وانقضى! ويا لوعتي على ذلك الزمن! فهل يعود الزمن؟ هيهات هيهات! فلن ترجع عقارب الزمن!

---

1 يُسيء المسلم إلى نفسه وإلى أولاده بما ينال من سمعتهم، إنْ هو طلّق امرأته التي لا يستعيدها إلاّ بعد أن تنكح غيرَه، وتذوق عُسَيلَته، على حدّ قول محمّد!

ألفصل الخامس

أللّــه في القــرآن

مقدّمة - وجود الله وعدم وجوده سيّان

أوّلاً - صفات الله في القرآن

ثانياً - ألله وإبليس وجهان لعملة واحدة

ثالثاً - ألله الرحمن الرحيم

رابعاً - ألله قريب مجيب

خامساً - ألله خير الرازقين

سادساً - وما النصر إلاّ من عند الله

سابعاً - ألله يُقحم نفسه في كلّ شيء

ثامناً - ألله القادر القاهر

تاسعاً - مع الله على الإنسان أن يلزم حدَّه

عاشراً - ألله، إله بلا فاعليّة

مقدِّمة

وجود الله وعدم وجوده سيّان

الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا معنى، بلا أسطورة تعطي لحياته معنى. إنّ أسطورة الأساطير هي الإيمان بالله (أو الآلهة). فمع أنّ أحداً لم ير الله، ومع أنّ العقل عاجز عن إثبات وجوده أو نفيه، ناهيك بالعلم الذي لا يتعرض لله إثباتاً ولا نفياً، لأنّ ذلك ليس من اختصاصه، مع ذلك فإنّنا جميعاً نسلّم بوجود الله تسليماً أعمى، بل نؤكّد أنّ وجوده هو إحدى البديهيّات التي لا تحتاج إلى دليل.

إنّ فكرة الله فكرة قديمة في الإنسان، ولكن هذا القدم لا يدلّ على شيء، بل لئن دلَّ على شيء فإنما يدلّ على حاجة الإنسان إلى السَّنَدِ والأَمَلَ والمَعْنَى. إنّه يصعب عليه أن يتقبّل حقيقته كما هي، بلا أطياف ولا هالات ولا وعود ولا أخيلة وامتدادات تصله بالمصدر الأسنى والمقصد الأسمى. فهو في نظره حقيقة لا بدّ منها.

والحقُّ إنّنا لا نستطيع تعريف الله بمصطلحاتٍ حاسمة بالغة الوضوح. فالإنسان في هذه المسألة يتحسّس طريقه في الظلام. أللهُ هو في الحقيقة من أوضح الأشياء ومن أشدّها غموضاً. إنّ كلّ شيء في هذا العالم يوقظ فينا إحساساً عميقاً بالله وتأمّلاً عميقاً في خالق هذا الكون. فالعقل لا يستطيع إثبات وجود الله. كلاّ. ولا يستطيع أيضاً وبالمقدار ذاته نفي وجوده. ومن هذه الناحية فالله سرٌّ، وكلُّ ما يستطيع العقل فعله هنا محصور في إزاحة هذا السرِّ إلى الوراء قليلاً.

ائْتِنِي بدليلٍ على وجود الله، وأنا آتيك بعشرة أدلّة على نفي وجوده. ائتِني بدليل على نفي وجود الله، وأنا آتيك بعشرة أدلّة على وجوده. تَعَادَلا فَتَسَاقَطَا، كما يقول الفقهاء. فالعقل قادر على الإثبات قدرته على النفي. وإذن فالعقل هنا لا يُجدي نفعاً. وستظلّ هذه المسألة معلّقة إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين.

والغريب أنّ الإنسان يخدع نفسه بنفسه ليؤمن بالله. إنّه في حاجة دائمة إلى السَّنَد، كالطفل يحتاج إلى الأبوَين، يخشى مفارقتَهما، ولا يطمئن إلى أحدٍ غيرهما. فتراه في خوفٍ دائم من أن يبتعد أحدُهما عنه. فإذا اضطرًّا إلى تركه في البيت وحده، ملأ الدنيا صراخاً. وكم تكون مأساته كبيرة إذا استيقظ في اللّيل، واكتشف مرّة أنّهما خاناه وتركاه وحيداً. والطامة الكبرى أن يحاول فتح الباب الذي أَحكما إغلاقَه من الخارج فيجنُّ جنونه، وقد يلقي بنفسه من النافذة دفعاً للخطر، فيقع في خطر أكبر.

وربما كان عن هذا الشعور بالحاجة إلى السَّنَد نشأ الإيمان بالله، أو على الأقل كان هذا الشعور أحدَ الروافد التي تضافرت على تغذية الإيمان بالله. وكلما تقدم الإنسان (العادي) في السنِّ ترسَّخ فيه هذا الإيمان. فالكبير في هذه الحالة حكمه حكم الصغير. كلاهما في حاجة إلى السَّنَد. هذه الحاجة هي في أساس الإيمان بالله. لذلك لا يجد أيَّ صعوبة إذا قلتَ له إنَّ الله موجود. فتراه يفتعل الأدلّة على وجوده تلو الأدلّة ويتفنّن في ذلك إلى غاية المدى.

وما أكثر الأخطاء التي يقع فيها لإنقاذ هذا الإيمان. ولحسن حظِّه أنَّه لا ينتبه إلى هذه الأخطاء، بل إنّك إذا نبَّهتَه لها فإمّا أن يثور في وجهك، أو ينصرف عنك وهو ساخط عليك. لقد أفحمتَه، ومع ذلك يظلّ متمسِّكاً بإيمانه من غير أن يسمح لك بالإستمرار في

الجدال. لقد هدَّدتَ وجودَه كلَّه، فمن الخير إيقافك عند حدِّك وعدم الإسترسال ف يما أنت فيه.

كلُّ ما في الدنيا من أدلّة وبراهين، وكلُّ ما في جعبة الفلاسفة والمفكّرين الفحول من اعتراضات ومآخذ على وجود الله. كلُّ ذلك لا يكفي لنفي وجوده، كما لا تكفي أضدادها لإثبات وجوده.

لقد قلتُ ذلك أكثر من مرّة، وقد أعيد قوله لترسيخه في الأذهان المرّة بعد المرة. فليس في بضاعة العقل ما يُغني في هذا الباب، فكفُّوا عن هذا العبث الضائع، وانصرفوا إلى أمور أكثر جدّيّة

نحن نؤمن بالله أوّلاً، ثمّ نصطنع الأدلّة والبراهين لإثبات وجوده، لإرضاء نفوسنا وإشباع حاجتنا إلى السَّنَد، ولتحقيق ذاتنا الميتافيزيقيّة التي لا تكفُّ عن السؤال والتساؤل والتسآل، فنحن نعيش في قلب الوجود الميتافيزيقي للعالم، بل في صميم دراما هذا الوجود ونوقّع على أوتار مأساته الحزينة.

حسبنا هذه الصُبابة الميتافيزيقية البريئة، هذا الحنين الكوني إلى "المصدر الأسمى والمقصد الأسنى"، لنجعل الوجود مقبولاً. هذه الشعلة حرام أن تنطفئ. فهي دعامتنا في الوجود، وهي سبيلنا إلى قبول وضعنا في الوجود.

وإذا كانت فكرة الله فكرة بديهيّة واضحة عند البعض، فإنّها فكرة شديدة الغموض عند البعض الآخر، من غير أن يكون في ذلك نفي أو إثبات لوجود الله. والأمر مرهون بثقافةِ هذا البعض أو ذاك، وبمستواه العقلي، ونموه النفسي، وتوجّهه الروحي.

سواء كان الله موجوداً أو غير موجود فالكون ماضٍ في طريقه، سائر بمقتضى قوانينه الخاصّة، كلُّ شيءٍ فيه يعمل بقواه

الذاتية، بلا خالق، بلا عناية، بلا غاية ولا غائيّة، بلا تدخّل خارجي أيًّا كان.

وكذلك الإنسان. فإذا كانت الأشياء تستغني بذاتها عن أيِّ تدخلٍ خارجيّ فهو أوْلى بذلك، فضلاً عن أن كثيراً من الدلائل تدلّ على ذلك، فأحرى به أن يكون هو الذي خلق الله بدلاً من أن يكون واحداً من خلْق الله. فلا حاجة به إلى خالق أناني غاشم توارى عنّا وأوجب علينا معرفته وعبادته بالغيب من غير أن تكون له الجرأة لكشف ذاته، فلجأ إلى طرق وأساليب ملتوية غير ملزِمة ليثبت لنا وجود ذاته.

وذلك لاعتمادها على أقاويل وشهادات ومزاعم وأساطير يدلي بها أفراد قلائل، أي أنبياء، لا يعلم أحد مدى صدقهم عندما يدّعون أنهم يُكَلَّمون من السماء ويتكلمون باسم السماء [1].

أنا حتّى الآن لم أفهم أيَّ معنى لوجود الله ما دام الله لا يحرّك ساكناً ولا يترك أثراً. ألمعنى الوحيد لوجوده معنًى نفسيٌّ، أيّ أنّه يملأ فراغاً كبيراً في النفس لا يملؤه غيره، لأنّ الإنسان كائن ميتافيزيقي بالطبع، هذا كلّ شيء. فلو لم يكن الله موجوداً لوجب إيجاده. وهذا ما حدث بالفعل. نحن خلقنا الله لا العكس.

ولقائل أن يقول: وهذه الشمس والقمر، وهذه النجوم والكواكب، وهذا النظام العجيب الذي يُسيِّر الأشياء والأحياء، هل كل ذلك لا يدلّ على شيء؟ هل كل ذلك وليد المصادفة؟ هل يمكن أن يكون الحادث بلا مُحدِث؟ والمصنوع بلا صانع؟ والمخلوق بلا

---

1 والغريب أنّ مصير الإنسان وخلاصه "بعد هذه الحياة الفانية"، رهن بتصديق دعاوى لا تصمد أمام النقد. إنها مجرّد وعود يجد الإنسان متعة لا توصف في تصديقها لأنّها تزيح عنه كابوس الموت ولا تضع نهاية لوجوده. فالحياة مفتوحة أمامه إلى الأبد. فالموت هو مجرّد عملية انتقال من عالم إلى عالم. إنّ أحاديث الأنبياء عن الحياة بعد الموت هي أحاديث ضعيفة، لا سند لها ولا علم فيها.

خالق؟ كلّ ذلك كان كذلك منذ الأزل وسيظلّ كذلك إلى الأبد.

أنا لا أرى الله في هذه الأشياء الرتيبة، هذه الحجارة التي لا تحسّ ولا تعقل، أنا إنما أريد أن أراه في الإنسان الذي لا رتابة فيه، والذي تنعكس عليه وحده آثار التدخّل الإلهي مهما كان هذا التدخّل طفيفاً، إذا صح وجود مثل هذا التدخل.

أكتفي هنا بالسؤال: هل أطفأ الله حريقاً؟ هل أنقذ غريقاً؟ هل شفى مريضاً؟ هل أطعم جائعاً؟ هل كشف ضرًّا؟ هل فرّج كرباً؟ دلّني على بصمة واحدة هنا من بصمات الله، أو أي أثر في أحداث العالم، فأوقف ما كان متحرِّكاً وحرّك ما كان ساكناً؟ وإلاّ فكلُّ ما في الكون من سمواتٍ وأرضين، ونجومٍ وكواكبَ، وكمالٍ وجمال، ونظامٍ وآلهة... لا يساوي دمعة تنهمر من عين أمٍّ ترى ابنَها في حضنها يتلوّى من الموت جوعاً وهي لا تستطيع أن تفعل له شيئاً!

فلا كان كونٌ، ولا كانت آلهةٌ، ولا كانت حياةٌ إذا كانت جميع الكوارث ستنصبُّ على رأس سيِّد الكائنات. أكاذيب وأوهام يراد لنا أن نصدّقها وإلاّ فالنار مثوى لنا. إن كلّ هذا لا يعني لي شيئاً إذا كنتُ لا أجد لقمةَ خبز أسدّ بها جوعتي، أو قطرةَ ماء أروي بها عطشي. فبئس مِن كونٍ لا يساوي لقمة خبز او قطرة ماء.

ما معنى هذا الكون الواسع إذا كنتُ لا أجد لي فيه مكاناً؟ أيُّ نظام هذا الذي يتشدّقون به، وسيِّد الكائنات وحده يعاني من فوضى النظام وسوء استعمال النظام؟ أيُّ إلهٍ هذا الذي عنده خزائن السموات والأرض وليس عنده ما أقتات به فأموت كأيِّ حشرة من غير أن يعبأ بي؟

إنّ جميع هذه المآسي ما كانت لتقع لو كان لوجود الله أي ظل من الحقيقة، ما لم يكن شريكاً في اللعبة موجهاً لها، متورطاً فيها غاطساً إلى الأعماق. كل ما يهمه الحجارة والشهب والغبار،

والنجوم تقذف بالحمم. هل هذا من الحكمة في شيء، أم هو العبث والسخرية والعدم؟

إذا كان الله غير عابئ بي ولا يبدي أي اهتمام بمصالحي وحاجاتي، فلماذا أشغل نفسي به؟

كثيرون تحدثوا عن الله وغاصوا في هذا الحديث إلى الأعماق... ومع ذلك، فإنّنا لا نزال في مكاننا ولم نتقدّم خطوة واحدة إلى الأمام. وحتّى "الكتب المقدسة" المنسوبة إلى الله، فإنّها عاجزة عن إثبات حقيقة وجوده.

فالناس يؤمنون بالله بمشاعرهم وقلوبهم، ثم يسوقون العقل كالبهيمة لخدمة هذا الإيمان، ظانّين أنّ ما يصلون إليه صادر عن العقل. وما دام صادراً عن العقل فمن الواجب تصديقه. هذا هو لب جميع أدلة العقل على وجود الله.

***

إذا هوى الله، إذا خرّ السقف هوت الخيمةُ كلُّها بمن وما فيها، هوى الأمل والأنشودة، وهوت الأطياف والأحلام، وهوت الحياة بعد الموت، وجلجل صوت الفناء! فللمؤمن مصلحة في الإيمان بالله، كما لأعضاء الحكومة مصلحة في بقاء رئيس الحكومة، فإذا سقط الرئيس سقط المرؤوسون. هذا ما يدفع المؤمن إلى التمسك بإيمانه وعدم التخلّي عنه.

لا أحد يريد أن يتقبل وضعه وينحني للأمر الواقع، لذلك يخلق لنفسه امتدادات تترامى بعيداً وراء هذا الواقع ترامي الأمل في البقاء، إنّه لا يريد أن يموت رغم أنّه يموت، ومن هنا اخترع مقولة أنّ الموتَ باب لحياة جديدة واستئناف لحياة جديدة هي الحياة الحقيقية.

فالدنيا دار ممرّ، والآخرة دار مقرّ. فتزّودوا من ممرّكم لمقرّكم، وتأهّبوا لحسابكم وعرضكم على ربكم. الدنيا دار الشقاء والآخرة دار البقاء. لقد كانت مقولة واعدة تغلغلت في أعماق الوجود الإنساني، إن دلت على شيء فإنما تدل على رفض الفناء والتشبث بالبقاء.

المؤمن لا يستطيع التوقف عن الإيمان، لأنّ ثمّة دوافع قويّة وراء إيمانه. فإنّ أخشى ما يخشاه الفناء. لا بأس أن يموت إلى أجل، وأمّا الموت إلى الأبد فهذا ما لا يستطيع تصوّرُه. هذا ما يمنعه من التفكير في الفناء. أعرفت السر؟

محاولات مستمرة للإبقاء على الإيمان، وبالتالي لتأمين الخلود ورفض كل ما يتعارض مع الخلود. الإنسان مستعدّ للتعلق بحبال الهواء لإثبات ما يريد، لإثبات ما يرى فيه سعادته، إنّه مستعد لاتّهام نفسه دون ربه، حتى لا تنقطع الجسور بينه وبين ربه.

وليس كالأوهام ما يُبقي على هذه الجسور بينه وبين ربه!

لا خيار أمام المؤمن بالله إلاّ أن يؤمن به، ولا سيّما عندما تكون جميع الآفاق مسدودة في وجهه. وإنّي لأشفق عليه أنْ أطلب منه التوقف عن هذا الإيمان، فهو وحده الكفيل بفتح جميع هذه الآفاق. لكن أخْوف ما أخاف عليه بلادة الإيمان وغيبوبة الإيمان.

دعوا الناس في غفلاتهم...

من المستحيل على المرء أن يتحرّر من الأوهام والأساطير تحرّراً تامًّا. إنّها خشبة الخلاص حيث لا خلاص. إنّها جزء من الطبيعة الإنسانية التي ترى في الأوهام والأساطير متّسعاً لا تراه في الحياة على الأرض، مُرُّها يَزيد أضعافاً على حلوِها... ألله هو الوهم الأكبر، ولذلك فهو الملاذ الأكبر. المؤمنون يحاربون بسيف

الله، ومهما هُزموا فإنّهم لا ينفكّون عن الإيمان بنصر الله. فإذا كان هذا النصر مشكوكاً فيه في الدنيا، فإنّهم سيرونه عين اليقين في الآخرة، فلم العجلة والعاقبة للمتّقين؟

يعتقد الكثيرون أنَّ حجَّة المنكِرين لوجود الله تتلخص في عدم رؤيتهم له وهذا من أفدح الخطأ. فعدم رؤية الشيء ليس حجَّة على عدم وجوده. ولا يقول بذلك عاقل. ففي هذا العالم أشياء لا حصر لها ليس من الممكن رؤيتها، كأمواج الراديو وأمواج الصوت واللاسلكي والأشعة فوق البنفسجية وما تحت الحمراء والذرّات والميكروبات... إلخ. ومع ذلك فإنَّ أحداً لا ينكر وجودها. إن رجال الدين يستشيطون غضباً وتنتفخ أوداجهم عندما يلتقون شخصاً لا يؤمن بالله لأنّه لا يراه، فيقولون له ساخرين: إذن أنتَ تنكر مدينة بيكين لأنك لم تذهب إليها!!

إنّ انكار وجود الله ليس على مثل هذه الدرجة من البساطة، وإلاّ كان المنكِرون صبيةً أغراراً، أو مجموعةً من التافهين المهرِّجين العابثين! فالذي ينكر وجود الله لا ينكره فقط لأنّه لا يراه، بل هذا آخر ما يخطر بباله. إنّه إنما ينكر وجوده:

لأنه لا يستطيع أن يتصوره،

لأنه لا يستطيع أن يفهمه،

لأنه لا يجد في أي مكان في هذا العالم شاهداً على عقله أو على تدخله في هذا العالم أو على آثاره أو على حبّه،

لأنّ كلَّ شيء في هذا العالم يجري وكأنه متــروك لذاته ليس محكوماً بغير قوى الطبيعة وقوانين عمل الأشياء.

***

"أفي الله شك، فاطر السموات والأرض؟" (١٤ /١٠). نعم

في الله لا شك واحد فقط، بل فيه شكوك وشكوك، ولا تنتهي في حقّه الشكوك. فما أكثر الشكوك فيه سبحانه! إن كل ما قيل وكُتب وفُلسف للبرهان على وجود الله ليس له أي قيمة أو وزن. بل يمكنني أن أقول إنّه عبث في عبث.

يقولون إنّ الإيمان بالله بديهيّة طبيعية وضرورة عقليّة ملازمة للفطرة الإنسانية لا يتطرق إليها الشك. فلو كان ذلك صحيحاً، فلِمَ أجهدَ الفلاسفةُ ورجالُ الدين عقولَهم وأقلامهم، وأفنَوا شبابهم وشيبتهم، ولا يزالون يعملون لإثبات شيء بديهي ثابت وواضح؟ إنَّ أحداً لا يتصوّر ولا يخطر له على بال أن يكتب كتاباً ليثبت أن الشمس موجودة. إنّ أحداً لا يتصوّر ولا يخطر له على بال ليعلن أن الشمس غير موجودة.

إن الناسَ لم يتنازعوا يوماً ولم يرتكبوا المجازر والاضطهادات ولم يُنـزلوا يوماً ألوان العذاب في المنكرين لوجود الشمس. فإنَّ كلَّ إنسانٍ في مقدوره أن يرى الشمس بلا تلقينٍ ولا تعليم. حتى الأعمى يدرك وجود الشمس والخدمات الجلّى التي تسديها للإنسان وللأرض التي يعيش عليها الإنسان. لو كان وجود الله واضحاً وضوح الشمس لا يقبل الجدل، فَلِمَ الخوض في وجوده وعدم وجوده للبرهنة في نهاية المطاف على حقيقة وجوده؟ فلا برهان إلاّ في حال الشك، فما لم يكن شكٌّ لم يكن برهانٌ لإزالة الشك.

نعم في الإنسان نزوع إلى السَّنَد وحاجة شديدة إلى السَّنَد، وهذا الشعور يقوى كلما قويت مسبباته، وليس الله وحده هو السَّنَد، فالأب سند، والأم سند، والمال سند، والأمل سند... والله أحد أشكال هذا السَّنَد. السَّنَد حاجة نفسية ذاتية لا تدل دائماً على واقع موضوعي، إنّها إنما تدلّ على قلق ميتافيزيقي في أصل الوجود

الإنساني. فالإنسان هو، أوّلاً وقبل كلِّ شيء، كائنٌ ميتافيزيقي أكثر منه مجرّد كتلة فيزيقية من اللحم والعظم والدم.

لا دليل على وجود الله ولا حاجة إلى الله، وكلُّ شيء في هذا العالم يجري وكأنّ الله مجرّد إضافة ابتكرها العقل لسدِّ ما يراه في العالم من ثغرات وما يصادفه من خيبات الأمل.

وبذلك يكون السَّنَد ملاذاً للفقراء والضعفاء والمساكين والمحرومين الذين لا يجدون مكاناً في هذا العالم، فاخترعوا لهم كائناً ظنُّوه أكثرَ حدباً وحناناً. في حماه الأمن والأمان والسلم والسلام. ولمّا لم يجدوا عنده شيئاً غيرَ الفشل وخيبةَ الأمل لم يتولّوا عنه معرضين، بل ظلوا له عاكفين. وإلاّ فأينَ عساهم يذهبون؟

لقد سُدّت جميع الأبواب في وجوههم، إلاّ شبه بابٍ في أحد الأطراف ظنّوه باباً حقيقيًّا، ولم يخطر لهم على بال أنّه من اختراعهم وصنع أيديهم خلقَه اليأسُ وخيبةُ الأمل في الواقع المرّ الذي وجدوا أنفسَهم فيه. إنّه من أحلام اليقظة، حلم جنَّة عدْنٍ، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إنّها الحور جاءت لاستقبالهم والترحيب بهم. سحر. والسحر إذا استمكن من النفوس كان أوْلى من الحقيقة وأجدرَ منها بالتصديق والإيمان.

هكذا تفعل الأطياف والأوهام.

كلّنا ضحايا الأطياف والأوهام، وكلّنا نعبد الأصنام. كلّنا سدنة الهيكل، وكلّنا نؤجج النار لتغذية الأحلام واستمرار عبادة الأصنام. ففي عبادة الأصنام دفء لا نجده في عالمٍ مُرٍّ عَصيٍّ متمرِّدٍ شحيح، مهما قيل فيه فإنّه يظلّ عالماً متماسكَ القوام، لا تلين قناته إلاّ بعد أن تنقضي الآجال!

***

لكن ذلك كله لا يعني -وأقولها للتاريخ وإبراءً للذمّة، ورغم كل ما شطح بي القلم به بعيداً عن الجادة- أن الله غير موجود. إن كل ما يعنيه أن جميع الأدلة التي وضعت لإثبات وجود الله مليئة بالثغرات والمطبات والمغالطات والتلفيقات والقفزات والبلهوانيات وأعمال الخفة والمصادرة على المطلوب، والدوران، لا في حلقة مفرغة واحدة فقط، بل في متاهات من الحلقات المفرغة، فيها خبط كثير وتعسف أكثر.

فمسألة وجود الله هي في حد ذاتها مسألة عصية على البحث لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام منذ نشأة الإنسان حتّى الوقت الحاضر، فقد تقدّم الإنسان تقدّماً هائلاً في كلّ شيء إلاّ ههنا، بحيث لا يستطيع المرء في هذه المسألة أن يقطع الرأي أو يصل إلى نتيجة حاسمة.

فإن الأدلة على وجود الله لا تزال مبتسرة مبتورة غيرَ كافية. فالله من خلال هذه الأدلة لا يزال فكرة غائمة لا تدل على شيء وليس لها أيُّ مضمون إيجابي. وإنّ ما تنطوي عليه من تهافت يشجع كثيراً على إنكار وجود الله.

فكل ما بين أيدينا من أدلة وبراهين على وجود الله لها ظاهر برّاق من البرهنة والإستدلال دون حقيقتهما. أي إنّ العيب في الأدلة لا في حقيقة الوجود الموضوعي لله في ذاته. فقد يكون الله موجوداً حقًّا، وقد لا يكون. وذلك على حدٍّ سواء، بلا ترجيح لأحد طرفي المعادلة على الآخر.

وبناء على هذه "الأدلة"، فللإنسان الحق المطلق في إثبات وجود الله كما في نفيه ما دام هذا الوجود قلقاً مزعزعاً يفتقر إلى الرسوخ والتماسك. وهكذا فإذا قلتُ إنّ الله غير موجود، فإنّ كلّ

مرّة أنطق فيها بهذه الكلمة، فإنما أعني -ومهما بدا ذلك متناقضاً مع أقوال أخرى سابقة لي- أنّي أتّهم أدلة الإثبات المعتمدة للبرهنة على وجوده، من غير أن أعرض بحال من الأحوال لحقيقة وجوده الذاتي، لا سيما وإنّ القلبَ يشارك العقلَ في الإثبات بحيث لا نستطيع أن نتبين فيها على وجه الدقة حصَّةَ العقل وحصَّة القلب، وأين يبدأ أحدُهما وأين ينتهي الآخر. فللقلب مطالب ونوازع قد تخفى على العقل، وللعقل صرامة وجفاف ينفر منهما القلب. وهكذا يختلط العقل بالقلب، فيتبنّى العقل منازع القلب، وينعطف القلب في مجاري العقل فيسوقه صاغراً في مراده، في تفاهم سرّيّ وتواطؤ خفيّ بين العقل والقلب.

وللحقيقة أقول إنّ مسؤولية الإنكار أكبر كثيراً جدًّا من مسؤوليّة الإثبات. فإذا كان العقل عاجزاً عن إثبات وجود الله فإنّه أكثر عجزاً عن إثبات نفيه، لأنّ مساحة النفي تظلُّ أكثر شمولاً وأغنى مضموناً من مساحة الإثبات. وإنّ أدلّة الإثبات، مهما كان عددها، تبقى محدودةً بحدود المعرفة الإنسانيّة، في رقعة معيّنة من الزمان (منذ نشأة الإنسان حتى الآن) والمكان (عالم الأرض) أو الزمكان.

وأمّا النفي فإنّه لا يكتفي بهذه الرقعة المحدودة من الزمكان. فإذا كان الإثبات مجرّد جولة أفق واحد، فإنّ النفي هو جولة آفاق لا تنتهي: لا الآن وعلى الأرض فقط، بل الآن وكلّ آن، وعالم الأرض وكلّ ما سوى عالم الأرض أيضاً. إذ قد يكون في زمكانٍ ما، عند جيراننا الأقربين أو الأبعدين المتناثرين هنا وهناك على كواكب أخرى في هذا الكون الفسيح، معطيات وحقائق لا تزال خافية علينا قد يكون فيها عون لنا في هذا المضمار.

***

وأعود فأقول: إنّ هذه الأدلة لا تعطي إلهاً، إنما تعطي سَيلاً متدفّقاً من الأحاسيس والوجدانات والآمال العذبة. إنّها لا تثبت شيئاً له مضمون موضوعي. وإذا كان لها أن تثبت شيئاً، فإنّ كلّ ما تثبته هو ضعفُ الإنسان، وإيقاظُ شعورِه بالعجز، وحاجتُه إلى السَّنَد، وتسخيرُ جميع أدلّة العقل والقلب لإثبات وجود هذا السَّنَد، ووجهُ الحيلة في دفع ما يعارض حقيقةَ وجود هذا السَّنَد، إمعاناً في البراءة المقدّسة التي تتشبث بالأمل ولا تحيا إلاّ بالرجاء والارتجاء.

هذا عالم الأطياف، وهو عالم معطَّر فوَّاح بالشذى والأريج يرفل فيه المؤمن ويتبوّأ منه حيث يشاء. إنّه لا يريد أن يُقرَّ بعجزه، فكلّ شيء طوع بنانه في عالم سيّال من الرؤى والأحلام. فإنما أمره فيه "إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون". لقد نسج من حوله نسيج العنكبوت ليعيش، و"إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت".

***

هذه هي معجزة الإنسان ؛ ومعجزة البقاء لدى الإنسان. فالبقاء هو في أساس وجود الإنسان. وما الجنة والنعيم، والحور العين، وما إلى ذلك من أساطير الأولين، سوى مراتع لهذا الكائن البائس المعدم الذي نطلق عليه اسم الإنسان.

إن الله الذي يؤمن به هذا الإنسان لم يقدّم له شيئاً في أيّام محنته. إنّه لم يُلبّ له مطلباً، ولم يقضِ حاجة، ولم يسدّ له جوعة، ولم يشف له مرضاً، بل تركه يتلوّى في الألم والشقاء من غير أن يحرّك ساكناً، فانثالت الوعود عليه من كل حدب وصوب، ومنّى النفس بالحور والنور والأحلام الذهبية، لا في هذا العالم الشرير الذي لا يساوي عند الله جناح بعوضة، بل في عالم مثالي آخر غير هذا العالم، لا مكان فيه للجوع والدموع والزفرات والعبَرَات. فما

أقدره وقد عاد من عند ربه والحياةُ كلُّها نعيم وألوان وألحان وموسيقى، عامرة بمواكب البهجة واللّذة والحبور، وكواعب كأمثال اللؤلؤ المكنون، يَلُذن بالغنج اللعوب والدلال وغمز الجفون.

أرأيتَ إلى آليات البقاء تتحرّك فيه لتمكِّنه من الوجود، وتجعلَه راسخ الوجود! لقد تعطلت فيه جميع مغريات الوجود، ومع ذلك لم يتضعضع له ركن، ولم يهن له عظم، ولم ينضب له معين. واستقوت فيه حوافز الوجود. فما أصبره على ما رثّ وهان من الوجود، وما أقدره على اصطناع الوجود، وتبرير آفات الوجود، تشبثاً بأذيال الوجود!!

يا كاشف الأسرار، يا عارفاً بالوجود، كن منعماً عرِّج على معنى الوجود، وأطلعني طلع الوجود، أنا عاشق متيَّم بالوجود. ليت شعري ما الوجود؟ لقد عظُم السؤال وعزّ الجواب، بربِّك قلْ لي ما معنى الوجود؟ تُرى هل للوجود معنى؟ أم هو العبث سيّد الوجود؟

الملعبُ معلوم، واللاّعبُ مجهول، واللّعب سجال بين معلوم ومجهول. دُمىً تتحرّك، وأشباح تتراكض، واللّعبة تجري من وراء حجاب. إنّ أحداً لم يتمكّن من الإمساك بأطراف اللّعبة، أو بخيطٍ من خيوطها، مع أنّنا نحن أبطالُها، وجزء لا يتجزّأ منها.

تاهت العقول، وشاحت الوجوه، وحارت الأذهان، وانصبّت اللّعنات على هذا الإنسان، وهو سيّد الأكوان.

عجيبٌ أمرُ هذا الإنسان!!!

أوّلاً

صفات الله في القرآن

ألله في القرآن من المسلّمات التي لا يمكن للمؤمن أن يتخلّى عنها "أَفي الله شكٌّ فِاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ" (١٤ /١٠). لذلك لا يهتمّ القرآن بإثبات وجوده بمقدار اهتمامه بالوحدانيّة ونفي الشريك عنه. لكنّه ينبّه كثيراً لآياته المتناثرة في الكون، وإن كانت هذه الآيات، على كثرتها، لا تعني شيئاً من وجهة التفكير الخالص. إنّها لا ترقى أبداً إلى مرتبة الدليل القطعي، وإن كانت، عند العامة، فوق مستوى القطع. إنّها مجرّد علامات وإشارات ومعالم على الطريق يمكن للمرء أن يقرأ فيها ما يريد، ويكتشف فيها ما يتمنّى، تبعاً لحاجاته النفسيّة، ونزوعه الروحي، وفلسفته في الكون والحياة والمصير.

والله في القرآن متَّصف بجميع صفات الكمال، منزَّه عن جميع صفات النقصان:

فردٌ، قدوسٌ، صَمَد، ربٌّ واحدٌ أحد، لا صاحبةَ له ولا ولد، عالِمُ الغيب والشهادة، على كلِّ شيءٍ قدير. هو الأوّل والآخِر، الظاهر والباطن، بديع السموات والأرض. ألقويُّ الحكيم. "هُو الله الذي لا إلهَ إلاّ هُوَ، المَلِكُ القدُّوسُ، السَّلامُ المؤْمِنُ المُهَيمِن، العزِيزُ الجبَّارُ المُتَكَبِّرُ، سبحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُون. هُوَ الله الخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ. لهُ الأسماءُ الحُسْنَى" (٥٩ /٢٣-٢٤). "خَالقُ كلِّ شيءٍ" (١٣ /١٦). "وَهُوَ القاهرُ فَوقَ عِبَادِه" (٦ /١٨ و٦١) ؛ بل "سُبْحَانَهُ هُوَ الله الوَاحدُ القَهّار" (٣٩ /٤)...

وهي، كما ترون، صفاتٌ إيجابيّةٌ آحاديّةُ الجانب، لا تكفي وحدها لتفسِّر كلَّ شيء في هذا العالم. هذا إذا صحّ أنّ الله هو خالق العالم. إنّها كمالاتٌ ومُثُلٌ ومطلقاتٌ عاجزةٌ عن تفسير النقص والنسبي والمحدود. وهي المشكلة التي ظلّت بلا حلٍّ منذ الأيام الأولى للفلسفة.

لذلك ينبغي أن يضاف إليها صفات أخرى مضادّة لها ليستقيم وجودُ العالم بجانبَيه الطالح والصالح، والخبيث والطيّب، وما فيه من إتقان الصيغة وسقط المتاع. هذا إذا أردنا تنزيهَ الله عن الشريك والعضد[1] والصاحبة والولد[2]. وإلاّ وجدنا الساحةَ خالية لإبليس وحدَه، وعندئذ لا بد أن نتساءل عن العلاقة بين الله وإبليس. فإذا لم يكن شريكاً لله فمَن عساه إذن أن يكون؟

إنّ الصفات الإيجابيّة في القرآن واضحة وضوح الشمس، لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحاته. لكنَّ القرآن ينسب إلى الله صفاتٍ أخرى مضادّة لهذه الصفات، وقف المفسِّرون والمتكلِّمون أمامها مكتوفي الأيدي، لا يقدرون حيالها على شيء إلاّ الترقيع والثرثرة -كعادتهم- ليُخرج الله على أيديهم خيراً محضاً لا شائبة فيه ولا معرّة، "سبحانَه وتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ" (٦ /١٠٠).

جميل أن نصف الله بكلِّ صفات الخير، وأن ننزِّهه عن جميع صفات الشرِّ. حسناً. ولكنَّ الخير وحده مشلول عاجز عن الحركة، ما لم يكن له "شريك في الملك"، أو "وليٌّ من الذلّ": "وقلِ الحمد لله الذي لم يتّخذْ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ، وكبِّرْه تكبيراً" (١٧ /١١١). فلم يبق إذاً إلاّ أن تكون هذه الصفات السلبيّة التي حاول المفسِّرون عبثاً تأويلها، أي صرفها

1 سورة الكهف ١٨ /٥١: "وما كنت متّخذاً المضلِّين عضداً".
2 سورة الجنّ ٧٢ /٣: "ما اتّخذ صاحبةً ولا ولداً".

عن معناها الظاهر إلى معنى آخَر يوافق تخريجاتهم الساذجة المفتعلة- أقول لم يبقَ إلاّ أن تكون هذه الصفات من صفات الله الجوهريّة. فإذا كان النصُّ على الصفات الأولى قد جاء مباشراً ظاهراً للعيان، فإنَّ النصَّ على الصفات الثانية قد جاء ملتوياً يحتاج إلى عينٍ فاحصة قويَّةٍ في النظر، والى خطوةٍ جريئة في التفكير وحريّة في إبداء الرأي لا تخشى ولا تتهيّب ولا تهاب، إذا أرادتْ أن تضع الأمور في نصابها الصحيح، وإلاّ بقينا نتسكّع في الظلام.

هل يجب أن نكون ملكيِّين أكثر من الملك، وإلهيِّين أكثر من الله. أم لعلّهم يعرفون عنه سبحانَه أكثرَ مما يَعرف هو؟! فإذا قال الله في القرآن مثلاً "أم حَسِبْتُم أنْ تَدخُلُوا الجنَّةَ وَلمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكم" (٣ /١٤٢)، فمعنى ذلك، بلا لفٍّ ولا دوران، أنّه كان لا يعلم ثمّ علم. ماذا في ذلك؟ نريد أن نحجب الشمس بطرف الإصبع، وتأبى الشمس إلاّ أن تلتفَّ حول الإصبع حتى يغيب الإصبع، فلا نرى حينئذٍ غيرَ الشمس ونعمى عن الإصبع!!

وهكذا شأن مفسِّرينا الثرثارين الذين يحبّون أن يُخفُوا ما الله مبديه.

ثانياً

ألله وإبليس وجهان لعملة واحدة

هناك في القرآن صفات تُنسب إلى الله، وأحرى بها في الحقيقة أن تُنسب إلى إبليس، بحيثُ يرى المرء تداخلاً بين الله وإبليس. هل تصدِّقون أنَّ الإضلال الذي هو صفة رئيسة ثابتة من صفات إبليس يُنسب في القرآن -نعمْ في القرآن- إلى الله بمقدار ما يُنسب إلى إبليس؟ وللدلالة على ذلك نُثبت في ما يلي سبعاً من المثاني لنرى مدى الاشتراك بين الله وإبليس في بعض الصفات:

الله **إبليس**

- "**وَيُضِلُّ الله** الظَّالمِينَ وَيفْعَلُ الله مَا يَشَاء" (١٤ /٢٧)

- "وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى **فَيُضِلَّكَ [الشيطانُ]** عَن سَبيلِ الله" (٣٨ /٢٦)

- "فَإنّ **الله يُضِلُّ** مَن يَشاءُ وَيَهدِي مَن يَشاءُ" (٣٥ /٨)

- "كُتِبَ عَليه أنّه مَن توَلاَّهُ [**إبليس**] **فَأَنَّه يُضَلُّهُ**" (٢٢ /٤)

- "وَمَن **يُضْلِلِ الله** فَمَا لَهُ مِن هَادٍ" (١٣ /٣٣)

- "وَيُرِيدُ **الشَّيطانُ أنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً** بَعيداً" (٤ /٦٠)

- "أَتُرِيدُونَ أنْ تَهْدُوا مَن **أَضَلَّ الله**" (٤ /٨٨)

- "وَلَقَدْ **أضَلَّ [الشيطانُ]** مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيراً. أَفَلَمْ تَكونوا تَعقِلون" (٣٦ /٦٢)

ولنر أيضاً مدى الإشتراك بين الله وإبليس في تزيين أعمال السوء:

- "إنّ الذينَ لا يُؤمِنُون بالآخِرةِ **زيَّنَّا لَهم** أعمَالَهم" (٢٧ /٤)
- "**وَزيّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ**مَاكَانوا يَعمَلونَ" (٦ /٤٣)
- "كذلكَ **زَيَّنَّا لكلِّ أُمَّةٍ** عمَلَهم" (٦ /١٠٨)
- "**وَزيَّنَ لَهُمُ الشَّيطانُ** أعمَالَهم" (٢٧ /٢٤)
- "وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إليكُمُ الإيمانَ **وَزَيَّنَهُ** فِي قُلوبِكُم" (٤٩ /٧)
- "قَالَ [إبليس]: رَبِّ! بمَا أَغْوَيتَنِي؟! **لأُزَيِّنَنَّ** لَهُم فِي الأرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُم أجْمعِينَ" (١٥ /٣٩).

والآن مَنْ المُضلّ ومن المزيِّن: ألله أم إبليس؟ وما الفرق بينهما؟ أنا حائر، فهل يشاركني الآخرون في حيرتي؟ وهناك صفات شرّيرة أخرى يشترك فيها الله مع إبليس مثل **الإغواء**: "رَبِّ! بمَا أَغْوَيتَنِي؟.. وَلأُغْوِيَنَّهُم أجْمعِينَ" (١٥ /٣٩)، **والفتنة**: "ولَقَد فَتَنّا الذينَ مِن قبلهم" (٢٩ /٣)، "يا بَني آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيطانُ" (٧ /٢٧).

وهكذا، فإذا كان الإضلال والتزيين والإغواء والفتنة صفات شريرة مشتركة بين الله وإبليس بنصِّ القرآن، فما الفرق إذن بين الله وإبليس؟ أفلا يدلُّ ذلك على أنّ الله وإبليس كائنٌ واحد؟ وعلى أنَّ الله هو الجانب الخيّر من هذا الكائن، وأمّا إبليس فهو الجانب الشرير منه، أي على أنَّهما وجهان لعملةٍ واحدة؟

وإن كنتم في شكٍّ من ذلكم فدونكم هذه الآية الطويلة لتروا ما إذا كان في الإمكان التفرقة فيها بين الله وإبليس، وبين الملائكة والشياطين:

"واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشّياطينُ على مُلْكِ سُلَيمانَ. وما كَفَرَ

سُلَيمانُ ولَكِنَّ الشّياطينَ كَفَرُوا. يُعَلِّمُونَ النّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ على المَلَكَينِ بِبَابِلَ: هارُوتَ وَمَارُوتَ، وما يُعَلِّمانِ مِنْ أحَدٍ حتّى يَقولا: إنّما نحنُ فِتْنَةٌ. فلا تَكْفُرْ فيَتَعَلَّمُونَ منهُما ما يُفَرِّقُونَ به بينَ المَرْءِ وزَوجِه، وما هُم بضَارِّينَ به مَنْ أَحَدٍ إلاّ بِإذنِ الله. ويَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ. ولَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ في الآخِرَة مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ ما شَرَوا بهِ أَنْفُسَهُمْ لو كانوا يَعْلَمونَ" (٢ /١٠٢).

قولوا لي بربكم: هل يفعل الشيطان أكثر مما يفعل هذان الملكان؟ وبالتالي: هل يفعل إبليس أكثر مما يفعل الله الذي أنزل من السماء -نعم من السماء، صدّقوا أو لا تصدّقوا- هذين الملكين بمهمّة مستعجلة خاصّة ذات أهداف محدّدة محصورة في تعليم الناس السحر. لماذا؟ للتفرقة بين المرء وزوجه وتعليم الناس ما يضرُّهم ولا ينفعهم. وبعد أن ينفثا فيهم روحَ الفساد ويقدِّما لهم جميع الإغراءات والمحسنات لتزيينه في نفوسهم، وبعد أن يتمكّن منهم هذا الفساد، يخنسان كالثعلب ثمّ يحذرانهم من الإتيان بهذا الفن الشيطاني.

مَن المجرم؟ اللّصُ أم أنتَ الذي أغريتَه بالسرقة وهيّأت له جميع أسبابها، ففتحتَ له الأبواب، وكشفتَ له الخزائن، ثم قلت له: إيَّاك إيَّاك أن تسرق شيئاً. فسرَقَ ما لذّ له وطاب من غير أن تأخذ على يده وتَحُولَ بينه وبين ما يريد؟ أليس هذا "كمثل الشَّيطانِ إذ قال للإنسان أكفرْ. فلمّا كفَرَ قال: إنّي بريءٌ منك، إنّي أخاف ربَّ العالمِين" (٥٩ /١٦). ما حكم الفساد والإفساد والمفسدين في القرآن؟ "ولا تُفسِدوا فِي الأرضِ بَعد إصلاحِها" (٧ /٥٦).

وإفساد ذات البين كالتفرقة بين الزوجَين، أليس فساداً أم هو إصلاح؟ لعلّه عمل مباح، بل مأمور به إذا تولاّه مَلَكان نزلا من السماء بأمرٍ من رب السماء ليقطعا ما أمرَ الله به أن يوصل؟

"الذينَ يَنْقُضُونَ عهدَ الله مِن بعدِ مِيثاقِه، ويَقطَعون مَا أمَر الله به أنْ يُوصَلَ، ويُفسِدونَ في الأرضِ، أولئكَ هُمُ الخاسِرونَ" (٢ /٢٧)، بل عليهم اللعنة "وَالذينَ يَنقُضونَ عهدَ الله مِن بعدِ مِيثاقِه، ويَقطَعون مَا أمَر الله به أنْ يُوصَلَ، ويُفسِدُون في الأرض أولئكَ لهُمُ اللعنةُ ولهمْ سُوءُ الدَّارِ" (١٣ /٢٥).

في الكثير من آيات القرآن، يجد المرء صعوبة بالغة في التفرقة بين الله وإبليس. وعليه أن يكون مفتوح العينين، لا تعلوهما غشاوة إيديولوجية أو عمى ديني أو تشنّج مذهبي، ليقرّ بالحقيقة الواقعة.

أنا حائر حقاً أمام هذه الآيات، ولا أدري كيف انزلقتْ في النص القرآني، وإنْ كان المفسِّرون الثرثارون يستطيعون، بترقيعاتهم ومغالطاتهم المعهودة، إنقاذَها بسهولة، وإيجادَ ما لا حصر له من المخارج لها.

إنَّ الكمال مضر بالألوهة إذ يجعلها مكتوفة اليدَين، مشلولةً، عاجزةً عن التصرّف والحركة، وغيرَ قادرة بالتالي على وقف ما يجري في هذا العالم من شرور ومظالم.

إنَّ تفسير وجود الشرّ في العالم، بالإصرار على كمال الله وتنـزيهه من كلِّ نقص، مستحيل. ولكنَّ المؤمنين من العامّة والخاصّة وخاصّة الخاصّة، من الحاج سعيد خمخم وأبي قاسم الطنبوري وأم مخاييل، إلى الغزالي والقدّيس أوغسطين، حتى أرسطو وديكارت.. هؤلاء وأمثالهم حشدوا كلَّ ما يخطر بالبال من قِيم رفيعة ومُثُلٍ عليا وكمالاتٍ لا حدّ لها، وجمعوها في باقةٍ واحدة، ثم أطلقوا عليها لفظ "الجلالة"، وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعاً.

لقد وقعتِ المعجزة، وتحقّقتِ الكمالات بعد أن كانت باقة مرصوصة في الذهن. لقد كانت طَيفاً فأصبحت شيئاً. ألبعرة تدل

على البعير، والقدم تدل على المسير. المشكلة منذ الآن سهلة الحلّ، فلِمَ عَمِيَ عنها الضالّون المضِلُّون؟ قاتلهم الله أنَّى يؤفكون! لقد حُلّت المشكلة اليتيمة ولو كان حلاً دراميًّا على حساب العقل والمنطق. لكلِّ سؤال جواب، وفي الحشو والتدليس خير جواب.

لم يخطر لجامعِي الكمالات في باقة واحدة ليصنعوا منها إلهاً ما سينجم عن ذلك من إحالات واستحالات. لقد حشدوا في هذه الباقة كلَّ ما يتخيّل الذهن من كمالات، لكنّهم عجزوا عن تفسيرِ نقصٍ واحدٍ في هذا العالم. فلو أضافوا إلى هذه الكمالات بعض النقائص إذن لحُلَّت مشكلة الشرِّ في العالم.

لقد سدّوا جميع المنافذ بعد أن جعلوا الله خيراً محضاً بمنأى عن كلِّ ما نرى في هذا العالم من نقص، ثمّ تساءلوا: من أين دخل الشرّ في العالم؟!

فلا وربِّك! لا تفسير لدخول الشرِّ في العالم إلاّ بتقريب المسافة بين الله وإبليس. هذا إذا كنّا مصرّين على الإيمان بالله ومعرفة مدى مسؤوليّته عن تغلغل الشرّ في العالم. وإلاّ فللشرِّ تفسيرات أخرى أكثر جدّية وعقلانيّة، وأبعد عن الترقيع والتدليس والمماحكات الفارغة وتحميل الأشياء أثقالاً يصعب عليها أن تنهض بها.

هل وجود الشرّ في العالم يعني أنَّ الله غيرُ موجود؟

لا تحاولوا البحث عن حلٍّ لما لا حلَّ له. وإنْ كنتُ أعترف بأنّ الإنسان العادي، بل المفكّر الكبير والفيلسوف العملاق كأرسطو في الزمن القديم، و كانط في العصر الحديث، يصعب على أيٍّ منهم أن يتخلّص من فكرة وجود الله، أو على الأقلّ وضعه بين قوسين.

وأرجحُ الظنِّ لديّ أنَّ هذه الصعوبة هي التي فرضت علينا وجودَ الله، شِئنا أو أبَينا.

ثالثاً

ألله الرحمن الرحيم

تقدم معنا منذ قليل ان الله يتصف بجميع صفات الكمال. ومن هذه الصفات صفة الرحمة: فالله في القرآن يصف ذاته بالرحمة. فهو الرحمن الرحيم، بل أكثر من ذلك هو أرحم الراحمين. صدِّقوني إذا قلتُ لكم إنّي حتّى الآن لم أفهم ما هو المقصود بالرحمة في الاستعمال القرآني.

نعم أنا أعرف المعنى اللغوي للكلمة، ولكنّي لا أرى أنّ هذا المعنى ينطبق على الله بحالٍ من الأحوال. فكلمة (رحمة) مشتقّة من كلمة (رحم) وهو أصل يدل على القرابة، وبالتالي على الرقّة والعطف والحنوّ والرأفة. فهل الله رحيم بهذا المعنى حقًّا؟ كلاّ وألف كلاّ. فضلاً عن أن يكون أرحم الراحمين، على طريقة القرآن في المبالغة غير المسؤولة، أي: أرحم منّي ومنك، أو كما تقول العامة: "أرحم من الأمِّ على ولدها ".

إنَّ أقلَّ مخلوق في هذا العالم، بل أكثر الحيوانات وحشيّةً، أرحم من الله الذي يمكن وصفه بكلِّ شيءٍ إلاّ الرحمة. وإلاّ ما الدليل على أنّه رحيم؟ أنا أطلب دليلاً على الأرض لا على الورق. إنَّ كل ما يخطر على البال من مُثُلٍ عليا، وقِيَم رفيعة، وكمالاتٍ ومدنٍ فاضلة، وطوباويَّاتٍ، موجودٌ على الورق. ولكن هل استطاع ذلك تغيير مسار حبّة غبار معلقة في الهواء؟ والغريب أنّ الأم لا تكفّ عن القول بأنَّ الله أحنُّ منها على ولدها، وولدُها يتلوّى بين

يديها من الجوع والمرض، ولا تتوقّف لحظةً واحدة لتفكّر في ما تقول. كلُّنا تلك الأم!!

والغريب أنَّ كلمة (رحمة) بمشتقّاتها المختلفة قد وردتْ في القرآن ٩٣٣ مرّة. فإذا أضفنا إليها كلماتٍ أخرى ذاتَ معانٍ قريبة من معنى الرحمة، كالرأفة والحنوّ والمحبّة والودّ...، لبلغ تعداد هذه الكلمات ما يزيد على الألف. وبعبارة أخرى لا تكاد تخلو صفحةٌ من صفحات القرآن من كلمة أو أكثر من هذه الكلماتِ وأمثالِها. فهل استطاع كلُّ هذا الكمِّ من الآيات التي تؤكِّد خصوصيّة العلاقة بين الله وخليفته على الأرض، أن يسدَّ رمقاً، أو يروي عطشاً، أو يشفي مرضاً، أو يفرّج كربة، أو يلبّي مطلباً، أو يَقضي وطراً، أو يدفع ضرًّا، أو يغيث ملهوفاً، أو يضع لقمةً في فمِ جائع؟! لقد "كتبَ [الله] على نفسِه الرَّحمةَ" (٦ /٦). فلو لم يكتبْها هل كان ما في العالم من اللاّرحمة والظلم والبلاء والكوارث أكثر منه اليوم؟

ما معنى الرحمة إذن؟ لا أدري، ما لم تكن هذه الكلمة تعني المعنى وضدَّه، أي اللارحمة أو الظلم. ففي القرآن كلمات كثيرة من هذا القبيل، مثل: ظنّ، غَبَر، قُرُء... ومَن يدري فلعلّ كلمة (رحمة) من هذه الكلمات. فاللارحمة هي التي تسود العالم حتّى لأصبحت الرحمة فيه استثناء، بل إنّي أكاد أقول إنّها القانون الذي يفسِّر وحدَه علاقات الإنسان بأخيه الإنسان، بل علاقات الله بالإنسان!!

قد يقال - بل لقد قيل فعلاً - إنّ المراد بالرحمة في القرآن الرحمة في الدار الآخرة لا في الدنيا التي لا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة. فالدنيا هي دار الفناء والآخرة هي دار البقاء. قال تعالى "والآخِرَةُ خَيرٌ وأبْقَى" (٨٧ /١٧). فالدنيا دار ابتلاء واختبار: "أَحَسِبَ الناسُ أنْ يُتْرَكوا أنْ يَقولوا آمَنَّا وهم لا يُفتَنُونَ" (٢٩ / ٢)، أي: أن يكتفوا بالقول إنّنا آمنّا من غير أن نبتليَهم ونختبرَهم بما

يتبيَّن به حقيقة إيمانهم؟ فالدنيا يا بَنيَّ دارُ بلاء وامتحان لا يفوز فيه إلاّ الصابرون "وَلَنَجْزِيَنَّ الذينَ صَبَرُوا أجْرَهُم بأحسَنِ مَا كَانوا يَعمَلونَ" (١٦ /٩٦). إنّه لا يضيّع أجرَ الصابرين.

حسناً، أنا جائع الآن، فيقال لي: إصبر، وما صبرك إلاّ بالله، إنّ الله مع الصابرين. أولئك "لهم (في الجنَّةِ) فَاكِهَةٌ ولهم مَا يَدَّعُونَ" (٣٦ /٥٧). أنا أريد الآنَ فاكهةً. ألآنَ أريد كسرة خبز تمسك رمقي، وإلاّ فسأموت جوعاً. كيف يحرمني الله من الطعام في الدنيا ويطعمني في الآخرة، بينما يطعمُ جاري في الدنيا وفي الآخرة؟ هل هذا معقول؟ فيقال لي: أسكت، لا اعتراض على أحكام الله، فإنما ذلك لحكمةٍ لا يعلمها إلاّ هو، وهو سبحانه أعلم بشؤون خلقه. والله يعلم وأنتم لا تَعلمون.

أنا عطشان، أنا عطشان، فيقال لي: إصبر، إن نقطةً من ماء الجنة تساوي الدنيا وما فيها. فالأبرار هناك لا يشربون من أيِّ ماء اتّفق كما في الدنيا الفانية، بل هم "يَشربون مِن كأسٍ كان مِزَاجُها كافوراً، عَيناً يَشرَبُ بها عِبَادُ الله، يُفَجِّرُونَها تَفجِيراً" (٧٦ /٥-٦). وبطبيعة الحال، إنّ كافور الجنّة غير كافور الدنيا الذي يُذاب بالماء لغسيل الموتى. والماء هناك يا بنيَّ ليس مقصوراً على ماء الكافور. فالماء أنواع يا بنيَّ: ماء الكافور وماء الزنجبيل "ويُسقَونَ فيها كأساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبيلاً، عَيناً فيها تُسمَّى سَلسَبيلاً" (٧٦ / ١٧-١٨).

وهناك أيضاً ما شاء الله من أطايب المياه في الجنة. غير أنّه -والله أعلم- لا وجود لماء الزهر وماء الورد وماء المسك وماء العنبر وماء الياسمين وماء الخرنوب وماء السوس وماء التمر هندي... وغيرها من عطور الدنيا وأشربتها الأقلّ جودةً من ماء الكافور وماء الزنجبيل، فما عند الله خيرٌ للأبرار.

وهناك فوق ذلك يا بنيَّ أنهار لا تنقطع تجدها في كل مكان في الجنّة. ولا أدلُّ على غزارتها وسعة انتشارها من أنّها وردت في القرآن في خمسٍ وثلاثين آية بالتمام والكمال. ولا يقتصر أمر هذه الأنهار على أنَّها تجري تحت الجنّات، بل هي أيضاً تجري تحت الغُرَفِ المبنيّة في قصور الجنّة وفوقها: "لَكِنِ الذينَ اتَّقَوا ربَّهم لهم غُرَفٌ مِن فوقِها غُرَفٌ مبنيَّةٌ، تَجري مِن تحتِها الأنهارُ. وَعْدَ الله، لا يُخْلِفُ الله الميعَادَ" (٣٩ /٢٠).

أمّا كيف تجري هذه الأنهار تحت الغرف يا بنيَّ فهذا ما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه، وهو على كلِّ شيء قدير. فلا تلحّ في السؤال ولا تكن من الجاهلين. ويبدو أنَّ هذه الأنهار لا تتخلّل الغرف، فلا يوجد نصٌّ بذلك، وإلاّ انقلبت هذه الغرف إلى أحواضٍ للسباحة. والله أعلم.

كما أنّ أنهار الجنة يا بنيَّ ليست أنهاراً من ماءٍ فقط، فإلى جانب ما فيها من "أنهار من ماءٍ غيرِ آسِنٍ"، فيها أيضاً "أنهارٌ مِن لَبَنٍ لمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وأنهارٌ مِن خمرٍ لذَّةٍ للشارِبينَ، وأنهارٌ من عسلٍ مُصَفًّى" (٤٧ /١٥).

فما لك يا بنيَّ -والحالة هذه- وماء الدنيا الفانية؟ وهو ماء ملوّث بالمواد الضارّة، ولا سيّما في هذه الأيّام. وحتّى لو كان ماءً طهوراً فليس شيئاً في جنبِ ماءِ جنّةِ الخلدِ ومُلكٍ لا يبلى. فإذا كنتَ تعطش في الدنيا فاصبر، فإنّك لن تعطش في الآخرة أبداً. فالدنيا دار ممرٍّ لا دار مقرّ. سنوات وتنتهي مهما طالت هذه السنوات. إطمئِنَّ يا بنيَّ اطمئِنّ، وستروي عطشَك بكلِّ أنواع السوائل الطيّبة، من ماء الكافور والزنجبيل إلى اللبن والخمر والعسل المصفّى.

ولكنَّ المسكينَ عطشان الآن. فكلُّ أنهار الجنّة لا ترويه إذا كان الآن عطشان. إنّه يستغيث من العطش. بل إنّ هذا الحديث

الطويل عن الماء زاده عطشاً. ورغم جميع هذه التأكيدات ولقصر نظره يصرُّ قائلاً: آهِ! أريد قطرةَ ماءٍ الآن، وإلاّ فسأموت من العطش كما مات زميلي من الجوع بعد أن لم يُجِرْهُ مُجير.

- كلاّ لن تموت "وما مِن دابَّةٍ إلاّ على الله رِزقُها" (١١ /٦). فممَّ تخاف يا ترى؟

- دعك من هذا الكلام؟ ألم تسمع بسكَّان جنوب السودان الذين يموتُ منهم كلَّ يومٍ جوعاً ما بين مئة وخمسة عشر إلى مئة وعشرين شخصاً، كما تقول تقارير الأمم المتحدة؟

- كلاّ، يمكن للإنسان أن يموت لأيِّ سبب من الأسباب إلاّ أن يموت جوعاً. هذا ما تدلّ عليه الآية السابقة. إنّها تعهّدٌ من الله بألاّ تموتَ دابّةٌ جوعاً. والإنسان لا يعدو أن يكون دابّةً في الأرض. فلا تتهرّب من الحقيقة الناصعة، لا تغالط!

- وحتى لو متَّ فإنك ستموت شَهيداً، وستُحشر مع الشهداء والنبيّين والصدّيقين تحت ظلِّ العرش يوم القيامة، يوم لا ظلَّ إلاّ ظلُّه، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

- إنّ كلامك هذا يذكّرني برجلٍ جاء إلى النبيّ عليه السلام يشكو من مرضٍ أصاب أخاه. -ويظهر أنّ آية فضائل العسل كانت حديثة النزول- فقال له النبي: إسقِهِ عسلاً. فسقاه عسلاً. ثمّ عاد إلى النبي يشكو إليه تفاقمَ مرضِ أخيه بعد شرب العسل. فأعاد عليه النبيُّ القولَ السابق. فرجع وسقاه عسلاً مرّةً أخرى، لكنَّ المرضَ ازداد سوءاً. فعاد إلى النبي يشكو إليه اشتدادَ مرضِ أخيه، فضاق به النبي ذرعاً، وقال له: صَدَقَ الله وكذبَ بطنُ أخيك!!

***

ما أغبى الإنسان وما أكثر نسيانه. متى كان الله رحيماً، بل

أرحم الراحمين، إلاّ على الورق وفي قلوب المؤمنين المتبلّدة. هل رحم أطفالَ العراق الذين يموتون كلَّ يوم جوعاً؟ هل رحم إخوانهم في جنوب السودان الذين التصقت جلودهم بعظامهم وغارت عيونهم في محاجرها حتى لكأنهم أشباح مخيفة؟ هل رحم أطفال بورما الذين يعجز آباؤهم عن تأمين الحدِّ الأدنى من الطعام لهم فدفعوا بهم إلى شوارع المدينة ليطوفوا على صناديق القمامة لعلّهم يجدون فيها بعض الفتات؟ إنّ معظم هؤلاء يموتون جوعاً كلَّ يوم من غير أن يعبأ بهم أحد.

لماذا نذهب بعيداً؟ هل رحم الله أطفالَ المشركين الفقراء من أهل مكّة الذين اعترف القرآنُ نفسُه بأنَّ آباءهم كانوا يقتلونهم لعجزهم عن إعالتهم، فتعهّد بتأمين الرزق لهم؟ متى؟ بعد أن ماتوا فقال: "ولا تَقتُلوا أولادَكم خَشيَةَ إمْلاقٍ نحنُ نَرزُقُهُم وإيَّاكُم" (١٧ / ٣١). فلم يرزقهم ولم يرزق آباءهم. فاعترافه بقتلهم جوعاً إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على شيوع عادة موت الأطفال جوعاً في الجزيرة العربيّة. هل هذا التعهّد ينسحب على أولاد العرب فقط بعد ظهور الإسلام، أم هو قانون يصدق في كلِّ زمان ومكان؟ وأين هذا من قوله تعالى "ومَا من دابَّةٍ إلاّ على الله رزقُها"؟!

فالموت جوعاً وعادة قتل الأطفال بسبب الفقر أمران قديمان قدم الإنسان نفسه، ولا يزالان مستمرَّين حتّى اليوم، ولن يزولا إلاّ بزوال الإنسان من غير أن يحرِّك الله ساكناً. فلو كان الله يجيب دعاءً ويعطي سائلاً ويغيث ملهوفاً، لما رأيتَ على ظهر الأرض مظلوماً، ولكان الله أباً حقًّا وصدقاً، ولكانت العدالة قانونَ الوجود، وبالتالي لكانت الآية السابقة "ومَا من دابَّة إلاّ على الله رزقُها" صادقةً لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا مِن خلفِها!

أوَتعلمون مَن يعرف الله حقَّ معرفتِه؟ إنّهم اليهود

والمتسوِّلون. فأمّا اليهود -وهم أدرى الناس بشؤون المال- فقد قالوا: "يدُ الله مَغلُولة" (٥ /٦٤). وأمّا المتسوِّلون فإنَّ أبغض كلمة يسمعونها وهم يسألون الناس أن يقال لهم: "على الله"، أو أي كلمة بهذا المعنى تحيل على الله؛ لأنّ هذه الكلمة تعني عندهم صكًّا بلا رصيد أحيل على مصرفٍ مفلس. إنّها تدل عند الفريقين على التيئيس وقطع الرجاء!!

لقد خلق الله البشر وزجّ بهم بين أنياب الوحوش والذئاب والعقارب والأفاعي والبعوض والذباب وسائر الحشرات المؤذية والهوام الضارّة، وتركهم نهباً للأنواء والعواصف والأعاصير والحرّ والبرد وتقلّبات الطقس المميتة. وكأنّ كلَّ ذلك لا يكفي، فأعقبهم جيوشاً من الجراثيم والفيروسات التي لا ترحم.

لقد زوّد الحيوانات والحشرات بل وبعض النباتات بأسلحة تحميها من غائلة الأعداء، إلاّ الإنسان فضنَّ عليه إلاّ بمسكة من عقل تكاد لا تكفيه -وبخاصة في تلك العصور السحيقة الموغلة في القدم- في صراعه مع الحياة والأحياء، وكم مات مَن مات فريسة الجوع والعطش والمرض والحشرات والذباب، قبل أن يتمكّن من تثبيت قدمه على رقعة من الأرض؟ فأين هي أسطورة الرحمة يا عبدة الأساطير؟

والحقُّ الذي لا جمجمة فيه، إنّ الله ليس فيه نقطة دم واحدة تجعله يحسُّ بأوجاع هذا العالم وآلامه! ولتبرئة الله من هذه المآسي التي تلحق بالإنسان، يَحصر المؤمنون مسؤوليّة ذلك في الإنسان وظلم الإنسان للإنسان، وفي الأنظمة الفاسدة التي لا تحمي الإنسان من أخيه الإنسان، بل تسمح باستغلال الإنسان للإنسان، وأكثر من ذلك تفتعل شتّى المبرِّرات والتخريجات والترقيعات لتنزيه الله وجعْلِه بمنأى عن مأساة الإنسان.

حسناً. إذا كان ذلك صحيحاً، وهو صحيح، فماذا يعمل الله إذن؟ هل يبقى الدهر كلَّه مجرَّدَ شاهد زور؟ إذن، لماذا خلق الإنسان وهو خليفتُه على هذه الأرض؟ "وإذ قَال ربُّكَ للملائكةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً" (٢ /٣٠). لماذا خلقه وهو يعلم مقدَّماً أنَّه عاجز عن تأمين حاجاته الضرورية على الأقلّ، ففسح في المجال للنزاع والشقاق بين الإنسان والإنسان؟ لماذا ترك الأشرارَ يُفسدون خططَه وتدبيرَه؟ أفلا يدلُّ ذلك على هشاشةِ مشروعه من جذوره، على أنَّ مشروعَه غيرُ مدروس دراسةً كافية؟ فلو كان مشروعاً سليماً لما استطاع أحد أن يناله بسوء.

ألم تكن الملائكة على حقٍّ، بل أبعد نظراً منه، عندما أعلنوا عدم رضاهم عن هذا المشروع فسألوه بكلِّ تهذيب: "أَتَجعلُ فيها مَن يُفسد فيها ويَسفِكُ الدماء" (٢ /٣٠)؟ فأسكتهم على الطريقة الشرقيّة المعروفة التي لا تطيق المعارضة، واكتفى بالقول على الطريقة الشرقيّة أيضاً مستهزئاً بهم: "إنِّي أعلمُ مَا لا تعلمون" (٢ / ٣٠)!! ومع علمه تعالى، فقد تحقّقت جميعُ مخاوفهم. لقد كانوا على حقٍّ.

مسكينٌ هذا الإنسان. إنّه قمة الهرم في مشروع الله، وهو في الوقت ذاته أسفله، أليس هو أشقى أنواع الخلق؟! لقد أتقن الله كلَّ شيء صنعاً، لكنّه عندما وصل إلى الإنسان كان على ما يبدو قد نال منه التعب. لقد استنزفتْه عمليّةُ الخلق، فلم يتبقَّ عنده في ربع الساعة الأخيرة إلاّ صُبابة من طاقة لا تكفي لتتويج عمله برائعةٍ من الروائع جديرةٍ أن توضَعَ في قِمّة الهرم! ولكنّها أبتْ إلاّ أن تنـزلق إلى أسفله. وهذه هي نتيجة السرعة. فقد خلق الإنسان على عجلة وقال له: "كن" فكان. وكان ينبغي ألاّ يكون ذلك إلاّ بعد استكمال كينونته. بل لقد اعترف بذلك فقال: "خُلقَ الإنسانُ مِن

عَجَلٍ" (٢١ /٣٧)، ثمّ قذف به في هذا العالم رغم طراوة عوده، وقال -والعهدة على القائل- إنّه سخَّر له ما في السموات والأرض: "وَسَخّرَ لكم مَا في السمواتِ والأرض جَميعاً" (٤٥ /١٣).

وقد أَحصيتُ كلمة (سَخَّرَ) التي وردت في القرآن بهذا المعنى فإذا هي تتكرّر إحدى وعشرين مرّة على الأقلّ. وما ذلك إلاّ لشرف الإنسان ومقامه العظيم عند الله. وإنّي لأتساءل: ماذا كان عسى هذا الإنسان أن يكونَ لولا هذا التسخير؟ تُرى هل يكون أشقى من ذلك؟ لماذا هذا العدد الكبير؟ ألا تكفي آية واحدة أو مجرّد إشارة عابرة إليه؟ كلاّ. فكثرة العدد تدلّ على شرف المعدود له!

هل صحيح أنّ الله سخّر لنا "الشمسَ والقمرَ دائبَين"؟ (١٤ / ٣٣).

هناك حتّى الآن تسعُ كواكب على الأقلّ معروفة لنا، وعددٌ لا يحصى من الكويكبات، وهي كلّها جميعاً تستفيد ضوءها من الشمس. وإنّ كثيراً من هذه الكواكب تنعم بأكثر من قمر، والراجح حتى الآن أنّها غير مأهولة بالسكّان. فالمشتري مثلاً جحيم لاهب غيرُ صالح للسكن. وقد أُحصي له حتى الآن ١٨ قمراً، وهو كسائر الكواكب يتلقّى ضوءه من الشمس.

فليت شعري، لمن سُخِّرتِ الشمس وكلُّ هذه الأقمار فيه؟ إنَّ ضوء الشمس الذي يسقط على الأرض ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى ضوئها الآخر الذي يذهب هدراً ليغمر النظام الشمسي كلَّه ويذهب إلى ما وراء ذلك، فما معنى التسخير هنا؟ ولنفرض أنَّ أحدَ الكواكب أو أحد أقمار زُحَل آهِلٌ بالبشر، فهل سخّر الله الشمسَ لنا أم لهم؟

إنّ هذا الإمتنان علينا بتسخير الشمس والقمر لنا ينبع في نظري من تصوّرٍ قديم مقفَل للعالم تمتزج فيه الأسطورة بعلم الفلك

البطليموسي الذي يجعل الأرض في مركز العالم والشمس والكواكب تدور من حولها، وتقع النجوم في سقف هذا العالم الصغير المحدود. إنّ هذا التصور البسيط الضيّق المنغلق للعالم تكفيه -بل ربما تفيض عليه- شمسٌ واحدة وقمر واحد وأرض واحدة تستفيد ضوءها منهما.

في هذا العالم الصغير الذي مركزه الأرض قد يكون للتسخير معنى. أمّا العالم الواسع اللاّنهائي الذي جاء به علم الفلك الحديث بمجرَّاته التي لا يحصيها عدد وثقوبه السوداء، وما اكتَشف فيه من نجوم خارج نطاق البصر لا تراها العين، بعضها قريب منّا وبعضها بعيد عنا، وإشعاعات وغبار وسدم -أقول: أمّا هذا العالم المفتوح الجديد البالغ التعقيد والتنوّع والتشابك والترامي والامتداد الذي لا نعدو أن نكون فيه نحن ونظامُنا الشمسي كلُّه سوى حبّة غبار وربما دون ذلك- أقول: أمّا هذا العالم اللاّمحدود فلا أرى في تسخيره لنا أيَّ معنى!!

رابعاً

ألله قريب مجيب

يصف القرآنُ الله بأنّه "مجيب". وقد وردت في هذه الصفة آيات عدة نكتفي ببعضها. "إنَّ ربِّي قريبٌ مُجيب" (١١ /٦١)، "وإذا سألك عِبَادي عنِّي فإنِّي قريب، أُجيبُ دعوةَ الدَّاعي إذا دَعَانِ" (٢ /١٨٦).

وكما لم أفهم كلمة (رحمة) في القرآن، كذلك لم أفهم كلمة (مُجيب) ما لم تكن هذه الكلمة من الكلمات ذات المعاني المتضادّة. فالإجابة في هذه الحال معناها اللاّإجابة، أو التصامّ، أو التجاهل، أو التخييب، أو عدم الردّ. هذا هو وضع الإجابة في القرآن في القسم الأكبر من الحالات، وما تبقّى فهو إمّا وليد المصادفة العمياء، أو نتيجة السعي والدأب والعمل والنشاط. وسواء كان مصادفةً أو سعياً، فإنَّ الداعي يظنّ هذه الإجابة من توفيقِ الله وتسديدِهِ واستجابةٍ لدعاءٍ دعاه، فيحمد الله ويشكره، والله لا في العِير ولا في النفير. وكم كنتُ أنا ذلك الدَّاعي. وكم حمدتُ وشكرت. وهذا من ذكرياتي في "أيّام الخير".

ومع أنَّ الله في القرآن يحذّر الناس من الذين يُحبّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا. "لا تَحْسَبَنَّ الذينَ يَفرَحونَ بما أتَوا ويُحِبُّونَ أن يُحْمَدوا بما لم يَفعَلوا، فلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ من العذابِ، ولهمْ عذابٌ أليم" (٣ /١٨٨). فإنّ أحداً في هذا العالم لا ينهال عليه الحمد مدراراً كما ينهال على الله مِن قِبل المتديِّنين المؤمنين الذين يَظنّونَ أنّ الله لا عمل له في هذا العالم إلاّ إجابة دعوة أخينا هذا، أو

الاهتمام بشؤون ذاك، وتدليل ذلك وحمله على كتفه. وأخونا على حقٍّ، لأنّ هذا ما يوحي به القرآن.

بل إنّنا نحن المسلمين قد اخترعنا نوعاً جديداً من الحمد يدلّ على "أصالتنا"، لا أحسب أنَّ أحداً سبقنا إليه، وهو الحمد -لا مجرّد الصبر فقط- على المصيبة أو المكروه!! فإذا أصاب أحدَنا مصابٌ أو ابتُلي بفقدِ عزيز قال. "الحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه"!!

وكم حمدتُ الله على المكروه وحملتُ مُرِيديَّ على حمده عندما كان لي مُريدون، وهم لا يزالون حتّى الآن يَحمدون، وفي ذكر الله يَغرقون. دعُوا الناس في غفلاتهم، هكذا قال أجدادُنا السابقون. فالغفلة درع لصاحبها تَقيه عذابَ جهنم، وتقيه الفتنة في الدين، وتقيه الفتون. فَذَرْهم يَحمدوا ويذكروا حتّى يطويهم الرَّدى ويبتلعهم يومهم الذي كانوا يوعدون!

يحثّنا الله في القرآن كثيراً على الدعاء: "أُدعوني أَستجبْ لكم" (٤٠ /٦). ووعدنا بالإجابة المعلّقة بمشيئته: "وإذا سَأَلَكَ عبَادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيب دعوةَ الدَّاعي إذا دعَانِ. فلْيَستَجيبوا لي وَليؤمنوا بي لعلّهم يَرشُدُون" (٢ /١٨٦)، وعلى الخصوص إذا كان الدَّاعي مضطرًّا، أي في حالة ضيق شديد: "أم من يُجيبُ المضطرَّ إذا دعَاه ويَكشفُ السوء" (٢٧ /٦٢)؟ والدعاء يجب أن يكون موجَّهاً إلى الله وحدَه: "أَغيرَ الله تَدعُونَ؟.. بل إيّاه تَدعون، فَيَكشِفُ ما تَدعونَ إليه إنْ شاء" (٦ /٤٠-٤١).

***

ألدعاء صلة بين العبد وربِّه: "قلْ مَا يَعْبَأ بِكم ربِّي لولا دعاؤُكم" (٢٥ /٧٧). لا أحد أضلّ ممّن يدعو من دون الله: "ومَن أضلُّ ممّن يَدعو مِن دونِ الله مَن لا يَستَجيبُ له" (٤٦ /٥)؟

فالأصنام التي يتوجّه إليها المشركون بالدعاء لا تسمع الدعاء فضلاً عن أن تستجيب له: ".. والذين تَدعُون مِن دونه ما يَملِكونَ مِن قِطْمِيرٍ. إنْ تدعُوهم لا يَسمَعوا دعاءَكم، ولو سمِعوا ما استجَابوا لكم" (٣٥ /١٣-١٤). فلا جدوى إذن من دعاء الأصنام لأنّها لا تضرّ ولا تنفع: "قلِ ادْعوا الذين زعمتُم مِن دونه، فلا يَمْلِكون كشفَ الضرِّ عنكم ولا تحويلاً" (١٧ /٥٦). وفي حديثه عن عِجْل بني إسرائيل سألهم الله: "أفَلا يَرَون ألاّ يَرْجِعُ إليهم قَولاً ولا يَملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفْعاً" (٢٠ /٨٩).

ما معنى هذا؟ ألمعنى واضح جدًّا، وهو أنّ الأصنام لا تجيب الدعاء لأنّها لا تسمع ولا تحسّ ولا تضرّ ولا تنفع. إنما النفع والضرّ وإجابة الدعاء كلُّ ذلك محصورٌ في الله وحدَه الذي يجب أن نتوجّه إليه بالسؤال والطلب، بل لقد أمَرَ هو بذلك: "أغَيرَ الله تَدعُون؟.. بل إيّاه تَدعون" (٦ /٤٠-٤١). وإذن فإنَّ مَن يدعو أيَّ شيءٍ من دون الله فلا يطمع أن ينالَ شيئاً كما مرَّ معنا. فمَن أمِلَ في إجابة دعائه فليتوجَّهْ إلى الله.

هل هذا صحيح؟ هل الله حقاً يجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء؟

ألجواب عند الأرامل والثكالى والمظلومين والملهوفين والمعتقَلين في سجون إسرائيل بغيرِ حقّ، وأولئك الذين تَهدم إسرائيل كلَّ يومٍ بيوتهم، وتُلقيهم في الشارع، ونراهم على شاشة التلفزيون يَصرخون ويولولون، لكن لا مغيث ولا مُعين.

ألجواب عند الأمِّ التي ذُبح زوجُها وأولادها الثمانية أمامها في إحدى مجازر الجزائر فأُصيبتْ بالجنون. إنّ هؤلاء جميعاً قد دَعوا الله مخلصين له الدعاء. فلو كانت الآية السابقة "أم مَن يُجيب المضطرَّ إذا دعاه" (٢٧ /٦٢) صحيحة، لما وقع لهم ما وقع وإلاّ

فما معنى الإضطرار وتعهّد الله بإجابة المضطرِّين؟ إنّهم أشدّ خلق الله اضطراراً في هذا العالم. فهل أجابهم الله؟

ما الفرق بينه وبين الصنم في الآية السابقة؟ "إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم"؟.

إنّ الله في القرآن ينهاك أن تسأل غيرَه. فإذا سألتَه لم يجبْك كأنّه أحد أصنام إبراهيم أو مشركي مكّة. أنا لم أفهم حتّى الآن الفرق بين الله والصنم في إجابة الدعاء ؛ كما لم أفهم -على الأرض لا على الورق- ما معنى الحض على الدعاء والوعد بإجابة الدعاء في القرآن؟ نبِّؤوني بعلمٍ إن كنتم تعلمون.

نعم، نحن نجد في القرآن حالات فرديّة نادرة من الإغاثة والنجدة أنقذ الله بها بعضَ المحظوظين من عباده يراد بها الدعاية والضجيج الإعلامي، فإذا به سبحانه يُخرجها من منطقة الظلِّ ويُلقي عليها أضواءَ كاشفة يبهر بها عيون عباده، ويصنع منها قنبلة إعلامية متفجّرة.

كالسفينة التي خرقها صاحبُ موسى بوحيٍ من الله، وكانت لمساكين يعملون في البحر، ليعيبها كيلا يسطو عليها الملك. فلو كان لله أيُّ اهتمام بالمساكين على الأرض لما رأيتَ مسكيناً.

وكذلك حال الغلامين اللَّذين كان أبوهما صالحاً فخلّف لهما كنزاً تحت جدار يُشرف على السقوط. فأوحى الله إلى صاحب موسى أن يرمِّم الجدار قبل أن ينهار وينكشف الكنز ويتعرّض للسرقة[1]. فما أكثر الصالحين الذين شُردوا هم وأولادهم ونساؤهم، وما أكثر الأيتام الذين انتُهكت حقوقهم وذاقوا الجوع والحرمان.

---

1 رَ: سورة الكهف ١٨ /٦٠-٨٠.

ويندرج في هذا الباب أيضاً قصّة موسى الذي وضعتْه أمُّه في اليمِّ خوفاً من بطش فرعون. فأعاده الله إلى أمِّه[2].

لقد نصَّب الله نفسَه، في هذه الآيات وغيرها، شرطِيَّ أمنٍ، يضمن الحقوق ويمنع السطو والعدوان. ولو كان الله يقيم وزناً للهفة الأمِّ على ولدها، لما استثنى أمَّ موسى فخصّها بما منعه غيرَها من الأمّهات الملهوفات على أولادهنَّ الذين يُسامون أشدَّ أنواع العذاب في المستشفيات والسجون والمعتقلات وحياة التشرد والشقاء.

ما أكثر أيتام الصومال وجنوب أفريقيا الذين فقدوا آباءهم وأمّهاتهم في صراعهم مع الجوع والموت المبكر. ما أكثر الأمّهات اللواتي يَشكينَ بثَّهم وحزنهم إلى الله، وتتفطّر قلوبُهنّ على فلذات أكبادهنّ الذين يتلوون من العذاب في سجون إسرائيل وحدها. فليت شعري، مَن هو أكثر اضطرارا ً منهم؟ إنّ هؤلاء المعذّبين والمساكين والأيتام جزء من مأساةٍ عالمية بدأت منذ نشأة الإنسان على هذه الأرض، وهي تتجدّد كلَّ يوم أمام أعيننا. ولا يبدو أنّ لها نهاية. والله غافل عنها. فهنيئاً لكِ يا أمَّ موسى! قُرِّي به عيناً!!!

ثمَّ مَنْ هؤلاء العصاة العاقُّون الذين يجحدون فضل الله عليهم، فإذا "رَكبوا في الفُلْكِ دَعَوا اللّهَ مُخلِصين له الدينَ، فلمّا نجّاهم إلى البَرِّ إذا هم يُشرِكون" (٢٩ /٦٥)؟ متى كان ذلك؟ مَن هم أيضاً أولئك الذين "إذا غَشِيَهُم موجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوا اللّهَ مُخلِصين له الدين، فلمّا نجّاهم إلى البرِّ فمنهم مُقتَصِدٌ، وما يَجحَدُ بآياتِنا إلاّ كلُّ ختّار كَفُور" (٣١ /٣٢)؟

كثيرون لا حصر لهم يَسقطون على الشاطئ فلا أحد يعبأ بهم، فهل تراه يعبأ بأولئك الذين يَسقطون في أعالي البحار عندما

2 رَ: سورة طه ٣٨-٣٩.

يَغشاهم موجٌ كالجبال؟ هل سقطوا لأنّهم لم يَدْعُوا اللّهَ مخلِصين له الدين؟ إنّ جميع جوارحهم في هذه الحال تدعوه مخلصة له الدين، ولا سيّما النساء والأطفال والشيوخ والعُجَّز الذين لا يقدرون على شيء.

أتعرفون مَن يُنجِّي الله؟ إنّه يُنجِّي فقط القادر على النجاة الذي يجيد السباحة، أي الذي لا يحتاج إلى تنجيةِ أحد، وحتّى هذا قد يصرعه الموج، فما قولك بالمستضعفين الآخَرين؟ ولنسلِّمْ جدلاً أنَّ سفينةً كبيرة هبَّتْ إلى نجدتهم، فهل تستطيع إنقاذ جميع الركّاب الذين اقتحم الموج مركبَهم فسقطوا في أشداق المحيط؟ لا يصمد إلاّ القادرون، هؤلاء فقط تستطيع السفينة -أو الله بلغة القرآن- إنقاذَهم. وأمّا الباقون فقد غدَوا طعاماً للأسماكِ والحيتان قبل وصول النجدة إليهم. وقد ينجو منهم من ينجو. وفي هذه الحالة فإنّ المصادفة كانتْ وراء نجاتهم لا الله الذي ترك الباقين يَسقطون من غير أن يحرِّكَ ساكناً. وحتّى الأقوياء -أي الذين لا يحتاجون إليه- عرضة للغرق لولا السفينة التي ساقتْها المصادفة إلى مكانِ الحادث المشؤوم. وهذا نادر الحدوث. ومع ذلك فإنّ الناجين يَحمدون الله على نجاتهم!

***

فلله حصّة مقرّرة ينتزعها القادرون أنفسهم -فضلاً عن العاجزين- ليقدِّموها لقمةً سائغةً لله طيِّبة بها نفوسُهم، ظنًّا منهم أنّ هذه النجاة كانت بفضله وتوفيقه. كنادي القمار يدخله اللاّعبون فيخسر مَن يخسر ويربح من يربح، ولكنّ النادي هو الوحيد الذي لا يخسر أبداً. وهكذا ينهال الحمد والشكر على الله من المؤمن الناجح في حياته، أو الفاشل على حدٍّ سواء على طريقة "الحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه".

وهكذا فإذا كان الفاشل قد حمد الله، فما قولك بالناجح، أليس هو أولى بالحمد من أخيه؟ وقد يُقرَنُ الحمدُ بالصدقة والميراث والأضاحي والأعمال الخيريّة، ظنًّا منه أنّ هذا النجاح توفيق من الله الذي استجاب دعاءه. فنِعْمَ المجيب ونِعْم النصير. فهل يَستجيب الله إلاّ لمن اتّقى وأصلح وكان من المحسنين؟ أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون.

يبدو أنّ الله عندما "يستجيب" لدعاء أخينا هذا وأمثاله من الصالحين الذين يحسنون الظنّ بالله، يبدو أنّه سبحانه لم يسمع صراخ الأطفال الجياع واستغاثة أمّهاتهم الأرامل. كلاّ. ولم يحس بأوجاع البشر وآلامهم وأحزانهم كأنّه لا يوجد من الأمّهات في هذا العام إلاّ أمُّ موسى، ولا من المساكين إلاّ أصحاب السفينة، ولا من اليتامى إلاّ الغلامان اللذان يملكان كنزاً تحت جدار متصدِّع. فيا لحنان هذا الإله! يا لرقّة مشاعره! ويا لحدبه على المستضعفين والمظلومين من عباده!! هكذا تكون الآلهة وإلاّ فلا.

لقد رفعوا إليه جميعاً أكفَّ الضراعة، متوسِّلين إليه بصاحب الشفاعة، ألاّ يدع لهم ذنباً إلاّ غفره، ولا كرباً إلاّ فرّجه، ولا حاجة إلاّ قضاها. فأجاب الطلب وقضى الأرب، ورفع الأود، فاستوجب الحمد. فله الشكر في الدنيا والآخرة، وعلى أعدائه تدور الدائرة. ولكن أين الله من هموم هؤلاء؟ إنّه، لعمري، يتسلّى برؤية الحزانى والثكالى وسماع أنين المصابين، رغم دعوات الداعين واستغاثات المستغيثين، والوعد بتأمين الخائفين وإجابة المضطرّين!! إنَّ كلَّ ما في العالم من آلهة وشياطين وحيوانات ونباتات وجمادات لا تساوي دمعة تسقط من عين أمٍّ ترى إبنَها يموت بين يديها جوعاً وهي تقف أمامه مكتوفة اليدين لا تستطيع أن تفعل له شيئاً!!

ألدعاء بضاعة المفلسين والعاجزين الذين لا يقدرون على

شيء. ألقويّ لا يدعو الله فهو في غنى عنه، ما لم يكن رجلاً قويَّ الإيمان فيرهق اللّهَ بطلباته المستمرّة، ويستزيد من فضله وتوفيقه. وهذه حالات قليلة. وقد نجد رجلاً غنياً يدعو الله، وهذا على سبيل العادة ولصُبابة من إيمان لم تذهب بها مشاغل الدنيا، هذا إن دعاه.

والدعاء في حقيقته لا يعدو أن يكون حديثاً مع النفس، كما حصل لي ولكثيرين غيري. أجل إنّنا عندما ندعو الله ونبتهل إليه، ونسأله المغفرة والتوفيق والنجاح، فإنّنا نتحدّث مع أنفسنا ونناشد أنفسَنا، ولذلك فالدعاء باب إلى الجنون إذا صادف اعتلالاً في النفس. وقد لاحظتُ ذلك في سلوكي وتصرّفاتي. ولولا أنّي بادرتُ إلى إصلاح العطب الذي أصابني من كثرة الدعاء قَبْل أن يتفاقم لمضيتُ في البلاهة إلى غاية مداها، ولكن الله سلّم.

ما أكثر الأدعية المحفوظة والأناشيد الدينيّة والمدائح النبويّة التي تدلّ على بلاهة أصحابها، أو على خبثهم ؛ لأنّ هذه الكتب لها سوق رائجة في أوساط المؤمنين البسطاء الذين يرحّبون بالأدعية "الجاهزة". فتراهم يردّدونها صباح مساء. ولذلك أصبحتُ، كلّما مررتُ على قوم يجأرون إلى الله بالدعاء ولا سيّما في حلقات الذكر، فإنّي أحسُّ بالشفقة عليهم، وأرثي لحالهم، وأقول لهم في نفسي بلغة عامّيّة ساخرة. انْطُرُوا الله!

***

١. يتقدّم ثقلاء المؤمنين إليه تعالى بدعاء مستحيل عليه تحقيقه:

"أللهمَّ! لا تدع لنا ذنباً إلاّ غفرتَه، ولا دَيْناً إلاّ قضيتَه، ولا همًّا إلاّ فرّجتَه، ولا كرباً إلاّ كشفتَه، ولا مريضاً إلاّ شفيتَه، ولا ضائعاً إلاّ أعدتَه، ولا خائباً إلاّ وفّقتَه، ولا ضعيفاً إلاّ قوّيتَه، ولا مجنوناً إلاّ

عقّلتَه، ولا ضالاً إلاّ هديتَه، ولا حائراً إلاّ أرشدتَه، ولا غائباً إلاّ أرجعتَه، ولا غريقاً إلاّ أغثتَه".

٢. ويكمّل المؤمنون طلبَهم من الله لينصرهم على اليهود؛ وكأنّ الله لهم وحدهم، ولا يعنيه أمرُ اليهود أبداً.

"أللهمَّ انصرنا على اليهود الظالمين، أعدائك وأعداء الدِّين. أللهمَّ شتِّت شملهم وفرِّق جمعهم، وخرِّب بنيانهم، ويَتِّمْ أطفالهم، ورمِّلْ نساءهم... واجعلْهم وما بين أيديهم غنيمةً للمسلمين"...

ألفاتورة طويلة، طويلة جداً، إنّها لا تنتهي. ولكن لا يهمّ، فالله على حسابهم. ويظهر أنّه لكثرة هذه الأدعية قرر ألاّ يرد على أيٍّ منها، باستثناء طلب الغفران. فلا أدري ما إذا كان قد أجاب هذا الطلب أم لا -وإن كنت أرجح الإجابة، لأنها لا تكلِّفه شيئاً-. ومع ذلك فلا يزالون يدعون الله، ومع ذلك لا يزال الله يتصامّ ويرفض الإجابة، لكي تشمت بنا إسرائيل وأصدقاء إسرائيل ويسخروا منّا ومن إلهنا.

٣. لكن أغرب الأدعية توصيتُهم اللهَ بحبيبِه وصفيِّه محمّدٍ وحسنِ معاملته، وأن يمنحه الوسيلة والفضيلة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده. إنّهم في خوفٍ دائم من أن لا ينجز الله وعدَه له، ولذلك يدعون ويلحّون بالدعاء، وبعد كلِّ صلاة، وعلى الخصوص صلاة الجمعة. كلُّ ذلك عساه يستجيب، وأظنُّه بسبب إلحاحهم لن يستجيب، ولو كان ذلك على حساب نبيّه الحبيب!

***

وُعُود القرآن (والأناجيل) باستجابة الدعاء لا تنتهي، ومع ذلك فالله فيهما لا يستجيب، ولا يزال المؤمن يدعو، وما يزال الله لا يستجيب، رغم تحقق شروط الدعاء ووعد الاستجابة، وهي شروط ينصُّ عليها القرآن نفسه. فكلّ الكتب "السماوية" مجمعة

على أنّ الله محبٌّ لعباده، لطيفٌ بهم، يحنو عليهم ويرقّ لحالهم. غير أنّها عواطف على الورق لا شيء منها يتحقّق على الأرض.

فما أسخاه سبحانه بالوعود وما أخلفه في إنجاز الوعود. إنّه لا يحبّ أحداً. كلاّ. ولا يشعر بأحد، إلاّ إذا كان الجوع والشقاء في قاموسه الفريد حبًّا وكرامة! وهو ما يسمّيه ابتلاء.

فالمؤمن مبتلى، أي لا بدّ أن يقدّم امتحاناً يمحص الله به قلبه. ونتيجةُ الامتحان ستظهر. متى؟ بعد الموت. وليس هناك تبرير لشقاء الإنسان في هذا العالم أضلّ من هذا التبرير.

لا وعود في الحياة الدنيا، كلّ الوعود ستتحقّق في الآخرة. ولقد صدّق المعذبون في الأرض هذه الأسطورة الكبيرة. بل لقد تعمّد بعضهم إيثار الشقاء على النعيم أملاً في حياةٍ خالدة سعيدة دائمة لا يعكّر صفوَها شقاء، حتّى إنَّ الصوفيّة في الإسلام، ينظرون إلى المصيبة في الحياة الدنيا على أنّها معصية عُجِّلتْ عقوبتُها، لكي تخلو لهم الجنّة ونعيم الجنّة في الحياة الآخرة.

نعم. إنّ الله لا يحبّ أحداً ولا يشعر بأحد، كلاّ. ولا يستجيب لأحد. دعونا من هذه الأوهام! فإن لم تصدّقوا فاسألوا الثكالى والأرامل والجياع، إسألوا أمّهات المعتقَلين في سجون إسرائيل، سَلوا مرضى السرطان والسكّري، سلوا المظلومين، سلوا المحرومين، سلوا المعذَّبين، سلوا العاجزين عن دفع ثمن الدواء وأجورِ الأطباء ودخولِ المستشفيات، سلوا أمهات أطفال العراق الذين يموتون جوعاً كلَّ يوم، سلوا القرنَ الإفريقي عن قوافل الجياع التي يودّعها كلَّ يوم ليهيل عليها التراب في مثواها الأخير.

أين الله من كلِّ هذا؟

قد يقال إنّ كلَّ هذه المشاهد الدرامية لا شأن لله بها، فهي نتيجة ظلم الإنسان للإنسان. حسناً، فإذا صح ذلك -وهو صحيح- فماذا يفعل الله إذن؟ هل يكتفي بأن يكون شاهداً سلبياً لا خبر له بهذا العالم ولا تأثير؟ إذا كان شرط الاستجابة أن يكون صاحبُها بارًّا قدّيساً، فهل هؤلاء المعذبون في الأرض جميعاً من اللصوص والأشقياء؟ ألا يوجد بينهم أفراد يستحقون من الله نظرة عطف أو بادرة شفقة وهو الرحمن الرحيم؟ ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين يساقون إلى الموت جوعاً؟ وأين الوعد الذي قطعه الله في القرآن على نفسه عندما قال. "وكأيِّن مِن دابَّةٍ لا تَحمِلُ رِزقَها. اللهُ يَرزُقُها وإيَّاكمْ" (٢٩ /٦٠)؟ وقال أيضاً. "ومَا مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلاّ على الله رِزقُها" (١١ /٦)؟

لقد جفّتْ حلوقُ أمّهات هؤلاء المعذَّبين، وبريت ألسنتُهم، وبُحَّت أصواتُهم وهم يدعون الله مخلصين له الدِّين ليضع حداً لعذاب أبنائهم، مع أنّه سبحانه وعد بإجابة المضطر "أمْ مَن يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ويَكشِفُ السوء" (٢٧ /٦٢).

إنّ أخبار المجاعة في الماضي كانت نادرة بالقياس إلى ما هي عليه اليوم، وكان رجال الدين يستطيعون تطويقها وإيجاد المخارج لها على طريقتهم في "لفلفة" الأشياء بالوعظ والضحك على اللّحى، لكنّ المجاعة في هذه الأيام قد أصبحت داءً عضالاً، وظاهرة عامّة نراها على شاشات التلفزيون ونقرؤها في الصحف والمجلاّت، ونسمع أخبارها بالراديو وجميع وسائل الإعلام الأخرى. إنّها طوفان يهلك الحرْث والنسل، ويهدّد الأجيال المقبلة بأوخم العواقب. فما موقف رجال الدين الأجلاّء منها؟

وأعود فأتساءل. أين الله من كلِّ هذا؟

وفي هذه الحال ما الفرق بين أن يكون الله موجوداً وأن يكون غيرَ موجود؟ إذا كان الله غير موجود، تُرى هل سيكون البلاء أكثر مما هو عليه الآن، هل سيكون عدم وجود الله شرًّا من وجوده؟ كلُّ شيء يجري في هذا العالم وكأنّ الله غير موجود.

خامساً

ألله خير الرازقين

ألله في القرآن متكفّل برزق عباده. وليس الله في القرآن مجرَّد رازق، بل رزّاق، أي بصيغة المبالغة، على طريقته في التعظيم والتفخيم والتهويل، وإطلاق القول على عواهنه، بلا أيٍّ شعور بمسؤوليّة الكلمة ووزنها قبل النطق بها، كما رأينا في مطالبته إيّانا بالدعاء ووعده بالإجابة، كأيِّ إنسانٍ دَعيٍّ ذَلِقِ اللسان. يوحي إليك بما لديه من بضاعة كلاميّة فارغة. إنّه أهل للملمَّات وموئل للكرامات. فإذا قصدتَه في حاجة زاغ وراغ وانكشف ما فيه من فراغ.

إنّ الله في القرآن يأخذ على مشركي مكّة أنّهم "يَعبُدون مِن دونِ الله ما لا يملِكُ لهم رِزقاً في السمواتِ والأرضِ شَيئاً ولا يَستطِيعُون" (١٦ /٧٣). فهل يملك الله لنا رزقاً؟ ما قولكم دام فضلكم بالفقراء المعدمين من المؤمنين أنفسِهم؟ هل يملك الله لهم رزقاً، أم تركهم يطوفون هم وأولادهم وأزواجهم على صناديق القمامة عساهم يجدون فيها ما يُمسك رمقهم؟

فإذا سألنا مفسِّرينا الثرثارين عن وضع هؤلاء قالوا - والجواب حاضر دائماً على رؤوس ألسنتهم-: إنّ ذلك يرجع إمّا إلى ما كسبت أيديهم، أو إلى ابتلاء الله لهم ليرى أيّهم أحسن عملاً؟ ومن السهل الردّ عليهم بلغتهم، أي بأن نَكيلَ بالمكيال الذي كالوا لنا به، فنقول: إنّ الأصنام، إمّا أنّها تريد ابتلاء متعبِّديها، أو إنزال العقاب بهم بما كسبتْ أيديهم. فإذا قالوا لنا: إنّ هذه سفسطة.

أجبناهم: فَلِمَ إذن لا تكون تلك سفسطة؟! فكِلا الجوابَين هما في الواقع سفسطة في سفسطة وترقيع يراد بهما إنقاذ الإيمان.

"وكأيِّنْ من دابة لا تحمل رزقَها، الله يَرزُقُها وإيَّاكم" (٢٩ / ٦٠). هل هذا صحيح؟ أتعرفون كيف يرزقها الله؟ بإطعامها دابّةً مسكينةً أخرى لا تحمل رزقها هي أيضاً ولا تقلّ جوعاً عنها. هل هذا رزق حقاً أم لعب على الألفاظ وضحك على اللحى؟

وهذا يذكِّرني بالحديث النبوي الشريف: "لو توكّلتم على الله حقَّ توكّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً (جائعة) وتروح بطاناً (بطونها ممتلئة بالطعام)". فالتوكّل معناه أن تأكل أو أن تؤكل. فهل عند الله رزق غير ذلك؟

وقد جاء في إنجيل متى سفسطة من هذا القبيل على لسان يسوع: "لا تهتمّوا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون... أنظروا إلى طيور السماء!! إنّها لا تزرع ولا تحصد، ولا تجمع إلى مخازن، وأبوكم السماوي يقوتها. ألستم أنتم بالحري أفضل منها؟"[1].

والدليل على أنّ الله لا يملك طعاماً ولا شراباً، ولا ضرّاً ولا نفعاً، وأنّه أفلس منّي ومنك، ما جاء في التوراة التي يصفها القرآن بأنّها هدى ونور "إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور" (٥ /٤٤) من أنّ موسى بقي في الجبل أربعين ليلة لا يأكل خبزاً ولا يشرب ماءً [2]. هكذا يستقبل ربُّنا ضيوفَه، أنبياء كانوا فيغنيهم عن الطعام والشراب بلقاء ذاته العليّة وتجلّياته السنيّة، أو حجّاجاً إلى بيته الحرام فيُشعل بخيامهم النار، أو يَقضي عليهم في حوادث الطرق ليمنحهم الشهادة في الديار المقدسة، تكريماً لهم وتعظيماً وتنبيهاً لنا

---

1 إنجيل متى ٦ /٢٥-٢٦.

2 رَ: تثنية الاشتراع ٩ /٩-١٨.

وتعليماً. أليسوا ضيوف الرحمن، بشراكم الجنة، تتبوَّأوا منها حيث تشاؤون، لا تسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً، إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً!!

أوَتعرفون مَن يرزق الله؟ الله يرزق من هم في غنى عنه وعن رزقه، أي الأغنياء والأقوياء واللصوص، والسماسرة وأمراء المال والأعمال والمحظوظين وأولادهم وحواشيهم وحواريهم وجواريهم والمحسوبين عليهم. أمّا الباقون فليبلعوا الهواء وليذهبوا إلى الجحيم. هذه مشيئته سبحانه، فلا اعتراض عليه: "نحن قسمنا بينهم معيشتَهم في الحياة الدنيا، ورَفَعنا بعضَهم فوقَ بعض درجات" (٤٣ /٣٢). فكل ذلك إنما يعود إلى إرادة الله ومشيئته، فهو يفعل ما يشاء ولا يُسأل عمّا يفعل، وهو أدرى بمصالح عباده: "والله فضَّل بعضكم على بعض في الرزق. فما الذي فُضِّلوا برادِّي رزقهم" (١٦ /٧١)، "والله يعلم وأنتم لا تَعلمون" (٢٤ /١٩).

فالله هو الذي يعطي ويمنع، ويعزّ ويُذلّ، وهو على كلِّ شيء قدير: "وإنّ ربَّك يَبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقدر، إنّه كان بعباده خَبيراً بصيراً" (١٧ /٣٠). ليس بأمانيِّكم وأمانيّ أمثالكم ممن يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا. فلو بسط الله الرزق للناس لاعتدى بعضهم على بعض: "ولو بسطَ الله الرزقَ لعباده لَبَغَوا في الأرضِ، ولكن يُنزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاء. إنّه بعباده خبيرٌ بصير" (٤٢ /٢٧).

فحكمة الله وبصرُه اقتضيا ألا يبسط الرزق لعباده كيلا يُفسدوا في الأرض. وهكذا فإنّ الدنيا بألف خير، لا صراع بين البشر، ولا نزاع، ولا حروب من أجل تأمين الحدِّ الأدنى -على الأقلّ- من الرزق الذي يكاد يمسك الرمق. كلاّ. لا فساد في الأرض، فما نراه من بغي الناس بعضهم على بعض من أجل تحصيل لقمة العيش ليس بغياً، إنّه من خداع البصر والبصيرة.

يظهر أنّ أخبار الفساد المستشري في هذا العالم لم تصل إلى آذان ربِّنا بعد، فلا بدّ من انتظار ألف سنة حتّى تَطرقَ مسامعَه: "يدبِّرُ الأمرَ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ، ثمّ يَعرُجُ إليه في يومٍ كان مِقدارُهُ ألفَ سنةٍ ممّا تَعُدُّونَ" (٣٢ /٥). ولعلّ هذه الأخبار بدأت تَرِدُ إليه تباعاً منذ أربعة قرون فقط، ولعلّه أحالها على اللجان المختصّة لدراستها وإصدار تقاريرهم بشأنها. وعلى أساس هذه التقارير يُصدر سبحانه حكمَه الأخير. وإنّي على ثقة بأنَّ حكمه سيكون إيجابيّاً لأنّه ليس من المقبول ولا من المعقول أن يَتركَنا هكذا نتخبّط لتأمين الماء والغذاء والدواء وأبسط متطلّبات الحياة لنا ولأطفالنا وأزواجنا، وعنده "خزائنُ السموات والأرض" (٦٣ /٧).

ومن المؤسف حقّاً أنّنا لن نشهد نحن ولا أولادنا ولا أحفادنا ولا أحفاد أحفادنا نتيجة هذه التقارير لأنّه يجب انتظار يوم آخر من أيّام ربك -أي ألف سنة أخرى- قبل وصول التعليمات الخاصّة بأرزاق أهل الأرض. ثمّ تتولّى ملائكة الأرض تنفيذَ هذه التعليمات بحذافيرها.

هناك نوعان من الأيّام عند الله: نوع مقداره ألف سنة فقط، ونوع آخر -وهذا هو المخيف- مقداره خمسون ألف سنة "تَعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة" (٧٠ / ٤)، أي يجب انتظار خمسمئة قرن آخر قبل أن تصل أخبار الفساد في الأرض إلى مسامع ربِّنا!! وخمسمئة أخرى لاستقبال التعليمات الواردة منه سبحانه! لكنّي اخترتُ النوع الأوّل من الأيّام لتفاؤلي الشديد، وكان ينبغي أن أكون أكثرَ حذراً. تفاءلوا بالخير تجدوه، والعجلة من الشيطان! ولعل هاتين الآيتين تدخلان في باب الناسخ والمنسوخ، فنَسختِ الأولى الثانية -وهذا ما أرجو- أو نسخت الثانية الأولى -والعياذ بالله تعالى-!

والحقّ يقال، إنّي لم أفهم حتى الآن هذه الآية "ولو بسط الله الرزق لعباده لَبَغَوا في الأرض" (٤٢ /٢٧)! هل كلّ ما نرى على الأرض من فسادٍ وإفساد وظلم وعدوان.. ليس بَغْياً؟ وإلاّ فلِمَ جاءتِ الأديان والشرائع والقوانين؟ أليس للحدِّ من غرائز الإنسان، وكبح جماح الإنسان، والتخفيف من بغي الإنسان على الإنسان؟

هل نَسي الله الحروبَ والمنازعات بين الأفراد والدول لسلب بعضهم رزق بعض، وانتزاعِ بعضٍ رزقَه من بعض؟ فلو كانت هناك عدالة وتوزيع رشيد لثروات الأرض لصحّتِ الآية، وبالتالي لما رأيتَ على ظهرها من ظلم وعدوان، وما كانت قوانين وسنن وشرائع. أم لعلَّ كلَّ ما على الأرض من فسادٍ لا يسمى فساداً، على طريقة "صدق الله وكذب بطنُ أخيك"، التي سبق ذكرها؟

لا اعتراض على أحكام الله. فهو "ذو العرش المجيد، فعّالٌ لما يريد" (٨٥ / ١٥-١٦). كيف لا "وهو القاهرُ فوقَ عبادِه، وهو الحكيمُ الخبير" (٦ /١٨)، "لا يُسأل عمّا يَفعل، وهم يُسأَلون" (٢١ /٢٣).

لقد أراد سبحانه أن يكون الرزق حكراً على أقلّيّة محظوظة. لماذا؟ صدِّق أو لا تصدِّق: كيلا يتفشّى الفساد في الأرض!!! وأمّا ما نرى على الأرض من فساد بسبب هذا الاحتكار وهذا التمييز وهذه التفرقة الظالمة بين البشر، فليس فساداً. إنّه يمكن أن يكون كلَّ شيء إلاّ أن يكون فساداً. وكلّ ما فعله سبحانه لإصلاح هذا الخلل -إنقاذاً للظواهر فقط- أنّه طالب المحظوظين بأن يجودوا ببعضِ فتاتِ موائدهم على إخوانهم الفقراء وهو يعلم مقدَّماً أنّهم لن يفعلوا.

وإمعاناً منه سبحانه في إنقاذ هذه الظواهر فرض عليهم نصيباً مقرَّراً: "وفي أموالِهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم" (٥١ /

١٩) وتوعَّدَهم بسوء المآل وأشدِّ أنواع العقاب، لا في الدنيا، بل في الآخرة فقط. أمّا في الدنيا فلن يمسَّهم بسوء: "والذين يَكنـزون الذَّهَبَ والفضَّة، ولا يُنفِقونَها في سبيلِ الله، فبَشِّرْهم بعذابٍ أَليم. يومَ يُحمَى عليها في نارِ جهنَّمَ، فتُكوَى بها جِباهُهُم وجُنُوبُهُم وظُهُورُهُم. هذا ما كَنَـزتُم لأنفسِكُم، فَذُوقُوا ما كُنتُم تَكنِـزُون" (٩ /٣٣-٣٤)، ووعدهم بحسن الثواب وكلِّ أنواع النعيم، في الآخرة أيضاً لا في الدنيا: إنّ "الذين يُنفقون أموالَهم في سبيلِ الله، ثمّ لا يُتْبِعون ما أنْفقوا مَنّاً ولا أذًى لهم أجرُهم عندَ ربِّهم. ولا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون" (٢ /٢٦٢).

فالإحسان وعمل الخير لا يضيع عند الله: "إنّا لا نُضِيع أجرَ مَن أحسَنَ عملاً" (١٨ /٣٠). فبالإحسان إنما يُحسن الإنسان إلى نفسه. ألإحسان، من صدقة أو غيرها، يرتدّ إلى صاحبه، كما أنّ الإساءة ترتدّ إلى صاحبها أيضاً: "إنْ أَحْسنتم أحسنتم لأنفسِكم، وإنْ أَسأتم فلَها" (١٧ /٧).

وإذا كانت التجارة في الحياة الدنيا عرضة للربح والخسارة، "فإنّ الذين أنفقوا ممّا رزقناهم يَرجون تجارةً لن تبور" (٣٥ / ٢٩). أولئك لهم البشرى أي الجنّة: "فأمّا مَن أعطى واتّقى، وصدّق بالحسنى، فإنَّ الجنَّةَ هي المأوى" (٩٢ /٥).

وهذا التسويف يتكرّر كثيراً في القرآن، فلم يُلزِمِ الله نفسه في القرآن بأي شيء في الدنيا. وإذا وعد بشيء في الدنيا ففي كلماتٍ عامّة مطّاطة تحمل كثيراً من التأويلات، وهي بالألغاز والأحاجي أشبه. وإذا تحقّق شيءٌ منها في الدنيا فهي مصادفة في مصادفة، واتّفاقٌ ما أطيبَه حين يتحقّق من مذاق!

منذ خلق الله البشر على هذه الأرض كان منهم المتخَمون ومنهم المعدَمون. وأوصى المتخمين بإخوانهم المعدَمين. لكنَّ

المتخمين زادوا استكباراً في الأرض وعتوا عتواً كبيراً. أشحّةً عليهم، يقبضون أيديهم إلى جناحهم. فإذا أُحضرت الأنفس الشحَّ فحدِّثْ ولا حرج: "ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ هُمُ المفلِحَون" (٦٤ /١٦). ولكن على مَن تقرأ مزاميرك يا داود؟

لقد وضع الله فروقاً حادة بين خلقه، وألزمني وإيّاك ومَن إلينا من عباده الدراويش بالإحسان إلى الفقراء والنفقة عليهم وبرِّهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، بعد أن تأبّى حواريّوه المتخَمون وأمسكوا أيديهم عنهم. فلهم نار جهنم وبئس المصير. هذا في الآخرة فقط، وأمّا في الدنيا فإيّاكَ إيّاكَ أن تمدَّ عينيك إليهم تبتغي عَرَضَ الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى: "ولا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزْوَاجاً منهم زَهرةَ الحياةِ الدنيا لِنَفْتِنَهُم فِيهِ، ورِزقُ ربِّكَ خَيرٌ وَأَبْقَى" (٢٠ /١٣١). إنّهم أولياء الله وأحبَّاؤه وأبناؤه المدلَّلون. إنّهم الأقلّ من واحدٍ في المئة المحظوظون في العالم. لقد وسّع الله عليهم في الرزق، وأغدق عليهم المال والبنين، ورزقهم من الطيِّبات، وآتاهم من كلِّ ما سألوه. وإنْ يَعُدُّوا نعمةَ الله لا يُحْصُوها، ولكنّهم جحدوا النعمة وولَّوا الأدبار، فزادهم الله من فضله فتنةً لهم واستدراجاً من حيث لا يعلمون!!

"ولله خزائن السموات والأرض" (٦٣ /٧) يصرفها على مَن يشاء من عباده فهو أعلم أين يصب ما في خزائنه:"أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحمَةَ ربِّك؟! نحنُ قَسَمْنا بينَهم معيشتَهم في الحياةِ الدنيا، وَرَفَعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ، ليَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخْرِيًّا، ورحمةُ ربِّكَ خيرٌ ممّا يَجْمَعون" (٤٣ /٣٢).

"ولا تَتَمَنَّوا مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعضَكم على بعضٍ" (٤ /٣٢) .
فقد اقتضت حكمته تعالى أن يكون الناس متفاوتين في الرزق: "ولو شاءَ الله لَجَعَلَكُم أُمَّةً واحدةً، ولكنْ لِيَبْلُوَكُم فِي ما أتَاكم.

فَاسْتَبِقُوا الخيراتِ. إلى الله مَرجِعُكم جميعاً" (٥ /٤٨). إنّ بسْط الرزق هو أصل الفساد في منطق القرآن، ولذلك قبضه الله وجعله محصوراً في قلّة محظوظة:"ولو بسَطَ الله الرزقَ لعبادِه لبَغَوا في الأرض، ولكنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يشاء، إنّه بعبادِه خبيرٌ بصير" (٤٢ / ٢٧).

إنّ المال فتنة، ولذلك لم يُسوِّ الله بينهم فهو أعلم بمصالحهم: "ولولا أنْ يكونَ الناسُ أُمَّةً واحدةً لَجَعَلْنا لمن يَكْفُرُ بالرَّحمَنِ لبيوتِهم سُقُفاً من فضَّةٍ، ومَعارِجَ عليها يَظْهَرون. ولبيوتِهم أبواباً وسُرُراً عليها يتَّكِئُون وَزُخْرُفاً، وإنْ كلُّ ذلك لمَّا مَتَاعُ الحياةِ الدنيا، والآخِرة عندَ ربِّكَ للمُتَّقين" (٤٣ /٣٣-٣٥).

هل هذا صحيح؟ هل بسطُ الرزق مفسدة للإنسان حقاً؟ وهل الفقر والبؤس يعصمانه من الفساد؟ هل القرآن عدو اليسار والإكتفاء الذاتي؟

حتّى تَمَنّي حياةٍ أفضلَ محظورٌ في القرآن. منطق غريب وحكمة بالغة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون!!

إنّ بيوت الذين يكفرون بالرحمن، والتي جاء وصفها في سورة الزخرف الآن، تظلُّ بيوتاً بدائيّة متخلّفة جدّاً عن قصور الذين يكفرون بالرحمن اليوم، قصور التحكم والبرمجيّات، قصور التكنولوجيا عالية التطوّر، قصور الفيديو والتلفزيون والترفيه الإلكتروني، قصور الكومبيوتر والإنترنت والسليكون ورقائق الذاكرة التي توجّه القصر إلكترونيًّا. أجل، إنَّ البيوت التي كان في إمكان ربِّنا خلقُها لولا أنّها تفتن الناس عن دينهم، ليست شيئاً مذكوراً في جنب قصور اليوم في أوروبّا وأمريكا مهما بلغ الله في وصفها من الإتقان وجودة التصوير، بحيث كانت تبدو آنذاك حلماً بعيد المنال.

والحقيقة لقد فاقت هذه القصور جميعَ توقّعاته سبحانه من غير أن يقع أي محذور من المحاذير التي تخوَّف تعالى منها. فلم يكفُرِ الناسُ بالرحمن، ولم تتحقّق الأمَّة الواحدة التي كان يَخشى وقوعَها، بل ازداد الأغنياء غنىً والفقراء فقراً. وهكذا فما كان يتخوّف منه من تخصيصِ مَن يكفُرُ به ببيوتٍ تفوق آمال الحالمين آنذاك، قد تحقّق هذه الأيام، سواء أراد الله أو لم يرد. ومع ذلك لم يتحقّق ما كان يخشاه من نتائج وخيمة تَذرَّع بها لتغطيةِ فشلِه في رفع المعاناة عن خليفته في الأرض. وبذلك يخلو الجوُّ لحوارِيِّيه المتخَمين. حسبنا ما تجود به علينا أريحيَّاتُهم مما يتبقّى من فُتات موائدهم.

في العالم أشياء كثيرة لا حصر لها تجعل الناس يكفرون بالرحمن وبألف رحمن معه. وليست هذه القصور سوى واحدة منها، لكنَّ البلاهة وعمى القلب جعلا البعض يستمرئُ الحمأةَ ويستكثرُ الفتاتَ ويحمَدُ الله عليه. وجاء الوعد بالحياة الثانية والحور العِينِ لِيَشدَّ عزيمةَ هؤلاء.

إنَّ الوعد السعيد، الوعد بالدار الآخرة، لم يقتصر أمرُه على تعزية هؤلاء البسطاء وإلهائهم به، بل إنّ هذا الوعد شغلَ الفلاسفة والمفكِّرين طوال العصور فتفلسفوا فيه، وحلّقوا في أجوائه، وخاضوا في معانيه، وسخَّروا جميع طاقاتهم لإثباتِ حقيقته. لماذا؟ لأنّهم كسائر عباد الله لهم مصلحة كبيرة في إنجاز هذا الوعد وقطْف ثماره. وهم في هذا يتَّفقون مع جميع الأديان وإنِ اختلفوا في التفاصيل والجزئيّات.

أجل، إنّ الله اختار للبشر حياةَ الذلِّ والعوَز كيلا يكفُروا بالرحمن. ولإصلاح ما فسد وتقويم ما اعوجّ وتدارك ما خلقه من نقص، أمَرَنا بالإحسان إلى الفقراء، وأوجب علينا مساعدتهم كأنّنا

نحن مسؤولون عن فسادِ مشروعه وليس هو الذي "عندَه خزائنُ السموات والأرض!" (٦٣ /٧) وإلاّ فالويل لنا. وهكذا يُلقي الكرة في ملعبِنا، وينفض يده من كلِّ مسؤوليَّة تقع عليه. إنّه لا يريد أن يجعل الناس أمَّة واحدة ترفل بالنعيم وينعدم فيها استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. لقد رفض مشركو مكّة إطعام الفقراء وبِرَّهم والإنفاقَ عليهم وبيدهم الحجة الدامغة: "وإذا قِيلَ لهم أَنْفِقوا ممّا رزَقَكم الله. قالَ الذينَ كَفَروا للذين آمَنوا: أَنُطعِمُ مَن لو يَشاءُ الله أَطْعَمَهُ؟! إنْ أنتم إلاّ في ضَلال مُبين" (٣٦ / ٤٥-٤٦)، وهو اعتراض في محلّه، ولكنَّ الله كعادته في القرآن لم يَرِدَّ عليهم، بل اكتفى بتسجيلِ اعتراضهم تحقيراً لهم وإنكاراً لمقالتهم، ومضى في تكريس التفرقة بين البشر.

فحصَرَ مجتمعَ الرفاهيّة في قلّة محظوظة، وقطَّعَ الباقين أمماً وشراذمَ من البطون الخاوية والوجوه الشاحبة والعيون الغائرة والعظام الناتئة، وألقاهم في دوّامات من الحروب والمنازعات في سبيل لقمة العيش. فإذا كان مجتمع العدل والكفاية والرفاه فساداً، والفقر والتسوّل والتشرّد صلاحاً كيلا يكفر الناس بالرحمن، فمرحًى بالرحمن والكفر بالرحمن! طوبى للمفسدين الطاغين.

وهكذا تتواطأ السماء مع الأرض لخداع الإنسان، وابتزاز الإنسان للإنسان، والتمييز بين الإنسان والإنسان، كيلا يكفر الناس بالرحمن! هذه هي مصلحة الإنسان. أمّا مجتمع التفرقة والتمييز والهياكل العظميّة المتحركة فهو للابتلاء وتمحيص القلوب: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتّى نَعْلَمَ المجَاهِدِين منكم وَالصَّابِرين" (٤٧ /٣١). وأمّا المتخمون الذين كفروا بالرحمن فإننا "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِن حيثُ لا يَعْلَمون" (٧ /١٨٢؛ ٦٨ /٤٤). فيا حسرتي على الإنسان. هذا هو منطق القرآن!!

"والله فضّلَ بعضَكم على بعض في الرزق. فمَا الذين فُضِّلُوا برَادِّي رزْقِهِم على ما ملَكَتْ أَيمَانُهم، فهُم فيه سَواء. أَفَبنِعمةِ الله يَجْحَدون" (١٦ /٧١)، فحصر الرزقَ في قلّة محظوظة، ووزّع القُتات على سائر خلقه. "ورَزَقَكم مِنَ الطيِّبات" (١٦ /٧٢). كلاّ. لم يرزقْنا منها، بل جعلها حكراً على المتخَمين الذين سخَّرَنا لخدمتهم. فإنْ طابت أنفسُهم عن شيء أَعطَونا، وإلاّ حمدْنا الله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه.

ثمّ أيُّ طيِّبات هذه التي لم يكد يخلقها حتّى سلَّط عليها جيوشاً جرّارةً من الحشرات والديدان والآفات؟! فلو كانت "خالصةً لنا" حقاً من دون سائر المخلوقات لكانت سليمة من هذه الآفات. لو كان هو الذي رزقنا إيَّاها لحفظها لنا من كلِّ ما يهدّد سلامتنا. أمّا وإنّها يشاركُنا فيها غيرُنا، فما باله يمنُّ بها علينا وحدَنا، حتّى لَصَدّقَ البسطاءُ أنّه حقاً خلقَها لنا. ومَنْ يَدري؟ فلعله يَمُنُّ على الديدان وسائر الحشرات التي تقتات بها أنّه هو الذي رزقها هذه الطيِّبات، وربما صدَّقتِ المسكينةُ كما صدَّقنا، وبذلك يكون الله قد كسبَ الفريقَين إلى جانبه وأوجب عليهما شكرَه والتنويهَ بفضله.

ولو عُلّمنا منطقَها كما عُلِّم سليمان منطقَ الطير، إذن لكشفنا اللعبة وقطعنا المنَّة. ومع ذلك فإنّه يقول في مُحكم آياته: "وَآتَاكُم مِن كلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ!!! وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحْصُوها، إنَّ الإنسانَ لَظَلُومٌ كَفَّار" (١٤ /٣٤). فهم يجحدون نعمة الله باعترافه سبحانه: "أَفَبنعمةِ الله يَحمدون؟" (١٦ /٧٠). ثمّ يَزيدهم من فضله. أمّا نحن المساكين فقد سخَّرَنا لخدمة هؤلاء الجاحدين "وَرفَعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيَتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سُخريًّا" (٤٣ /٣٢). فإنْ أَعطَونا حمدْنا الله، وإنْ منعونا فما لنا عليهم من سبيل، وشكوناهم إلى الله الذي ليس بينه وبين المظلوم حجاب، ولكنّه حجابٌ من

ورقٍ هشٍّ، فما هم بقادرين على ردِّ ما رزقهم الله الذي قسّم المعايش لنا: "نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا" (٤٣ / ٣٢).

هؤلاء المتخَمون هم سادتُنا وأولياء أمرِنا. فهم يستأثرون بحكمنا وعليهم مدارُ حياتنا. فمن الواجب طاعتُهم وعدمُ الخروج عليهم:"يا أيُّها الذينَ آمَنوا أَطيعوا الله وأَطيعوا الرَّسولَ وأُولِي الأمرِ منكُم " (٤ /٥٩).

وعلى أيِّ حال "إنَّ الذينَ تَعبُدونَ من دونِ الله لا يملِكُونَ لكم رِزقاً، فابتَغُوا عندَ الله الرزقَ" (٢٩ /١٧). كيف نعرف ذلك ما دمنا نسأله الرزق فلا يُجيبنا؟ فلا فرقَ بينه وبين ما نعبُد من دونه. ولذلك فلا وجه للسؤال:"قل مَن يَرزقُكم في السماء والأرض؟" (١٠ /٣١). ومِن حقِّي أن أجيب: لا أحد. أو على الأقل: لا أدري. فالتجربة والبرهان وتجارب الحياة متواطئة كلُّها على أنّنا نحن نرزق أنفسَنا بأنفسنا، بسعينا وكدِّنا. وعندما تضيق سبلُ الحياة في وجوهنا فإمّا أن نموت جوعاً أو أن نُهاجر إلى بلد آخر.

وما أمرُ المجاعات التي تجتاح معظم بلدان العالم الثالث عنّا ببعيد. وأمّا الله فلديه سبحانه ما يشغله عنّا. ألَم يقل:"لَخَلقُ السموات والأرض أكبرُ مِن خلْقِ الناس" (٤٠ /٥٧). فالحجارة أهم منّا. ألكَمُّ عنده أهمُّ من الكيف. إنّنا نسمع كثيراً عن خزائن الله: "ولله خزائنُ السموات والأرض" (٦٣ /٧)، "وإنْ منْ شيءٍ إلاّ عندَنا خزائِنُه" (١٥ /٢١). ولكنّه أتخَمَ به حواريِّيه المدلَّلين فنسيَ مَنْ دونهم من أرذالِ القوم وسِقْط المتاع مثلي ومثلك. وليعلم المعارضون والمعترضون أنَّ الله "لا يُسأَلُ عمَّا يَفعلُ، وهم يُسأَلون" (٢١ /٢٣).

سادساً

"وَمَا النَّصْرُ إلاّ مِنْ عِنْدِ الله"

قاتلَ الله المشركين "اتَّخَّذوا مِن دونِهِ آلهةً لعلَّهم يُنْصَرون، لا يَستطِيعُونَ نَصْرَهُم" (٣٦ /٧٤-٧٥). وأمّا الله فهو وحدَه الذي يستطيع ذلك. هل هذا صحيح؟ فها هم المسلمون المؤمنون قد اتّخذوا الله إلهاً لا شريكَ له لعلّهم يُنصَرون. فهل استطاع نصْرَهم في غزوة أُحُد، أو حُنين؟ كلاّ. وذلك على عهد النبي نفسِه وبحضوره، فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئاً. فالله، وما شئتَ من الآلهة معه، لا يستطيعُ أن ينصر خاسِراً، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً. إنّه إنما يَنصُرُ المنتصِرَ فقط، أيّ الذي لا حاجة به إلى نصرٍ من الله أو غيرِه من الأصنام أو البشر.

وترد هذه الآية بصورة أخرى أيضاً: "فلَولا نَصَرَهُمُ الذين اتَّخَذُوا مِن دونِ الله قُربَاناً آلهةً، بل ضَلُّوا عنهم، وذلك إفْكُهُم ومَا كانوا يَفْتَرون" (٤٦ /٢٨). وكذلك لو نَصَرَ الله المسلمين الذين اتّخذوا الرحمن إلهاً لا شريك له يومَ حُنين، بل ضلّ الله عنهم كما ضلّ الأصنام عن المشركين فما له لم ينصرهم إذا كان النصر من عنده حقًّا؟!

لماذا لم ينتصرِ المسلمون في حُنين؟ لقد أعجبتهم كثرتهم "لقد نصرَكُمُ الله في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنَينٍ، إذ أعجبتْكم كثرتُكم فلمْ تُغنِ عنكم شيئاً، وضاقتْ عليكُمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ، ثمّ وَلَّيتُم مُدبِرين" (٩ /٢٥). إنّ إعجابهم بكثرتهم هو إذن السبب في هزيمتهم. أرأيتَ تفسيراً للهزيمة أغرب من هذا، أو أكثر سذاجة؟!

ألإعجاب بالكثرة هو إعجابٌ بالنفس، والإعجاب بالنفس جريمة لا تغتفَر. مَن قال هذا؟ ربُّ العالمين. هل هذا معقول؟ كلُّ شيء عند المؤمنين معقول إذا ورد من السماء.

إنّ المسلمين لم ينتصروا بعد ذلك إلاّ بعد نزول الملائكة: "ثمّ أَنزَلَ الله سَكينتَهُ على رسولِه وعلى المؤمنين، وأنْزلَ جنوداً لم تَرَوها" (٩ /٢٦). أرأيتَ إلى التيئيس من الذات وكنوز الذات؟! أرأيتَ إلى تحطيم الإيمان بالذات والثقة بالذات من أجل الإيمان بذاتٍ أخرى لا تملِكُ ضرّاً ولا نفعاً؟ أرأيتَ إلى الكفر بالجهد الإنساني وسلبِه جميعَ مقوّماته؟

يريد الله في القرآن أن يمحو أيَّ شيء إسمه " أنا "، وأي أثر لهذا الأنا، وأن ينفرد هو وحدَه بالفعل والتأثير، بلا أيٍّ إعتبارٍ لخليفته على الأرض وقمّةِ خلقِه، ولعلّه نسي أنّه أمَرَ ملائكتَه بالسجود له. إنّ الله في القرآن يريد إذلال الإنسان وسحْقَه، وأن يميتَ فيه كلَّ إحساس بالعزّة والكرامة. إنّه يريد منه أن يمحضه العبوديّة المطلقة، بل لهذا خلَقَه: "ومَا خلقتُ الجِنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ" (٥١ /٥٦). ألعبودية هي العبودية، سواء كانت لله أو للبشر أو الصنم، لأنّ العبودية، أيًّا كانت، تدمِّر النفس وتسلبُها أعزَّ ما تملك.

من الغريب أنّ جميع آيِ القرآن تضرب على هذا الوتر، وتَرِ العبودية لله وانفراد الله وحده بالفعل، وسلبِ الإنسان كلَّ قدرةٍ على الفعل والتأثير. ولعلّ قِمّة امتهان الله لجهد الإنسان وسحْقِ إرادته ما جاء في قوله تعالى: "فلَمْ تَقْتُلُوهُمْ، وَلَكنَّ الله قَتَلَهُم. ومَا رَميتَ إذ رَمَيتَ، ولكنَّ الله رَمَى" (٨ /١٧). لقد فقد المسلمون أرواحَهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم وكلَّ ما يملكون، ومع ذلك فلا فضل لهم في هذا النصر إنما الفضل كلّه لله. وصدَّق هؤلاء المساكين ذلك. فبلاهة الإيمان بالله أقوى من الإيمان بالذات.

أجل، لقد صدّقوا أنّ الله هو الذي نصرهم، وأنّه لولا نصر الله، ولولا مسرحيّة الملائكة ذوي العمائم الخضر الذين خَفُّوا لنجدتهم، لارتدّوا على أعقابهم خاسئين. ولكنَّ الله أيّدهم بنصره وأرسل لهم جنوداً لم يَرَوها لتكون كلمةُ الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى:

"وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأنتم **أذلَّة**، فاتَّقُوا الله لعلَّكم تَشكُرون. إذ تقولُ للمؤمنينَ: ألَنْ يَكفِيَكم أنْ يُمِدَّكُم ربُّكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنْـزَلين. بلى. إنْ تَصبِروا وتتَّقُوا ويَأتوكُم مِن فَورِهم هذا يُمْددْكُم ربُّكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مُسَوِّمِين. ومَا جعله الله إلاّ بُشرَى لكم ولِتَطمَئِنَّ قلوبُكم بهِ. ومَا النَّصرُ إلاّ مِن عندِ الله العزيز الحكيم" (٣ /١٢٣-١٢٦).

والحق إنّ غزوة بَدْر قمّة البسالة والبذل والفداء. إنّها إحدى البطولات الكبرى التي تقرّرَ بها مصيرُ الإسلام، ومع ذلك فإنّه يراد لنا أن نصدِّق أنّ الله هو الذي نصر المسلمين ببدر. وبدلاً من أن يُشيد الله في القرآن بهذه الطاقات الخارقة ويُعطيها حقَّها من التقدير، فإنّه داسَها بقدمَيه ليجعل من أصحابها أُلعوبة بين يدَيه. فإذا انتصروا فبفضله ورحمته!! فما النصر إلاّ من عنده. أمّا صبرهم وجهادهم فأمرانِ تافهان لا يستحقّان كلمةَ شكر منه، بل الشكرُ واجبٌ له عليهم، لأنّه تفضَّلَ عليهم بالنصرِ وهم "أذلّة"!!

لاحِظوا كلمة " أذلّة " وأَعيدوا قراءةَ الآية من جديد. لاحِظوا أيضاً كلمة " لعلّكم تَشكرون " ففيها غايةُ التيئيس من الذات، وقمّةُ الإستعلاء على قومٍ حقّقوا معجزةً خارقة، وأقرّوا بفضل الله عليهم: "إنّ الله لذو فضلٍ على الناس ولكنَّ أكثرَهم لا يَشكُرُون" (١٠ / ٦٠).

ألله هو الذي نصر المصريّين على المغول في معركةِ عين

جالوت. أللهُ هو الذي نصر صلاح الدين على الصليبيّين. أللهُ هو الذي نصر الأوروبيّين على الهنود الحمر عند اكتشافهم أمريكا. أللهُ هو الذي نصر الحلفاء على هتلر. أللهُ هو الذي نصر الأمريكان على اليابان في هيروشيما. أللهُ هو الذي نصر إسرائيلَ علينا في حرب حزيران (يونيو) ونصرَنا عليها في حرب تشرين (أكتوبر)...

أمّا الكفاح والنضال والتقدّم العلمي وآلة الحرب الضخمة والقنبلة الذرّيّة التي أُسقطتْ على اليابان، فكلٌّ ذلك لا قيمة له على الإطلاق، إنما القيمة لتأييد الله ونصره. فالله لا عملَ له إلاّ تسليطُ فلانٍ على فلانٍ، ونصرُ فلانٍ على فلان... أمّا نحن فأحجارُ شطرنج...

تُرى، هل كان الله يستطيع نصر الهنود الحمر على الأوروبيّين؟ هل يستطيع نصرَنا على إسرائيل اليوم؟ لماذا لا ينصرُنا عليها، إذا صحّ ما ورد في الآية السابقة: "ومَا النّصرُ إلاّ مِن عندِ الله" التي تحصر النصرَ في الله وحده؟!

إذا كان النصر مسألةً عشوائيّة متعلّقة بإرادة الله وحده إلى هذا الحدّ، فلماذا لا ينصرنا على إسرائيل ويُريح نفسَه من إلحاح خطباء المساجد عليه كلَّ يوم جمعة من على أعواد المنابر بالدعاء لينصرَ المسلمين على الكافرين، ويشتِّتَ شملَهم، ويخرِّبَ بنيانهم، ويُيَتِّمَ أطفالهم، ويجعلهم وما بين أيديهم غنيمةً للمسلمين؟! مساكين هؤلاء الخطباء، لقد بُحَّت أصواتُهم، وجفّت حلوقهم، ولا أحد يردّ عليهم. ومع هذا لا يكفُّون عن الدعاء!!

ألنصرُ له أسبابه ومسبّباته، فإذا وُجدتْ هذه الأسباب تحقّق النصر، شاء الله أو أبى. وإذا لم توجد، فلا الله ولا خمسون إلهاً معه يستطيع أن ينصر خاسِراً. ليت شعري، ماذا عساه يتبقّى لله إذا بدأ

القتال وكانت جميعُ أسباب النصر محقَّقةً لفريقٍ دون فريق؟ عندما أُلقيتِ القنبلة الذرّيّة على هيروشيما هل كان الله يقدر على إطفائها كما أطفأ نارَ إبراهيم التي أوقدَها أعداؤه، فقال لها جلَّ اسمُه: "يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً علَى إبْرَاهيمَ" (٢١ /٦٩). هل يستطيع الله ذلك في قنبلة هيروشيما، أو في الجحيم الذي تصبُّه علينا إسرائيل في جنوب لبنان؟ بطولاتٌ وعنتريّاتٌ على الورق، فإذا جدّ الجدّ انكشف الزيف وسقط الصنم.

لقد عرف اليهودُ منذ الدهر الأوّل أنّ أيَّ نصرٍ يَحرزون في أيِّ قتالٍ يَخوضونه في سبيل الله فإنَّ ألوية النصر لن تنعقد لهم بل لله وحده، أو على الأقلّ ستكون لله الحصَّةُ الكبرى فيه، وأمّا الهزيمة فستلحق بهم وحدَهم، إنّهم المسؤولون عنها بما كسبتْ أيديهم. ويظهر أنّهم اكتَوَوا من سماع كلامٍ موئسٍ محطِّمٍ للذات من قبيل الكلام الذي مر معنا، ولذلك رفضوا نداء موسى لقتالِ العماليق، فما دام النصر من عند الله فليقاتلِ الله عنهم. وهذا حق.

لقد يئسوا من القتال لأنّه في جميع الأحوال سيكون تجارةً خاسرة ترتدّ عليهم وحدهم سواء انتصروا أو هُزموا، كيف لا وهم أعرف خلقِ الله بقضايا الربح والخسارة، وأخبرُهم وأعرقُهم نسباً وتاريخاً. ولذلك فإنّهم عندما طلب إليهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لهم! "قالوا يا موسى إنَّ فيها قوماً جبَّارين، وإنّا لن ندخلَها حتّى يَخرجوا منها، فإنْ يَخرجوا منها فإنّا داخلون. قال رجلان مِن الذين يَخافون، أنعم الله عليهما: أُدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتُمُوه فإنّكم غالبون، وعلى الله فتوَكَّلوا إنْ كنتم مؤمنين. قالوا: يا موسى إنّا لن ندخلَها أبداً ما داموا فيها، فاذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلا. إنّا ههنا قاعِدون!" (٥ /٢١-٢٤). فإذا كان الله سينـزع منهم كلَّ حقٍّ في النصر، لا سيّما وأنّ أصحاب الأرض

من العماليق المرهوبي الجانب، فلِمَ القتالُ ونتائجُه معروفةٌ سلفاً؟!

هذا هو منطق اليهود، وأمّا العرب فقد كانوا قوماً بسطاء لا يعرفون حسابات الربح والخسارة التي اختصّ بها اليهود. فقد كان مطلبهم الأوّل مرضاة الله والجهاد في سبيله ولو لم يحصدوا من هذا الجهاد إلاّ الريح! فإذا كان دأب اليهود الجبن والقعود عن القتال، فإنّ العرب سيقتحمون القتال مهما تكن نتائجه ولسان الحال والمقال فيهم لا هاجس له في الدنيا ولا مطمع إلاّ النصر أو الشهادة!!

سابعاً

أللهُ في القرآن يُقحم نفسَه في كلِّ شيء

أللّه في القرآن خالق كلّ شيء وسبب كلّ شيء ومحرك كلّ شيء، ولا يَحدث شيء في هذا العالم إلاّ بإرادته وعلمه وبإذنه. فهو يتدخّل في كلّ صغيرة وكبيرة، مهما كانت تافهة. وكم من الأشياء التي ما كان لها أن تكون لولا الإنسان. ومع هذا، فإنّ الله في القرآن يُقحم نفسه فيها. بل ويمتنُّ علينا بأنّ الفضل فيها يعود إلى رحمته وإذنه ومشيئته. فلا فاعل إلاّ هو، ولا محرِّك إلاّ هو، فهو مسبب الأسباب، بل قاهر الأسباب، ومعطّل الأسباب، وجاعل الأسباب لا تسبِّب الأسباب، بل تعطّل حركة الأسباب!!

هذه هي أيضاً عقيدة المذهب الأشعري في الإسلام. وخيرُ مَن يعبّر عن هذه العقيدة حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي. يرى الغزالي أنّ الله تعالى مريد للكائنات مدبر لها: فلا يجري في الكون قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شرّ، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكران، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، لا يجري شيء من ذلك إلاّ بقضائه وقدره وحكمته. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا يخرج عن إرادته لفتة ناظر أو فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد. فلا رادَّ لأمره ولا معقِّب لقضائه، ولا مهرب لعبدٍ من قبضته إلاّ بتوفيقه ورحمته، ولا قوّةَ له على طاعته إلاّ بمشيئته. فلو اجتمعتِ الإنس والجنُّ والملائكة والشياطين على أن يحرِّكوا في العالم ذرّة، أو يسكِّنوها بغير إرادته ومشيئته، لعجزوا عن ذلك.

إنّ إرادة الله، في نظر الغزالي، شاملة للمخلوقات جميعاً من إنسان وحيوان ونبات وجماد. فلا يعجزها شيء أو يخرج على حكمها موجود... ولا يجري شيء في هذا العالم إلاّ بها، بلا أي اعتبار للسنن الكونية والقوانين الطبيعية. فالله هو قانون العالم "يدبّرُ الأمر مِن السماء إلى الأرض" (٣٢ /٥). وهو اللطيف الخيِّر. فإنّ السنن سننه، والقوانين من فعله وخلقه، يتصرّف فيها بحكمته، ويوجّهها بإرادته. وهذا التدخل والحضور في كلّ شيء، نعمة من نعمه، وفضل تفضّل به علينا ليكون قريباً منّا، ونكون نحن قريبين منه: "ومَا بِكم مِن نعمةٍ فمِنَ الله" (١٦ /٥٣).

وهذه النعم لا عدَّ لها ولا حصر. فإذا كانت محصورة في قلّة محظوظة فذلك على سبيل الفتنة والابتلاء "ليَهلكَ مَنْ هَلَك عن بيِّنةٍ، ويحيى مَنْ حَيَّ عن بيِّنةٍ" (٨ /٤٢)، وبالصبر تتكشف معادن الرجال: "وَلَنَبْلُوَنَّكُم حتّى نَعلمَ المجاهِدين منكم والصَّابرين" (٤٧ / ٣١).

كلّ شيء له مخرجه في منطق الدين والعقيدة، كلّ شيء يمكن تطويقه بالكلام الجميل والوعد الخالب. يقولون في كثير من الأحيان إذا كان الله قد سلب أحداً المال فقد أعطاه الصحّة والعافية، وهي نعمة عظيمة توجب على صاحبها شكر المنعم سبحانه. ليت شعري، ما قيمة هذه النعمة عند من يعيش دون الكفاف، هذا إذا صحّ أنّ من يعيش كذلك يتمتّع بجسم سليم، فضلاً عن أن هذا التبرير للفقر يعمَى عن أصحاب العيون الغائرة والوجوه الشاحبة والجلود الملتصقة بالعظم. وإذا كان هؤلاء لا يزالون على قيد الحياة، فذلك لأنّ الإقبال على الموت شديد في هذه الأيّام، ولأنَّ سيِّدنا عزرائيل عليه السلام لا يستطيع تلبية جميع الطلبات في وقت واحد. فصبر جميل وعمّا قريب إن شاء الله سيدقُّ عزرائيل جميع الأبواب التي تخلّف أصحابها عن الركب، وعاجلاً أو آجلاً

سينتقلون إلى الرفيق الأعلى وعلى رؤوسهم أكاليل الغار. قليلاً من الصبر وتتحقّق الأحلام!

١. إنّ الله في القرآن هو -لا الأوبئة والجراثيم- الذي يُحيي ويميت "لا إله إلاّ هو، يحيي ويميت، ربُّكم وربُّ آبائِكُمُ الأوّلِين" (٤٤ /٨). ويظهر أنّ الله يباشر الموت بنفسه أحياناً: "ألله يَتَوَفَّى الأنفسُ حينَ مماتِها" (٣٩ /٤٢). ولكنّه يَكِلُ ذلك أحياناً أخرى إلى رسلٍ أو ملائكة مختصّين بقبض أرواح العباد "حتى إذا جاء أحَدَكُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وهم لا يُفرِّطون" (٦ /٦١).

ولم ترد كلمة (عزرائيل) في القرآن، بل ورد بدلاً عنها كلمة (ملك الموت): "قلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّلَ بكم" (٣٢ / ١١). ويعاونه في هذه المهمّة الشاقّة، عندما يشتدّ الضغط عليه، ملائكةٌ آخرون يُنجزون عنه مشكورين قسطاً من العمل: "الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طَيِّبِينَ يَقولونَ سلامٌ علَيكم" (١٦ /٣٢).

٢. وكما أنّ الله في القرآن هو الذي يُحيي ويميت بنفسه أو بتوكيل منه، فهو كذلك يُغني ويُفقر، هو، لا قانون الأسباب والمسببات. فهو الذي يُعطي ويمنع، وهو العزيز الوهّاب: "وأنَّه هُو أغْنى وأَقْنَى" (٥٣ /٤٨) أي أغنى الناس بالأموال وأعطاهم ما يتخذونه قنيةً وذخيرة: "والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ، وإليهِ تُرجَعُون" (٢ / ٢٤٥). فلا قيمة لسعي الإنسان، فالرزقُ مقسومٌ، والسعي مقدور، والله من وراء القصد.

٣. ولا يرتفع شيء في هذا العالم أو ينخفض، ولا ينمو ويتطاول، أو يذبل ويتلاشى، لا يعلو بنا أو يندثر، وما تشمخ أُمَّة أو تنحني، ولا تعزّ أو تذلُّ، إلاّ بإرادة الله وقضائه:"ومَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلقِ. أفَلا يَعقِلون؟" (٣٦ /٦٨)، فهو المعمِّر، وهو المنكِّس، يؤتي الملك مَن يشاء وينزع الملكَ ممّن يشاء، ويُعزُّ مَن يشاء ويُذلّ

من يشاء: "قُل أللهم مالك الملك، تؤتي المُلك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، بيدكَ الخيرُ وأنت على كلِّ شيءٍ قدير" (٣ /٢٦).

٤. "ولهُ الجَوَارِ المُنْشَآتُ فِي البحرِ كالأعْلام" (٥٥ /٢٤). فهو -لا السفن ولا الدّواب- يَحملنا في البرِّ والبحر: "وَلقد كرَّمْنا بني آدمَ، وحَمَلنَاهم في البَرِّ والبحرِ" (١٧ /٧٠). لقد حَمَلَنا نحن وذريّاتِنا: "وآية لهم أنّا حَمَلْنا ذرِّيَّتَهُم في الفُلكِ المشحُون" (٣٦ / ٤١). والله -لا الهواء ولا المجاذيف- يُجري الفُلكَ في البحر: "ربُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفُلكَ في البحر لِتَبتَغوا مِن فضله. إنّه كان بكم رَحيماً" (١٧ /٦٦).

وإذا صحّ أنّ الله هو الذي يَحملنا في البر البحر، فما بالنا نسقط ونغرق وتُصيبنا المهالك؟! فأنا عندما أَحمل ابني فلا أُفرِّط فيه ولا أُعرِّضه للمهالك، بينما الله لا يَعبأ بنا، ويزجُّ بنا في الأخطار والكوارث، باسم الإبتلاء تارةً، والفتنةِ تارةً، وجزاءَ ما كسبتْ أيدينا تارات. فإنْ نَجَونا قال هو الذي أنجانا، وإنْ هلكنا فكلُّ "نفس ذائقة الموت" (٣ /١٨٥). وكلّما أصابنا مكروه اكتفى بإغداق الوعود علينا في الآخرة، وأوصانا بالصبر و"الصلاة، وإنّها لَكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين" (٢ /٤٥).

ألتبرير حاضر دائماً، والحلُّ حاضر، والمَخْرَج حاضر، والوَعد حاضر، وهو على عرشه يتلهّى بنا لا يحرِّك ساكناً. وقيل للمشركين وهم على شفا الهاوية: "ادْعُوا شُركاءَكم. فَدَعَوهُم. فلمْ يَستَجيبوا لهم" (٢٨ /٦٤). وقيل للمؤمنين وهم يصارعون الأمواج في بحر عاصف: "أم مَن يُجيب المضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السوء؟" (٢٧ /٦٢). فدعوه فأشاح عنهم بوجهه الكبير، وفيهم النساء والأطفال والشيوخ والمرضى. صَمَمٌ في الحالَين: حال الأصنام وحال خالق الأنام. لقد ضلَّ عن الفريقَين ما كانوا يعبُدون. إئتُونِي بعلمٍ إنْ كنتم تَعلمون!!

٥. وكما سخَّر الله الفُلك تجري في البحر بأمره -لا بأمرنا- كذلك سخّر لنا الأنعام: "والذي خلقَ الأزواجَ كلَّها، وجعلَ لكم مِن الفُلك ما تَركَبون، لِتَستَوُوا على ظهورِه. ثمَّ تَذكُروا نعمةَ ربِّكم إذا استَوَيتُم عليه وتَقولوا سبحانَ الذي سخَّرَ لنا هذا، وما كنَّا له مُقرِنين" (٤٣ /١٢-١٣).

وقد خلق الله الأنعام، لا لنركبها فقط، بل لنأكلَ منها، وننتفع بها أيضاً: "أوَ لم يرَوا أنَّا خلَقْنا لهم ممَّا عمِلتْ أيدينا أنعاماً فهم لها مالِكون؟ وذلَّلناها لهم، فمنها رَكُوبُهُم ومنها يأكلون. ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون؟" (يس ٧١-٧٢). هناك بشر يأكلون الحشرات والفئران والقطط ولحم الميتة والثعابين... فهل الله سخّرها لهم أيضاً؟

وقد ذكر الغزالي في بعض كتاباته أنّه يعرف قوماً يأكلون التراب، فهل الله سخَّره لهم؟ أم هو الله لا يترك للإنسان متنفَّساً إلاّ أقحمَ نفسَه فيه وامتنَّ به عليه، مع أنّ الإنسان لم يصل إلى ما وصل إليه إلاّ بعد تجارب مريرة ومعاناة طويلة وحوادث مؤلمة. وكم دفع حياتَه عندما لم يفرِّقْ بين السم والدسم، بين العشب الشافي والعشب القاتل. يقول المثلُ السائر: "ومضار قوم عند قوم فوائد". فعندما يكون الشيء الواحد مؤذياً لفريقٍ ومفيداً لفريق، فهل في هذه الحال تسخير؟ وأين هو؟ أفكلّما وجدَ الإنسان شيئاً واكتشف فيه نفعاً اكتشف الله معه طريقاً إلى المنّة؟ هل هو مسخِّر له حقاً؟ وما حكم أولئك الذين اكتشفوا فيه ضُرًّا؟ ألا يدلّ ذلك على أنّ الله في القرآن لا يعترف ولا يريد ولا يطيق أن يعترف بالجهد الإنساني، كإنما الإنسان عدوُّه اللّدود، وليس خليفته على الأرض؟!

٦. حتّى الحيوانات المنويّة في رحم المرأة، لم تسلم هي أيضاً من تدخّل الله وإقحام نفسِه فيها، بلا أيِّ اعتبارٍ لقوّة هذه

الحيوانات أو ضعفها، وقدرتها على الإخصاب أو عقمها، وصراعها للوصول إلى البويضة قبل غيرها. "إنّه هو يُبدئُ ويُعيدُ، وهو الغفورُ الوَدود، ذو العرش المجيد، فعّالٌ لما يريد" (٨٥ / ١٤-١٥) فلا يكون ذكرٌ أو انثى إلاّ بإرادته سبحانه: "يَخلُقُ مَا يشاء، يَهَبُ لمن يشاء إناثاً، ويَهَبُ لمن يشاء الذكورَ، أو يُزَوِّجُهُم ذُكْرَاناً وإناثاً، ويَجعَلُ مَن يشاء عَقِيماً. إنّه عليم قدير" (٤٢ / ٤٩-٥٠). فالذَّكَر ذَكَرٌ لأنَّ الله جعله كذلك، والأنثى أنثى لأنّ الله جعلها كذلك، والعقيمُ عقيمٌ لأنّ الله أراده كذلك، سواء كان الإنسان يتمتّع بالقابلية للإنجاب أو لا.

ألمْ يَهَبْ لزكريّا ابنَه يحيى رغم أنّ زوجه كانت عقيماً فأصلحها الله: "وزكريّا إذ نادى ربه: ربِّي! لا تَذَرْنِي فرداً وأنتَ خيرُ الوَارِثين. فاستجبْنا له ووهبْنا له يَحيى، وأصلحْنا له زوجَه، إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويَدعُونَنا رَغَباً ورَهَباً، وكانوا لنا خاشِعين" (٢١ /٨٩-٩٠).

ولا يقتصر ذلك على زكريّا، بل لقد استجاب الله قبل ذلك بقرونٍ لدعاء خليلِه إبراهيم: "ولقد جاءتْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرى. قالوا: سلاماً... وامرأتُه قائمةٌ فَضَحِكَتْ، فبَشَّرْناها بإسحقَ، ومِنْ وَراءِ إسحقَ يعقوبَ. قالتْ: يا وَيلَتي، أَأَلِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بعْلي شَيخاً؟! إنّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ! قَالوا أتَعْجَبِينَ مِن أمرِ الله؟ رحمةُ الله وبرَكاتُه عليكُم أهلَ البيتِ. إنّه حميد مجيد" (١١ /٦٩-٧٣).

فالله على كلّ شيء قدير، ولكن في الماضي فقط وفي قصص الأوّلين. تباً لهذه البُشرى، فقد جاءتْنا بقوى الشرِّ، أولياءِ الله وأحبّائه بني إسرائيل!

٧. وهل نَسيتم المطر؟ فهو أعظم نِعَمِ الله على عباده في الحياة الدنيا، إذ لولاه ما كانتْ حياةٌ على الإطلاق. فلا حياة بلا

ماء: "وجَعَلْنا من الماء كلَّ شيءٍ حَيٍّ" (٢١ /٣٠). فمن الطبيعي أن يُقحم الله نفسه هنا إقحاماً لا حدود له. وكدأبه دائماً بلا أيِّ اعتبار لقوانين الطبيعة. فالمطر يَنزل من السماء، لا بحكمِ قانون الجاذبيّة وسقوط الأجسام الثقيلة، بل لإنزالِ الله له حيثُ يشاء، وعلى مَن يشاء، وإمساكِه له عمَّن يشاء. فإنما الكون كونُه والأمر أمرُه، لا شريك له في ملكه، ولا وليَّ له من الذلِّ.

فإذا كان سبحانه يُقحم نفسه في أفعال البشر، وهي أفعال إراديّة رهنٌ بمشيئة أصحابها، فأوْلى به أن يُقحمها في أفعال الطبيعة العمياء المسلوبة الإرادة: "وَهُوَ الذي أنزَلَ من السماء ماءٍ فأَخرَجنَا به نَباتَ كلِّ شيء، فأخرَجنا منه خِضَراً نُخرجُ منه حَبّاً مُتَرَاكِباً، ومِن النخل مِنْ طَلَعِها قِنوانٌ دانيةٌ، وجنَّاتٍ من أعنابٍ، والزَّيتونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وغيرَ مُتَشَابِهٍ. انْظُروا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمرَ وَيَنْعِهِ. إنّ في ذلكُمْ لآيَاتٍ لقومِ يُؤْمِنُونَ" (٦ /٩٩).

لو كان نزولُ الماء من السماء بلا عشوائية لكان آيةً حقاً، أمّا وإنّه مثلما يُعمِّر فهو يُخرِّب، ومثلما يُنقذ فهو يُتلف، ومثلما يُحيي فهو يميت، فأين الآية في ذلك؟ والماء لا ينـزل من السماء بحكمِ قانون الجاذبيّة، بل بإرادة الله: "ألم ترَ أنَّ الله أنزلَ من السماء ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ في الأرضِ. ثمّ يُخرِجُ به زرْعاً مُختلِفاً ألوانُه. ثمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا. ثمَّ يجْعَلُه حُطَاماً. إنَّ في ذلكَ لَذِكرَى لأوُلي الألباب" (٣٩ /٢١).

وهكذا فهو الذي يُنـزل المطر، وهو الذي يُخرج الثمر، وهو الذي يُفجّر الينابيع، وهو الذي يسوق الماء إلى الأرض اليابسة: "أَوَلَم يرَوا أنّا نسوقُ الماء إلى الأرض الجُرُزِ، فنُخْرِجُ به زَرعاً تأكلُ منه أنعامُهُم وأنفُسُهُم؟ أفلا يُبْصِرون؟" (٣٢ /٢٧). ولكنّه لم يذكر أنّه يسوقه أيضاً إلى الأرض السبخة، وبيوت الصفيح

الموحلة، وأحزمة البؤس المحيطة بالمدن، فيزيدها المطرُ بؤساً ويُهلك الحرْث والنسل فيها.

وإذا ذكر ذلك فإنه يذكره في معرض الترهيب والترغيب. وعندئذٍ فإنّ الخراب الذي يجرّه المطر إنما يعود إلى ما كسبتْ أيدي الناس، مع أن الذين يتأذّون بكوارثِ الماء هم الفقراء والضعفاء والمرضى ومَن إليهم. وأمّا الأغنياء والأقوياء فلا يمسُّهُمُ الله بسوء رغم كلِّ ما كسبت أيديهم. إنّهم حواريّوه وأبناؤه المدلَّلون، كإسرائيل البنت المدلّلة لأمريكا، ومَن عداها فإرهابيّون، تغضُّ النظر عن جميع ما يلحق بهم من مظالم. يجب أن يزيد الجياعُ جوعاً والمتخَمون تخمة.

هذا هو قانون القوّة سواء في السماء أو على الأرض. وعلى الدنيا السلام. فليهنَأْ فريقٌ وليَذُقْ وبالَ أمرِه فريق، ولا يمدَّنَّ أحدٌ عينيه إلى ما يستمتع به فريق دون فريق. فليتجمَّلْ بالصبر فريق، وليسارعْ في هواه فريق، والله أعلم بمصالح كلِّ فريق: "وعَسى أنْ تَكرَهوا شَيئاً وهُوَ خيرٌ لكم، وعَسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يَعلم وأنتم لا تَعلَمون" (٢ /٢١٦).فالفقر والمرض والجوع وبيوت الصفيح خيرٌ لسكّان هذه البيوت، وأمّا الآخرون فإنّنا "سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حيثُ لا يَعلَمون" (٧ /١٨٢؛ ٦٨ /٤٤).

ومعنى هذا أنّ الله في القرآن لا يتحدّث إلاّ عن التسخير الإيجابي الذي يكفل له الفضلَ والمنَّة علينا. وأمّا التسخير السلبي، أي المؤذي والمخرِّب -إذا صحّ استعمال كلمة تسخير هنا- فلا ذكر له في القرآن إلاّ على سبيل الابتلاء، وكيف يذكره وهو حجّة عليه لا حجّة له؟ فهو لا يمتنُّ علينا بطبيعة الحال بخلق الأفاعي والعقارب وتسليط الأمراض والأوبئة علينا وما لا يحصى من الكوارث والنكبات. صمتٌ تامٌّ هنا كصمت الظلام.

وحتّى هذه الأخيرة يمكن، في المنطق الديني وبشيء من الحذلقة المعهودة في كتب التفسير والصوفية، الدفاع عنها، وإيجاد شتّى المبرِّرات و " الحِكَم البالغة " التي تكمن وراءها. فهي إمّا ابتلاء، أو نتيجة ما كسبت أيدي الناس، أو تكفير عن ذنوب وآثام عُجِّلتْ عقوبتُها في الحياة الدنيا، وبذلك لا يساور صاحبَها أيُّ مخاوف وهو يَرِدُ (يعبر) نارَ جهنّم في طريقه إلى الجنة: "وإنْ مِنكُم إلاّ وَارِدُهَا" (١٩ /٧١)؛ فينجو مَن ينجو، ويَسقط مَن يَسقط. وقانا الله منها وجعلَنا من الناجين المقبولين. إنّه سميع مجيب.

٨. ألقويُّ قوي لأنَّ الله منحه القوّة، لا لأنّه أخذ بأسباب القوّة، وهو سبحانه قادر على أن ينزع منه هذه القوة إذا وقع في معصية أو حاد عن الصراط المستقيم، لا عندما يترك الأخذ بأسباب هذه القوة "ألمْ يرَوا كم أهلكْنا قبلَهم من قرنٍ، مَكَّنَّاهم في الأرض ما لم نمكّنْ لكم، وأرسلْنا السماءَ عليهم مَدراراً، وجعلْنا الأنهارَ تَجري مِن تحتِهم. فأهلكْناهم بذنوبهم وأنشأْنا مِن بعدهم قرناً آخَرين" (٦/٦). والحقّ أنّ الله مكّن المتمكِّن، أي الذي لا يحتاج إلى تمكينه، ولم يمكّن اللاّمتمكن. أي أنّ الله مكّن من ليس به أي حاجة إلى تمكينه، وتخلّى عمّن هو في أشدّ الحاجة إلى هذا التمكين. ومعنى هذا أنَّ الله لم يفعل شيئاً، فَلِمَ هذا الإستغباء للبشر؟ لقد فعل ذلك فقط ليسجِّلَ حقاً ليس له، ويَمُنَّ على مَن ليس له عليه منّة.

أنظروا إلى هذا الإقحام الغريب لنفسه تعالى في أمرٍ هو باعتراف القرآن نفسه قد تمّ وانتهى مستقلاًّ عنه سبحانه: "إنّ الله لا يُغَيِّرُ مَا بقومٍ حتّى يُغَيِّروا ما بأنفسِهم" (١٣ /١١) أي إنّ الله لا يُغيّر القوم إلاّ بعد أن يتغيّروا. فماذا تبقَّى لله في هذه الحالة؟ ألمهم أن تكون له حصّةٌ مقرَّرة حتّى في ما لا حصَّة له فيه. فإن لم تكن له حصَّة انتزعها انتزاعاً وليكن ما يكون!

٩. وأغربُ من هذا أنَّ الله خلقَ النجوم لنهتدي بها، نحن الذين وُجدنا في الدقائق الخمس الأخيرة من عمر النجوم الذي يُقدَّر بمليارات السنين: "وهو الذي جعل لكم النجومَ لتَهتدوا بها في ظلماتِ البرِّ والبحر، قد فصَّلْنا الآيات لقوم يَعلمون" (٦ /٩٧). هل يمكن لأحدٍ اليوم أن يصدِّق أنَّ النجوم جُعلت لتضيء كوكبَ الأرض التي لا تعدو أن تكون حبَّة غبار -وربما دونَ ذلك بكثير- في هذا الكون العظيم الذي لا حدود لسعته واتِّساعه؟

كلّ هذه النجوم مجعولة للإنسان؟ إذن ما أعزّ هذا الإنسان على الله الذي صنعه بيده!! شكراً لك يا ألله على هذه النجوم التي ملأتْ بطوننا بالطعام، وكانت شفاءً لنا من كلّ داء، وعوناً على تحصيل كلّ رزق، وأفعمتْ حياتَنا بالسعادة والرفاه: "وإنْ تَعُدُّوا نعمةَ الله لا تُحصُوها" (١٤ /٣٤).

فسبحانكَ يا منعم النعم، وواهبَ الخير والبركة لجميع الأفراد والشعوب والأمم!! كلّ هذه النجوم خلقتها لنا هل تسد جوعاً؟ هل تروي عطشاً؟ هل ترفع ظلامة، أو تغيث ملهوفاً، أو تدفع مكروهاً؟ ليتك تمنُّ علينا أن نشبع بعد جوع، أو نرتوي بعد عطش، وأن تنتصف لنا بعد ظلم.. وإلاّ فكلّ هذه النجوم لا تساوي لقمةً في فم جائع!!

جميع النجوم والكواكب يستضيء بعضها ببعض، ويعكس بعضها ضوء بعض؛ أراد الله أو لم يرد. فلماذا اختار سبحانَه هذه الحبّة الصغيرة ليختصَّها بالفضل والمنّة؟ هل معنى هذا أنّ سكّان الكواكب الأخرى -إن وُجدوا- محرومون من هذه الأضواء التي اختصَّنا الله بها وجعلَها حكراً علينا؟ وإذن فبم يهتدي هؤلاء المساكين؟ وإذا قُدر لنا أن نصل إلى ذلك الكوكب المأهول أو ذاك، فهل سنكون عاجزين عن الإهتداء بالنجوم التي كتبَها الله لنا ما دمنا

على الأرض؟ أم إذا انتقلنا إلى كوكبٍ آخر فَقَدْنا حقَّنَا في الاهتداء بهذه النجوم، أم تُرانا سنظلُّ محتفظين بهذا الحق الذي اكتسبناه بحكم إقامتنا وسكنانا السابقة على الأرض؟

إنّي أطرح هذا السؤال على الخبراء لمناقشته مشكورين والإدلاء برأيهم فيه، ومن المستحسن أن يكون هؤلاء الخبراء على مستوى عال من البحث والدراسة، بحيث يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، علوم المادّة وعلوم الروح. سدَّد الله خطاهم ونفَّعنا ببركتهم. إنّه سميع مجيب!

والحقّ أنّ هذه الآية تدور في نطاق علم الفلك الأسطوري البطليموسي القديم، وتتحدّث بلغته الشعرية العطرة الفوّاحة، وليس لصاحبها أي فكرة عن كون لا نهائي تتناثر فيه مليارات من الجزر النجومية والثقوب السوداء. فالكون بحسب هذه الآية خيمة صغيرة تحتلُّ الأرضُ مركزَها، ومن حول هذه الأرض تدور الشمس وسائر الكواكب، والقمر أحدُ هذه الكواكب. شمسٌ واحدة وقمر واحد هذا هو الكون. وأمّا السماء فهي سطح مستوٍ مرصّع بالنجوم ليهتدي به أهلُ الأرض في ظلمات البر والبحر. وهذا تصوّر مغلق ضيّق للكون يُسِرُّ الناظرين، ويشبع مركزيّتهم الفارغة.

١٠. وكما أن الله في القرآن يمنُّ علينا نعمة النجوم وهي منَّة مردودة، إذ لا يربطنا بهذه النجوم أيُّ رابط، فهي موجودة قبلنا سواء وُجِدنا أو لم نوجَد، وهي موجودة قبلنا وستظل موجودة بعدنا، فلا شأن لها بنا ولا شأن لنا بها، كذلك يمنُّ علينا مدّ الظلِّ. وهي أيضاً منّة عجيبة مردودة.

فالمعروف أن أي جسم مادّي محسوس موضوع في الشمس يترك ظلاًّ. هذا الظلّ يختلف طوله من وقت إلى آخر تبعاً لقرب الشمس (أو أي مصدر آخر للضوء) أو بُعدها عنه. هذه مسألة

واضحة لا أحسب أحداً يشكّ فيها أو يطلب تفسيراً لها. ومع ذلك فإنّ الله في القرآن يخلق لها أيدياً وأرجلاً وحركاتٍ وتحرّكات ليُضفي عليها صورةَ النعمة التي تستوجب الشكر مِنا، كأنّنا أطفال نصدق كلّ َما يقال لنا: "ألم ترَ إلى ربِّك كيف مَدَّ الظلَّ، ولو شاء لجعله ساكِناً. ثمَّ جعلْنا الشمسَ عليه دليلاً. ثمّ قبضناه إلينا قَبْضاً يسيراً" (٢٥ /٤٥-٤٦).

لاحظوا تعبير "لو شاء لجعله ساكناً". هل من الممكن ذلك؟ إنَّ سُكون الظلِّ معناه سكون الشمس ووقوفها، كما وقفتْ للنبي عليه السلام يوم أُسري به وعَرَج إلى السماء، بل كما وقفتْ ليشوع بن نون على ما جاء في التوراة، حيث وقفت الشمس ووقفت الأكوان بأمرٍ صادر عن خالق الأكوان!

١١. إذا جمعتَ مالاً فلا تقولنَّ إنّكَ أنت صاحب هذا المال. ألمال مال الله الذي استخلفك فيه لأنّه أمانة في عنقك. وليخسأ كلّ مَن يتطاول على الله ويظنّ في المال غير ذلك. قاتلَ الله قارون الذي زعم أنّه جمع ماله بمواهبه الخاصّة وبراعته ومعرفته الخارقة بطرقِ الكسب والتحصيل: "إنّ قارون كان من قوم موسى فبَغى عليهم، وآتَيناه مِن الكنوز ما إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنوءُ بالعُصبةِ أُولي القوّة. إذ قال له قومُه: لا تفرح. إنّ الله لا يحبّ الفرحين. وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة. ولا تنسَ نصيبك من الدنيا. وَأَحْسِنْ كما أحسَنَ الله إليكَ، ولا تبغِ فساداً في الأرضِ. إنّ الله لا يُحِبُّ المفسدين. قال إنما أُوتِيتُهُ على علمٍ عندي" (٢٨ / ٧٦-٧٨).

أرأيتَ إلى هذه الجرأة على الله؟ ماذا كانت النتيجة؟ "فخَسَفْنا به وبدارِه الأرضَ، فما كان له من فئةٍ يَنصرونه من دون الله، وما كان مِن المنتصِرِين" (٢٨ /٨١). ولم يكن الخسف واسع النطاق، بل كان محصوراً به وبداره، ولم يتعدَّهما إلى ما وراء ذلك،

فحمدوا الله وقالوا شاكرين: "لولا أنْ مَنَّ الله علينا لَخَسَفَ بِنا" (٢٨ /٨٢). وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

١٢. وشبيه بذلك أيضاً، أي بالثقة الفارغة بالذات والقدرة على السعي وجحود الفضل الإلهي والكفر بالنعمة، ما جاء في قوله تعالى مندِّداً بالإنسان الذي يجحد رحمة ربه بعد أن تداركه بلطفه وكشف عنه السوء: "ولئنْ أَذَقْنَاهُ رحمةً منّا من بعدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْه لَيَقولَنَّ هذا لي" (٤١ /٥٠). نعمْ لي. أي بعملي وجهدي ولا شأن لله بي. فلولا نشاطي ودأبي وسعيي وإيماني بذاتي وقدرتي على الفعل والتأثير، واعتمادي على الأسباب والمسببات للخلاص ممّا أصابني، لما تغيّر حالي، بل لازددتُ سوءاً إلى سوء. لَعمري! إنَّ إنكار ذلك ابتزازٌ لا أقبله ولا أسمح به، ما دام يسطو على جهدي وينتزع منّي مبادرتي وقدرتي على التصرف والسلوك، على وفق إرادتي ورؤيتي للموقف والأحداث التي تحيط بي. إنّ الله في القرآن يجرِّدني من أخصِّ خواصّي وينتزع منّي كينونتي ومبرِّرَ وجودي!!

إذا سكنتَ مسكناً فاحذر أن تقول إنّكَ أنتَ وطّأته لنفسك سكناً وملأته بالأثاث. فالله هو صاحب البيت وهو بانيه، ولا تعدو أنت أن تكون أداةً بين يديه يُصرِّفك كيف يشاء، سواء كان البيتُ حجراً تبنيه لبنةً فوق لبنةً، أو جِلْداً تجعل منه خيمة تأوي إليها: "والله جعلَ لكم مِن بيوتكم سَكناً، وجعل لكم من جلودِ الأنعام بيوتاً تستخفُّونها يومَ ظَعْنِكم ويومَ إقامتِكم. ومِن أصوافها وأوبارِها وأشعارِها أثاثاً ومِتاعاً إلى حين" (١٦ /٨٠).

١٣. ولا تحسبنَّ الشفاء من الأمراض رَهناً بالطبيب وبالدواء الذي يصفه لك الطبيب. فالله هو الشافي. بئس المريض يظنُّ الطبيبَ هو الشافي. فالله خلقنا وهدانا، وهو يُطعمنا ويَسقينا

ويَشفينا من الأمراض، وهو يميتنا ثمّ يُحيينا، ونرجو أن يغفر خطايانا: "الذي خلَقَني فَهو يَهدينِي، والذي هُوَ يُطعِمُني ويَسقِيني، وإذا مرضتُ فهوَ يَشفِيني، والذي يميتُني ثمّ يُحييني" (٢٦ / ٧٨-٨٠)؛ كما أنّ "مِنَ القرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين" (١٧ /٨٢). فالتمسوا الشفاء إذن في مظانّه " الحقيقيّة " إن كنتم مؤمنين. فإلى الله وكتابه العزيز فهو أحسن الحاكمين!

"وإذا مرضتُ فهو يشفيني". هل هذا صحيح؟ إنَّ مجرّد طرح هذا السؤال يثير السخريّة. فكما أنّ الله لا ينصر إلاّ المنتصر، أي الذي لا حاجة إلى أيّ نصر من الله أو من غيره، كذلك هو لا يَشفي إلاّ الجسم القابل للشفاء، وإلاّ فإنَّ الله وخمسين إلهاً معه لا يَشفي مريضاً أعضل فيه الداء وعزَّ الدواء وحار أمامه نُطُس الأطباء، ولا سيّما في تلك الأثناء. هل شفى إبراهيمَ، ابنَ حبيبِه الأعظم، المصطفى صلّى الله عليه وسلم، الذي تفطّرت عيناه وهو يرى إبنَه وفلذةَ كبدِه ينتزعه الموت مِن يدَيه بلا أيِّ حرقة أو اعتبار لنبوته؟!! ولو شُفي على سبيل المصادفة، ككثير من الأمراض البسيطة، لنزل فيه قرآن من السماء، ولكان ذلك إحدى معجزاته الدالة على صدق نبوته.

ماذا أقول؟ هل استطاع الله أن يدفع عن نبيه أذى السمِّ الذي دسَّتْه له المرأة اليهوديّة لتعرف صدق نبوته: "فإن كان نبياً من عند الله حقاً لم يؤثِّر فيه السمُّ وإلاّ عاجله الموت". وهكذا كان السمُّ سببَ مرضه الأخير وموتِه بعد ذلك بقليل. فمَن أحقُّ بالشفاء من نبيٍّ يتحدَّى نبوَّتَه الأعداء؟ ومع ذلك فأنّ الله -كعادته دائماً- لم يحرِّكْ ساكناً ليلجم الأعداء، ويمنعهم من الشماتة به والسخرية ممَّن يكلّم من السماء!

فلو فعل لكان معجزة المعجزات، ولنزلت فيه الآيات

البيّنات. وكذلك لو شفى إبنه إبراهيم لكانت آيةٌ ضُمَّت إلى سائر الآيات، ولما وقع الإنشقاق العظيم بين السُنّة والشيعة، ولما كانت خلافات، لطالما عانينا منها، بل لا نزال نعاني منها اليوم أشدَّ الأزمات ؛ فالحمد لله الذي لا يُحمَد على مكروه سواه، خالق الأرض وخالق السموات!!!

١٤. وإن تعجب فاعجبْ مِن حوت يونس (يونان) عليه السلام: "وإنَّ يُونُسَ لمِنَ المرسَلِين. إذ أَبَقَ إلى الفُلكِ المشحُون. فساهَمَ فكان مِن المُدحَضِين. فَالْتَقَمَهُ الحوتُ وَهُوَ مُليمٌ. فلولا أنَّه كان من المُسَبِّحين لَلَبِثَ في بطنِه إلى يومِ يُبعَثون. فَنَبَذْناه بالعَراءِ وهوَ سَقيم" (٣٧ /١٣٩-١٤٥). أنا لا يهمّني هنا مضمون الآية، وهل هي تتحدّث عن واقعة تاريخيّة، أم هي محض أسطورة، أنا إنما يهمّني فيها هنا كلمة (نبذناه)، أي ألْقَيناه، مع أن النابذ في الحقيقة هو الحوت لا الله، وهذا لعمري أعجب إقحامٍ لله في ما لا دخلَ له فيه، وأغرب حشر له في ما لا يَعنيه. ألمهم أن تكونَ له حصَّة، بل كلّ الحصص في جميع ما يَجري في هذا الكون، بحيث يستغرق الحصصَ، ولا يترك لأحدٍ حصة، وأمّا نحن البشر فلا ذكر لنا ولا لحقنا في أيِّ حصَّة!

***

تلكم هي صورة موجزة، آمل أن تكون واضحة عمّا أقصده بعنوان هذه الفقرة (الله يقحم نفسه في كلّ شيء)، فالله هو الذي يُحيي ويميت، وهو سبب الغنى والفقر، لا يرتفع شيء في هذا العالم ولا ينخفض، ولا يتحرك أو يسكن، ولا تقوم الدول أو تسقط، إلاّ بفعله وتأثيره ؛ فهو الذي يحملنا في البَرِّ والبحر، ولو كانت الطائرة معروفة على عهد النبي لأضاف "والجو"! فهو الذي سخّر لنا الأنعام لنركبها ونأكل منها، ولا تحمل أنثى إلاّ بإذنه ولا تغيض

الأرحام إلاّ بعلمه، ولا ينزل الغيث إلاّ بقدرته. لا قوة إلاّ قوته، ولا تقوم الدول والأمم إلاّ بإقامته. فإذا عصيتَ وخالفتَ عن أمره فلا تلومنَّ إلاّ نفسك، وقد أعذر من أنذر.

علامَ يدلّ هذا؟ هل هناك كفر بالجهد الإنساني أكثر من هذا؟ هل هناك قتل للمبادرات الشخصية أكثر من هذا؟ هل يَخرج البشر من القرآن عن أن يكونوا أحجار شطرنج يُصرِّفهم الله كيف يشاء كتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض؟

إن الله في القرآن لا يكتفي بتجريد الإنسان من كلّ جهد أو مسعى، بل هو أيضاً يجرّد الأشياء من قوانينها الطبيعية من قواها وأفاعيلها، ويحصر ذلك كلّه في ذاته المريدة الفاعلة القادرة على كلّ شيء وبيدها زمام كلّ شيء! فلا قانون في الطبيعة إلاّ قانون إرادته، ولا فعل إلاّ فعل مشيئته: "لا يُسأَلُ عمَّا يَفعل، وهم يُسأَلون" (٢١ /٢٣).

أفلا يدلُّ ذلك كلّه على التحكّم المطلق والعشوائيّة والتعسّف في الحكم، حيث لا توجد قاعدة للعمل أو "مؤسّسات" تضبط هذا التعسّف، وتتحكّم في هذه العشوائيّة، وتقلم أظفارها، وتسيّرها في مسارها الصحيح.

أمّا ما ورد في القرآن من إثباتِ الكسب والسعي للإنسان فإنما يراد به إثبات المسؤوليّة العقابية، وبالتالي استحقاق العقوبة، وأمّا استحقاق الثواب فلا فضل للإنسان فيه. فلا أحد يَدخل الجنة بعمله حتّى النبي نفسه، بل بفضلٍ من الله وكرمه. إنّه نعمة أنعم بها عليه، يختصّ بها من يشاء، ويُمسكها عمن يشاء: "إنّه هو يُبدئُ ويُعيدُ، وهو الغفورُ الودودُ، ذو العرشِ المجيدُ، فعَّالٌ لما يُريدُ" (٨٥ /١٣-١٦).

ثامناً

"وهو القاهر فوق عباده"

لعلَّ هذه الآية أصدق الآيات وأكثرها انطباقاً على الله، بل لعلّ الأصدق منها صيغة المبالغة في القهر: "قل الله خالق كلّ شيء، وهو الواحدُ القَهّار" (١٣ /١٦). وتتكرّر هذه الصيغة ستَّ مرات في القرآن[1]. وأمّا الآية الأولى فلم ترد سوى مرَّتين فقط[2]، ولذلك فالمبالغة في القهر أغلب على الله، وأكثر تعبيراً عن طبيعته من مجرّد صفة القهر. هذه هي الدلالة المباشرة للآيات الستّ.

ومع ذلك ينبغي التحفّظ هنا وعدم إطلاق القول على عواهنه. فالقرآن، كما سنرى، مغرم كثيراً بالتهويل والتعميم والمبالغة في كلّ شيء يتحدّث عنه. وهذا من أهم أسباب اتّساع الهوّة بين الله على الورق بكلّ ما فيه من خيال وتهويل ومثالية، وبين الله على الأرض بكلّ ما فيه من جدّيّة ومسؤوليّة ورصانة وصرامة ودقّة والتزام.

ضمن هذه الحدود يجب أن يكون تصوُّرنا لله في القرآن.

١. مِن مقتضيات القهر التسلط وفرض الرأي بالقوّة، وإلاّ فالويل لمن يخالف إرادة الله. لا معارضة ولا جدال ولا نقاش في الأمر الإلهي الذي لا يتحرّك إلاّ بين الأبيض والأسود، ولا وسط بينهما.

٢. والقهر هو الهيمنة والاستعلاء، وهو شيمة الله في علاقته

---

1 ١٢ /٣٩؛ ١٣ /١٦؛ ٤٨١٤؛ ٣٨ /٦٥؛ ٣٩ /٤؛ ٤٠ /١٦.

2 ٦ /١٨ و٦١.

مع خلقه. فهو خالقنا ومن حقِّه أن يكون القاهر فوقَنا:"قل الله خالق كلّ شيء، وهو الواحد القهّار" (١٣/ ١٦). وقد أنذَرنا الله وحذّرنا من سوء المنقلب فلا نلومنّ إلاّ أنفسَنا: "قلْ إنما أنا منذر، وما من إلهٍ إلاّ الله الواحد القهار" (٣٨/ ٦٥).

٣. ولَشدِّ ما يكون هذا القهر "يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ وبَرَزوا لله الواحدِ القهّار. وترى المجرمين يومئذٍ مُقرَّنين في الأصفاد. سَرابيلُهم من قَطِرانٍ وتَغشى وجوهَهُمُ النارُ. لِيَجزِيَ الله كلَّ نفسٍ ما كسبتْ إنَّ الله سريعُ الحساب. هذا بلاغٌ للناسِ وَلِيُنذَروا بهِ ولِيَعلَموا أنّما هوَ إلهٌ واحدٌ، ولِيَذَّكَّرَ أُولو الألبابِ" (١٤/ ٤٨-٥٢).

٤. لا إله إلاّ هو تنـزَّه عن الشريك والولد: "لو أراد الله أن يتّخذ ولداً لاصطَفَى مما يَخلق ما يَشاء، سبحانه ! هو الله الواحدُ القهار" (٣٩ / ٤). كيف لا وهو ربُّ السموات والأرض: "قلْ مَنْ ربُّ السمواتِ والأرض؟ قلِ الله. قلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِن دونه أولياءَ لا يَمْلِكُونَ لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؟ قلْ هل يَستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تَستوي الظلمات والنور؟ أم جعلوا لله شركاء خَلَقوا كخلْقِه فتشابَه الخلقُ عليهم؟ قلِ الله خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهَّار" (١٣/ ١٦).

إرجعوا إلى ضمائركم واستفتوا قلوبكم: "أأربابٌ متفرِّقونَ خيرٌ أمِ الله الواحد القهَّار؟ ما تَعبُدون من دونه إلاّ أسماء سمّيتُمُوها أنتم وآباؤكم. ما أنزلَ الله بها مِن سلطان. إنِ الحُكمُ إلاّ لله. أَمَرَ ألاَّ تَعبُدوا إلاّ إيَّاه. ذلك الدِّينُ القَيِّمُ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمون" (١٢/ ٣٩-٤٠).

وإذا كان القهر من صفات الله، والقهر هو الهيمنة، كما ذكرنا، والهيمنة هي صفة له أيضاً، و " المُهيمن " من أسمائه

الحسنى "هو الله الذي لا إلهَ إلاّ هو، الملِكُ، القدّوسُ، السلامُ، المؤمِنُ، المُهَيْمِنُ، العزيزُ، الجبَّارُ، المتكبِّرُ، سُبحانَ الله عمّا يُشرِكون" (٥٩ / ٢٣).

وهكذا، فمبرِّر القهر والهيمنة اللَّتَين يتّصف الله بهما هو أنّ الله خالق العباد، مُتصرِّف في شؤونهم. وقد أنذَرَنا على لسان أنبيائه ورسله، فلا نلومُنَّ إلاّ أنفسنا. ولذلك فلا مُهَيمِنٌ إلاّ هو لا شريك له. إليه المصير. وأمّا ما دونه فلا يقدرون على شيء، وهو على كلّ شيء قدير. فلا حُكم إلاّ له، ولا معبود إلاّ إيّاه، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون.

٥. ومن مقتضيات الهيمنة والقهر المنسوبَين إلى الله رفضُ الآخَر، ورفضُ الحوار مع الآخَر، وعدمُ التسليم له بأيِّ حقٍّ في المعارضة والمبادرة وإبداء الرأي، بتسفيهه والهزء به والإستنكاف عن الردِّ عليه، وإطلاقِ ما رثَّ وهانَ من النعوت والأوصاف لتقزيمه وتجريحه وتجريمه، وقتلِ مبادرته وقطعِ أنفاسه، فيكون عبرةً لمن اعتبر ! يجب أن يَقبل بما يُملَى عليه طوعاً أو كرهاً: "وإذْ نَتَقْنَا الجبلَ فوقَهم كأنّه ظُلَّةٌ وظنُّوا أنَّه واقعٌ بهم، خُذوا مَا آتَيناكم بقوَّةٍ. واذْكروا ما فيه لعلّكم تَتَّقُون" (٧ / ١٧١).

ألحديث هنا عن اليهود المشاكسين المعارضين لموسى، فقد رفع الله الجبل من أصله فوقهم كأنه مظلّة أو سقيفة، حتّى أيقنوا أنّه ساقط عليهم إن لم يقبلوا أحكامَ التوراة. والمقصود بالجبل هنا هو طور سِينا: "وإذ أخذْنا ميثاقَكم ورفَعْنا فوقَكُمُ الطُّورَ. خُذوا ما آتيناكم بقوَّة" (٢ /٦٣و٩٣). إنّه لم يتركْهم وشأنهم رغم عدم اقتناعهم بما أُنزِل عليهم. يجب أن يؤمنوا شاءوا أم أبوا.

ما دخْلُ الله في قضايا الإنسان الشخصيّة التي هي من أخصّ

خصائصه وحقٍّ من حقوقه الطبيعية؟ لقد أفرغ موسى كلَّ ما في جعبته لهدايتهم فلم يَهتدوا، ثمّ قبلوا ما جاءهم به بالتهديد والوعيد وبقوَّة السلاح، إذا صحّ التعبير، فهل يُعدُّ ذلك في شريعة الله إيماناً؟ ألا بئس من إيمان، ولكنّه الآخر يجب تحطيمه وقطع أنفاسه إذا لم يدخل في الحظيرة، مهما تكن هذه الحظيرة، حتّى ولو كانت زريبة للحيوانات.

إنّ قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم جاءتْهم رسلهم بالبيّنات، أي بالأدلّة والبراهين والحجج " الدامغة "، ولكنّهم لم يقتنعوا؛ بل كفروا بها. وهذا من حقِّهم. ولكنَّ الله في القرآن لا يطيق كلمة " لا ". يجب أن يؤمنوا كيفما اتفق، بالآيات البيِّنات أو بلا آياتٍ على الإطلاق، وإلاّ فالويل لهم.

وأمّا المعجزات فإن الله يمنّ بها على مَن يشاء من رسله ويمنعها عمن يشاء. إليه الأمر، وهو على كلّ شيء قدير. فالله في القرآن لم يخذل محمداً فقط في أمر المعجزات، بل لقد خذل أيضاً بعض الأنبياء السابقين. هل هذا يشجّع على الإيمان، أم هي انتقائيّة دكتاتوريّة مفروضة فرضاً. لقد كذَّبوا أنبياءهم وكانت نتيجة هذا التكذيب هلاك المكذِّبين وإنزال العذاب بهم، مع أنَّ الذنب ليس ذنبَهم، إنما الذنب هو قصور الأدلّة وعدم دعمها بالمعجزات: "قالتْ لهم رُسُلُهُم: أفي الله شكٌّ... قالوا: إنْ أنتم إلاّ بشرٌ مِثلُنا... فَأْتُونَا بسلطانٍ مُبين. قالت لهم رُسُلُهُم: إنْ نحن إلاّ بشرٌ مثلُكم، ولكنَّ الله يمنّ على مَن يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلاّ بإذنِ الله... وَلَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيتُمُونا، وعلى الله فليتوكَّلِ المتوكِّلون... فأوحى الله إليهم لنُهلِكنَّ الظالمين" (١٤ / ١٠-١٣).

٦. لا خيار أمام الإنسان في هذه الحالة إلاّ خيار واحد، وهو

الإذعان للقهر وعدم الخيار. "وربُّكَ يَخلُق ما يَشاءُ ويَختارُ. ما كان لهم الخِيَرَةُ، سبحانَ الله وتعالى عما يُشركون" (٢٨ /٦٨). وإذا كان السياق هنا يشير إلى المشركين استنكاراً لفعالهم، فليس معنى ذلك أنّ الحُكم هنا محصور فيهم وحدهم، بل يستوي فيه المشركون والمؤمنون جميعاً على حد سواء: "ومَا كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُهُ أمراً أن يكون لهم الخِيَرَةُ مِن أمرِهم. ومَن يَعْصِ الله ورسولَه فقد ضلَّ ضلالاً بَعيداً" (٣٣ /٣٦).

وقد نزلت هذه الآية -كما يقال في الإصطلاح الإسلامي- في زينب بنت جحش وهي مِن شريفات مكّة حين زوَّجها النبيُّ قسراً عنها مولاه وابنَه بالتبنّي زيداً بن حارثة. فتمرّدت على هذا الزواج الذي فرضه الله عليها عنوة من غير أن يراعي مَشاعرها. وكانت النتيجة فشَلَ هذا الزواج فشَلاً ذريعاً رغم أنّ الأمرَ قد نزل من السماء، وهي في ذلك الوقت أعلى سلطة مرجعيّة في العالم. لذلك وقع ما لا بدَّ منه وهو الطلاق.

٧. ولا يكفُّ الله عن تحذير المؤمنين من الخروج عمّا اختاره لهم حتّى ولو كان هذا الذي اختاره ضارًّا بهم وفي غير مصلحتهم، كما رأينا في الحالة السابقة: "فلا ورَبِّكَ لا يؤمنون حتّى يُحَكِّمُوكَ في ما شَجَرَ بينَهم" (٤ /٦٥). ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يجب أيضاً ألاّ يجدوا في أنفسهم ضيقاً أو شكّاً في ما قضى الله. فكلُّ ذلك حرام حتّى حديث النفس فيه. ولذلك تمضي الآية السابقة قائلة: "ثمّ لا يَجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قَضَيتَ، ويُسَلِّمُوا تَسليماً" (٤ /٦٥). وهذا لعمري غاية الهيمنة والقهر، أفبعد هذا القهر قهر؟ أليس من أسمائه الحسنى " المهيمن " و"القاهر"، بل " القهّار "؟!

تسليمٌ مطلق للقاهر فوق عباده، وإذعانٌ غيرُ مشروط

لهيمنته. كلمتُه قانون واجب التنفيذ. لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، ولا خسران إلاّ على المكذِّبين. لا معجزات ولا خوارق: "ومَن يتولَّ فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد" (٦٠ / ٦). ذلك الدين القيّم "فمَن شاءَ فليؤمِنْ ومَن شاءَ فليَكفُرْ" (١٨ /٢٩)، "فأمّا الذين آمَنوا فيَعلَمونَ أنَّه الحقُّ مِن ربِّهم" (٢ /٢٦)، "ولا يُرَدُّ بَأسُنا عنِ القومِ المُجرِمين" (١٢ /١١٠).

فعامة الناس وبسطاؤهم -ولا سيّما الفقراء منهم والمستضعفون في الأرض- يستجيبون للدعوة بلا جدالٍ لمجرد سماع القرآن وحديث الرسول.

٨. لكنْ تظلُّ هناك فئةٌ معارضة دأبُها المكابرة والمعاندة ؛ لقد وضعتْ يدها على نقطة الضعف التي تتمكّن بها من الإسلام وهي إفلاسه المطلق في باب المعجزات وعدم استعداد النبي لتقديم أيِّ معجزة سوى معجزة القرآن، وهي أسطورة استولت على الفحول فما ظنُّكَ بما دونهم؟

ولكن المعارضة المشكِّكة ظلّت تتحدّى النبيَّ. إنّها لا تريد معجزاتٍ كلاميَّة فارغة. بل أصرّتْ عليه أن يأتي بمعجزةٍ حقيقيّة من الله تصديقاً لنبيِّه أسوة بسائر الأنبياء الذين جاءوا قبله في الدهر السالف، والذين تحدّث عنهم القرآن نفسه. إنّهم لا يريدون معجزة " حَكي "، بل معجزة " فعل ". ويظهر أنّ النبي كان يتبرّم بهذا الطلب ويضيقُ ذرعاً كلّما ألحُّوا عليه به لعلمه مقدَّماً بعجزه عن تلبيته !

٩. إنّ الله في القرآن لا يُطيق الآخَر، ولا يحتمل معارضة الآخَر، كما سلف القول. فالآخر هو، بمعنًى ما، شريكٌ يتنافى مع الوحدانيّة المطلقة الواجبة لله تعالى، حتّى ولو كان هذا الشريك صاحبةً أو ولداً. فالشريك نَدٌّ، والله لا يريد أنداداً بل يريد عبيداً. إنّه

لم يخلق الإنس والجنَّ إلاّ ليكونوا عبيداً: "ومَا خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعبُدُونِ" (٥١ / ٥٦). وهذه العبودية لا تنسحب على الدنيا فقط، بل تنسحب على الآخرة أيضاً: "إنْ كلُّ مَن في السموات والأرض إلاّ آتي الرحمنِ عبداً" (١٩ /٩٣).

ومن هنا تحقير الله لهذا الآخر الذي يتجرّأ عليه.

١٠. إنّ الله في القرآن صاحب مشروع يريد فرْضه بالإكراه، أي بأكثر ما يمكن من القهر، وأقل ما يمكن من الحوار، والويل لمن لا ينصاع لإرادته، وطوبى لـ"الذينَ "يَستَمِعونَ القولَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ" (٣٩ / ١٨). هذه هي طبيعة الدكتاتوريّة الشرقيّة بقدِّها وقديدها: لا حوار، لا جواب على اعتراضاتهم، وتجاهل مستمرٌّ لهم، إزدراء متواصِل لمن يجتريء على مجرَّد طرح السؤال عليه سبحانه !

١١. ألله في القرآن لا يطيق المعارضة حتّى ولو صدرتْ عن ملائكة السماء. إنّ موقف الله من المعارِض -سواء كان هذا المعارض بشراً أو ملكاً- موقفٌ واحد لا يتغيّر، وهو التجاهل والتسفيه وعدم الردّ، حتّى ولو ثبت فيما بعد أنَّ اعتراضَه كان في محلّه: "وإذ قال ربُّكَ للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً. قالوا: أتَجعَلَ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونحنُ نُسبِّحُ بحمدكَ ونقدِّس لك؟ قال: إنّي أعلم ما لا تَعلمون" (٢ /٣٠). لقد أسكَتَهم سبحانه ولم يَرِدّ على اعتراضهم، بل اكتفى بالقول إنّه أعلم منهم رغم أنّ الأحداث قد أثبتتْ أنَّ جميع مخاوفهم كانت في محلّها، فلا اعتراض على أحكامه. إنّه "فعّال لما يُريد" (١١ /١٠٧؛ ٨٥ / ١٦).

هذا مقتضى الهيمنة بلا مواربة ولا مداورة ولا التواء، وهذا هو منطق القهر الصريح.

١٢. والغريب أنّ الله في القرآن لم يتسع صدره لأحدٍ كما اتسع لإبليس فمدَّ له من الحوار والنقاش ما لم يمدّ للملائكة المقرَّبين أنفسهم، بل لقد تقدّم إليه إبليس باقتراح حظي في الحال بموافقة الله عليه، وإن كان الله قد أنذره هو ومن اتّبعه بأوخم العواقب وأشدِّ أنواع العذاب:

"إذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائكةِ: إنّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ. فإذا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي، فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الملائكةُ كُلُّهُمْ أجْمَعونَ. إلاّ إبْلِيسَ استَكبَرَ وكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ. قَالَ يَا إبْلِيسُ! مَا مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَديَّ؟ أَسْتَكْبَرْتَ أمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ؟ قال: أنا خَيرٌ مِنْهُ. خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَه مِن طِينٍ". قال فَاخْرُجْ مِنْها (من الجنّة). فَإنَّكَ رَجِيمٌ. وإنَّ عَلَيكَ لَعْنَتِي إلَى يَومِ الدِّينِ. قالَ رَبِّ! فَانْظِرْنِي إلَى يَومِ يُبْعَثُونَ. قال: فإنّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ إلَى يومِ الوَقْتِ المَعْلُومِ. قال: فَبِعزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ. قَالَ فَالحَقُّ والحَقَّ أَقُولُ: لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمَعِينَ" (٣٨ / ٧١-٨٥).

تاسعاً

مع الله، على الإنسان أن يلزم حدَّه

أذكر أصلك أيّها الإنسان، لا تنسَ أنّكَ من تراب، بل أنت من ماء مهين "ألمْ نَخلُقْكُّمْ من مَاءٍ مَهِينٍ" (٧٧ /٢٠) ولا تكوننّ من المستكبرين، فالله غنيٌّ عنك وعن الناس أجمعين!! إلزمْ حدّكَ. إعرف حجمك: "إنَّك لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً" (١٧ /٣٧).

ما هذا التحقير وما هذا التيئيس للإنسان؟ هل كل ذلك لأنّه قال " لا ". نعم. إنّه "لن يبلغَ الجبالَ طُولاً"، ولكنَّه خرق السماء، وخرقتْ سفنُهُ الفضائيَّةُ النظام الشمسي، وهي في طريقها إلى النجوم. أليس في هذا إنجاز عظيم؟ أم لعلّه سبحانه لم يكن يعلم أنَّ هذا العفريت سيقتحم عليه مخدَعَه في السماء؟

أمَّا الختم والوقر والغشاوة التي أثارت نقاشاً طويلاً بين المفكرين الإسلاميّين الأوائل، وكانت أساساً في نشأة الفرق وانقسام علماء الكلام إلى معتزلة وأشاعرة، وأمّا تهمة الحيوانيّة والخشبية والجبن والنجاسة وما إلى ذلك من الأوصاف والتُّهم التي ألصقها القرآن بالمخالفين، أمّا كل أولئك فألفاظ لا يجوز حملها على ظاهرها.

فلا ختمٌ ولا جبرٌ، كما ظنَّ الجهمُ بن صَفوان ومدرستُه. فهي تندرج أوّلاً في باب إقحام الله في كلِّ شيء على طريقة القرآن في حصر الفعل والتأثير في الله وحده لا شريك له، كما أنَّها أيضاً محاولة بارعة للإلتفاف على اعتراضات المعترضين، والتخلّص

من الردِّ على المخالفين، ومقارعة حججهم بحججٍ أقوى منها.

فإنّ أكثر مطالب المشركين كانت على حقٍّ، كما رأينا أكثر من مرّة. وهذا ما لا يريد القرآن أن يعترف به لأصحابه، فوَسَمَ إعراضَهم عنه بالختم والوقر و... وكأنّ ذلك لم يكن كافياً، فنسبَهم إلى الحيوانيّة والخشبيّة والجبن؛ بل لقد وصفهم بصفةٍ في غاية القباحة، كنتُ أربأ بالقرآن أن ينأى بنفسه عن مجرّد التلفظ بها، فضلاً عن إطلاقها على أشخاصٍ آدميين هم، باعتراف القرآن نفسه، خلفاءُ الله على أرضه، وهي أنَّهم "نَجَس"!!

إنّهم من صنع يده فكيف تسرّبتِ النجاسةُ إليهم؟ كمن يعجز عن الرد على الخصم فلا يجد أمامه إلاّ الشتم والسباب، وهو بضاعة المفلسين الذين لا يملكون غير طول اللسان، بدلاً من ضبط النفس، والتزام الهدوء، والبعد عن الهوى، ومقارعة الحجّة بالحجّة.

ولتغطية هذه العيوب التي تخلو من الموضوعيّة والمنطق السليم، وستراً للعجز عن الاعتراف بتفوّق حجّة الآخَر وسلامة تفكيره، كان لا بدَّ من الإتيان بسلطة عليا ومرجعيّة مطلقة هي وراء هذه الإعتراضات وبإذنها إنما أثيرت، إنّها حدثت بقضاء الله الذي أحاط بكلِّ شيء علماً، لا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه، لا يخرج عن إرادته شيء، وتقديره الأزلي سابقٌ لكلِّ شيء.

فالإسم الكبير -عند مَن يؤخَذون بالأسماء- يخطف الضوء عن الأسماء الصغيرة مهما تكن هذه الأسماء مضيئة. أي إنَّ ما جاء في القرآن ليس حجّة، ولكنَّ إسناده إلى الله يُغنيه في نظر المؤمنين عن كلِّ حجَّة، بل يقضي على حجِّيَّة كلِّ حجَّة. وفي هذا ما فيه من حمل المتلقي على تصديق كل ما يُلقى إليه وازدراء كل ما لا يراد أن يصل إليه، وإلا لما ظل المسلمون طوال أربعة عشر

قرناً جادّين في معرفة ما إذا كان الإنسان في القرآن مُسَيَّراً أو مُخَيَّراً، وما موقف القرآن الأخير من هذه الدوّامة التي لا تنتهي.

وهكذا انصرفتِ الأبصار والبصائر عمّا يتوارى وراء هذه الدوّامة من دوافع وقوى حقيقيّة، وتعلّقت بقشورٍ وتفاهات صرفتْها عن كلِّ ما هو وضعي وإيجابي ومنتج، وأغرقتْها في لجَّة عميقة من التساؤلات العقيمة والمماحكات الأزهريّة الفارغة المستمرة التي لا غاية لها ولا قرار. أَفَتَعْجَبُون بعدَ كلِّ ذلك لِمَ لَمْ تصل حتّى الآن إلى قرار؟

وبعبارة أخرى، إنَّ السؤال الكبير الذي طرحه المشركون هو: لماذا يعجز النبي عن الإتيان ولو بمعجزة واحدة من المعجزات الكثيرة التي أظهرها الله على أيدي غيره من الأنبياء السابقين ولم يحجبْها إلاّ عن صفيِّه وحبيبه خاتم النبيّين وسيّد المرسلين؟ لم يصدقوا أنّ القرآن هو معجزة النبي الكبرى رغم تحدي القرآن لهم أن يأتوا بمثله،،، إنّهم لم ينكروا -وهم أمراء البيان- فصاحة القرآن وقوّة بيانه. ليس فنُّ القول هو ما يستهويهم -في هذه المسألة على الأقلّ- وإنما يستهويهم فنُّ الفعل والإنجاز والعمل. ليس مطلبهم الإتيان بمعجزةٍ كلامية، وإن كانوا يعشقون فنَّ الكلام، لكن في غير هذا الموضع؛ إنما مطلبهم اجتراح معجزة حقيقيّة من النوع الذي ذكره القرآن نفسه منسوباً إلى الأنبياء يزيل شكوكهم ويضع حدّاً لتساؤلاتهم.

إنّ أيَّ عمل فنِّيٍّ عظيم -وليس القرآن وحده- لا يمكن الإتيان بمثله، هذه طبيعة الروائع. فالروائع العظيمة لا يمكن تقليدها أو الإتيان بمثلها، وإلاّ لم تكن روائع. هذه الروائع كلُّها لم يصنعها الآلهة والأنبياء، بل هي من صنع البشر الآدميين الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق. ماذا أقول؟ إن هذه الروائع، إذا كان

لا يمكن الإتيان بمثلها، فمن الممكن جداً الإتيان بأحسن منها. ولكنّ الهالة -بل الهالات التي تحاط بها- تجعلها دائماً فوق مستوى العمل البشري وتجعل ما قد يكون أفضل منها قذًى في جنبها وفي منزلةٍ أقلّ شأناً منها. هذا لسان حالِ مشركي مكّة في صراعهم مع محمد إن لم يكن لسان مقالهم.

إن مصيبة الإسلام، وربما من سوء طالعه، أنّه الدين "السماوي" الوحيد الذي يتحرّك تحت أضواء التاريخ، ويتصرّف في الزمان والمكان بقوى التاريخ، بحيث لا يمكنه أن يَخرج لحظة واحدة عن مسار التاريخ، وبالتالي فلا معجزات ولا خوارق في التاريخ. فلتنسب المعجزات والخوارق إلى عصور اللاّتاريخ، إلى الماضي البعيد الذي يتّسع لما لا يتّسع له التاريخ.

أنا أتحدّث الآن من موقع الحاضر نحو الماضي عن هذا الشيء العجيب المطواع، عن هذا الشمع الذي يقبل كلَّ تشكيلٍ وتصوير، عن هذه العجينة التي تتصرّف فيها الأيدي كيف تشاء وتقلِّبُها كما تشاء. في هذه العجينة، لم يكن ثم فرق بين الممكن واللاّممكن، بين المعقول واللاّمعقول، وكانت الحدود بينهما متحرّكة لا ثبات لها ولا قوام.

وبهذه الحركة كانت تتحرّك الأحداث، وتتتابع الصور التي تتخذها الأحداث وتدور في فلكها الأحداث، ولا تسلْ عمّا كانت عليه يومئذ الأحداث. من هنا انطلقتِ الأساطير، وفي هذه الأرض الخصبة أينعتِ الأساطير. فإذا رأيتَ ثمّ رأيتَ عالَماً من الأساطير، حيث لم تكن حدودٌ بين الممكن واللاّممكن، بين المعقول واللاّمعقول، ذلكم هو عصر المعجزات الزاخر بالآيات البيِّنات.

وإلى هذا العصر الجميل، الذي يزهو بالأطياف والألوان، تشير الأديان عندما تقصُّ علينا أغرب القصص وأبعدَها عن

المعقول والمنقول. إنّه ذخرها وذخيرتها ومصدر إلهامها ومعقد الطرافة فيها، فلا يستغني عنه دين، وعلى لآلئه تغوص كلُّ عقيدة، ويخرج كلُّ غوَّاص بصيدٍ ثمين، لا قانون ولا حتميّة ولا منطق في عصر المعجزات، لقد تغيّر كلُّ شيءٍ في عصر الإسلام حيث بدأتِ الحتميّة، واتّخذ القانون طريقه إلى الوجود والمنطق إلى العقول.

لقد استدار الزمن وتبدّل الزمن غير الزمن، وهكذا أخذ كلُّ شيء موقعه في قوالب الممكن وغير الممكن. وهي قوالب جامدة ثابتة صارمة لا تميل ولا تريم. وبعد أن كان كلُّ شيء يجول ويصول في عصور الفوضى والعشوائيّة ويخضع لنزوات الآلهة وأهوائهم، فهو منذ الآن يخضع لمنطق القانون ولن يستطيع الخروج بعد اليوم على إرادة القانون.

كان الله في الماضي "إنّما أمرُهُ إذا أرادَ شَيئاً أن يَقولَ له كُنْ فَيَكُونُ" (٣٦ / ٨٢)، لكن، لمّا دارتْ دورة الزمان، وتبدّل الزمان غير الزمان، صار كلُّ شيء بحسبان، يَجري بأمر الله خالق الأكوان. ومنذ الآن "كلُّ شيءٍ عندَه بمقْدَار" (١٣ /٨)، متَّبِعاً "سُنَّةَ الله، ولن تجدَ لسنَّةِ الله تَحويلاً" (٣٣ /٦٢). فلا إعجاز ولا معجزات بعد اليوم: "ولن تجدَ لسنَّةِ الله تبديلاً" (٣٥ /٤٣).

***

وزبدة القول إنَّ الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر، لا شأن لأيٍّ منها بكون الإنسان مسيَّراً أو مُخيَّراً. كما أنَّ إلصاقَ أشنع التهم بالخصوم ووصفَهم بصفات أقلّ ما يقال فيها إنّها بعيدة عن الموضوعيّة وتنم عن رغبة في التشفي، كنت أجلّ القرآن أن يلجأ إليها لوصف المخالفين.

إنّ كلّ أولئك نواتج ثانويّة جداً غير مقصودة لذاتها، إنما المقصود صرف الأنظار عن وجاهة حجج الخصم وقوّة معارضته

التي كان موقف القرآن منها دون ما هو متوقَّع منه، والعمل على محاصرة هذا الخصم العنيد واحتوائه قبل أن يستفحل خطره، وإثارة النقع من حوله كيلا يَرى ولا يُرى. ألمهمّ إسكاته كيفما اتّفق، فالعود طريّ، والنبتة غضّة، وإنَّ أيَّ خدش قد يُصيبها بالذبول فالموت. فمعظم النار من مستصغر الشرر!!

عاشراً

إله بلا فاعليّة

كلُّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. ليس صحيحاً أنّ الله خلق آدم على صورته ومثاله كما تقول التوراة[1]، وإلاّ لما كان ذئباً يمشي على الأرض، أو على الأقلّ خنـزيراً يستمرئُ الدنس والرِّجس، بل لكان ملاكاً يحلِّق في السماء ويتبوَّأ من الجنَّة حيث يشاء، بل الأحرى أن نقول إنّ الإنسان هو الذي خلق الله على صورته ومثاله، فأضفى عليه منذ مبدإ الخلق من الصفات والأفعال ما لا يجوز وصفُه به بحال من الأحوال، بل يجب تنـزيهُه عنه تنـزيهاً مطلقاً. لذلك ليس الله مسلِماً ولا مسيحيّاً ولا يهوديّاً. هذه الأديان أديانُنا، إنّها هي أيضاً من صنعنا، وهي مخلوقة على قدِّنا، ولا يعترف الله بأيٍّ منها.

ألله فكرة -وهو ككل فكرة- من إبداع العقل الإنساني وإنتاج الوعي الإنساني لتفسير أصلِ الأشياء وعلّتها ومصادر فعلها. وكذلك الدِّين فكرة اخترعها الإنسانُ نتيجة التأمل في حياته الفرديّة والإجتماعيّة، وفي مصير الإنسان بعد الموت.

وسواء كان الله موجوداً أو غير موجود، وسواء كان الدِّينُ صادقاً أو كاذباً، فيجب على الإنسان أن يؤكِّد ذاته، وأن يتصرَّف في دنياه بحرِّيَّةٍ ومرونةٍ، من غير أن يسمح لأيِّ قوّة خارجيّة -مهما كانت- أن تبتـزَّه وتصادر إرادتَه وقرارَه، وتَحُول بينه وبين تحقيقِ غاياتِ وجوده.

1 سفر التكوين ١ /٢٧.

والرأي عندي، أنَّنا نظلم الله كثيراً إذا تصوَّرناه على طريقة القرآن، يثور ويرضى ويغضب كالإنسان. فإذا صحّ وجود الله، وهو أمر لا أنفيه بالإطلاق، أجل، إذا كان الله موجوداً حقّاً، فليت شعري، أين هو؟ أين عساه يكون؟ وإذا كان من غير الممكن الإجابة عن هذا السؤال الذي لا يجوز طرحه، فأين هي آثاره؟

إن أحداً من الذين صنعوا العلم الحديث لم يقعْ على أيِّ أثرٍ لله في نظام هذا العالَم. وإذا جاء على لسان أحد منهم تجاوزات من هذا القبيل، فإنما هي آراء ونظريّات... والرأي هو الرأي. إنّه لا يُلزم إلاّ صاحبه، بل إنّ صاحبه قد يرجع عنه في يوم من الأيّام. ألرأي هو دائماً مظنّة الخلاف، كما يقول الغزالي[2]. فلا خلاف في العلم وإنما الخلاف في فلسفة العلم.

لماذا اختفى الله عنّا وأوجب علينا معرفته، وأنذر مَن لا يُقرُّ بوجوده بالويل والثبور وعظائم الأمور؟ لا أحد رأى الله أو سمع صوته. ولكنّها فلتات الطبع، وخطرات الفكر، وسوانح الخيال هي التي صنعت فكرة الله فينا، وكان لهذه الفكرة في بادئ الأمرِ وقْعُ الحقيقة، إنْ لم يكن أقوى من الحقيقة: فما أوحش الكون بغير إله! وما أقبح الكون بغير إله! بل وما أعجز الإنسان بغير إله!

فإذا لم يكن الكون يزهو بالأطياف والألوان فلا معنى له. إنّه عندئذ سجن موحش، بل قبر مخيف. فالأسطورة والميتافيزيقيا، أو الدين والفلسفة كانت كلها نسيجاً واحداً، غيرَ متميِّزٍ في عصورِ الإنسان الأولى. إنّها جميعاً من أصل واحد، ومن معدن واحد، هو معدن العقل الذي لا حدَّ لنموِّه وتطوُّره وحبِّه للحقيقة، والبحثِ عنها في جميع مظانِّها. إنّه بطلُ هذه الرواية الكونية التي يتحرك الإنسان في وسطها ليتَّخذ له دوراً أساسياً فيها.

2 ألمنقذ من الضلال، ص ٩٠.

يعتقد أكثر الناس، بل ويشاركهم في هذا الإعتقاد، عدد كبير من الفلاسفة الكبار، أنّ الإيمان بالله يدخل في باب الضرورات العقليّة وأوائل المعرفة. إنّه إحدى البديهيّات التي لا يمكن الشكُّ فيها. والغريب أنَّ القرآن ينجرف هو أيضاً في هذه الدعوى ويذهب في "تكريسها" إلى حدِّها الأقصى: "أفِي الله شكٌّ فاطرِ السمواتِ والأرض؟" (١٤ /١٠).

وفي رأينا، إنَّ هذه المسألة فيها نظر. فلو كانت معرفة الله ضروريّة، أي مغروزةً في النفس بالفطرة والطبيعة، لَمَا احتيج في إثبات وجوده إلى دليل، ولَمَا أنكر وجودَه أحدٌ كما لا أحدٌ يُنكر الضرورات.

قد يكون الله موجوداً، وقد لا يكون، وربما كان هو الذي خلق هذه الدنيا. إلاّ أنَّ على الإنسان أن يتولى بنفسه مسؤولية الوجود، وأن يُقْدِم بشجاعة على احتلال موقعه في سدّة الوجود، وعقله أمضى سلاح في معركة الوجود إذا عزّ الوجود. إنّ المركزية الإلهيّة، التي لم تكفُّ الأديان يوماً عن ترسيخها في الأذهان، قد تحوّلت بفعل تحديات العصر إلى مركزيّة الإنسان.

ما أكثر الأدلّة على وجود الله، وما أقلّ دسمها!! ذَكَروا أنَّ أحدَهم كان عليه دَيْن التزم به، ولما ضاقت الدنيا به وعزّ عليه سداده لجأ إلى قبرِ وليِ الله الصالحِ محمّد بن جعفر الحسيني، وقرأ عنده شيئاً من القرآن، وذَكَر دَيْنه، ثمّ انخرط في بكاء محزون يشكو لله قلَّةَ حيلتِه وهوانَه على الناس. وإذا بامرأةٍ تَسمعُه وتُعطيه قلادةً من الذَّهَب قائلةً له: خذ هذه القلادة لأجل صاحبِ هذا القبر. فأخذها وانصرف. فلم يمشِ إلاّ خطوات وإذا بصاحبِ الدَّيْنِ قد أقبلَ. فلمَّا رآه تبسَّم في وجهه وقال: ردَّ على المرأة قلادتَها. فأنا أحقُّ بالأجْرِ وثوابه. ولمّا سأله عن سبب ذلك ومَن أعلمه به، قال:

رأيتُ صاحبَ هذا القبر وليَّ الله الطيِّب، وعاهَدَني على قَصْرٍ في الجنَّة إنْ صَفحتُ عنكَ!

هذه كرامة آثرَ الله بها هذا الرجل الصالح وَفَّى له بها دَيْنَه، وكانتْ تثبيتاً له في دِينِه وإيمانِه بربِّه.

أوَنسيتُمُ العجوزَ التي عجبت كيف يُنفق الفلاسفة أعمارهم في تأليف الكتب تلو الكتب لإثبات وجود الله؟ فقالت: والله! إنَّ مغزلي هذا لَدليلٌ على وجوده. ألبَعرة تدلُّ على البعير! ومِن هنا القول المأثور: أللهمَّ إيماناً كإيمان العجائز!!

إنَّ أكثر إيمان الناس بالله من هذا القبيل. إنَّ جُلَّ إيمانهم إنما يعتمد على الحدس والإحساس الغامر، ولا شيء غير ذلك. فحتّى الموسيقى الصاخبة، التي تثير إحساساً ما، توقظ فيه إحساساً عميقاً بالواحد الأحد، وتأمّلاً عميقاً في صانع موسيقيّة هذا الكون. ويقفز السِّيْرْ توماس بْرَاون من ذلك إلى القول بأنَّ هناك دائماً شيئاً من الألوهة أكبر مما يمكن للأذن أن تكتشفه.

إنَّ جميع الأدلّة على وجود الله من هذا القبيل، وان كانت تتفاوت في السخف والأهمّيّة. ولعل أعظمها على الإطلاق براهين أرسطو. وهي تشترك جميعاً في شيء واحد وهو التسليم بوجود الله أوّلاً ؛ ثم التماس الدليل على وجوده. إنّها لعمري أدلّة وحجج واهية، لأنّ العقل مطواع يمكن تسخيره لكلِّ شيء.

بِمَ يستعينون في الحقيقة لإثبات وجود الله؟ بوجود الطبيعة؟ بالنظام السائد فيها؟ بالسماء وطيورها؟ بالبحار وحيتانها؟ لا شكَّ أنَّ لهذه الحجج قيمةً عند المقتنعين بها سَلَفاً. لكن، ما قيمتها عند غير المقتنعين؟ صفر! فهي لا يؤمن بها إلاّ مَن كان قلبُه عامراً بالإيمان. وأمّا مَن كان غير ذلك فلا يجد فيها إلاّ بيوتاً أوهن من بيت العنكبوت.

دلّوني على بصمةٍ واحدةٍ من بصمات الله، أو أيٍّ أثَرٍ من آثاره تظهر فيها فاعلية الله اليوم ظهورَها بالأمس. لقد تجلّت هذه الفاعلية بالأمس في النار التي أُجِّجتْ لإحراق إبراهيم فتوقّفت عن الإحراق ؛ والأجسام الثقيلة التي تسقط من علُ توقّفت عن السقوط عندما تعلّق الأمرُ بسليمان ؛ والريح التي سخّرها الله له، لحَملِه في نزهات جوّيّة منتظمة، غَدْوُها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ، تظلِّله الطير ؛ والهدهد الذي نقل إليه أخبار بلقيس وقومِها الذين كانوا يسجدون للشمس والقمر من دون الله!!! واليوم. أين هي هذه كلّها؟!

إنَّ فاعليّة الله تتجلّى في إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإطعام الجائع، وإسقاء العطشان، وشفاء المريض، وتلبية الثكالى واليتامى والأيامى، عندما يَفقدون كلَّ أملٍ في الحياة. فماذا قدَّم الله لهؤلاء وأولئك إلاّ الحثّ على الصبر والسلوان؟!

كانت الزلازل والطوفانات في الماضي يُعلَنُ عنها سلفاً، ولا تَحدث إلاّ بعد إنذار أهل المنطقة التي سيجعلُ الله عالِيها سافلَها، وإحصاءِ مَن فيها، وإخراجِ عباد الله الصالحين منها، قبل أن تُطيح بالمفسدين وتُهلك الظالمين المفسدين أعداء الله الكافرين، كما حدث لقومِ لوط وامرأتِه، فنجّى الله لوطاً ومَنْ معه وأهلكَ الباقين. هنا إنما يتجلّى فعلُ الله وفاعليَّتُه، أم هي أساطير الأوّلين؟

أين الله مما نرى من عدوان الإنسان وظلمِه لأخيه الإنسان؟ قد يقال هذه مسؤولية الإنسان وحده، فما شأن الله بها؟ لعمري! إنّها كلمة حقٍّ يراد بها باطل، وإلاّ فماذا يعمل الله إذن؟! إنّه لا يعمل شيئاً. فها هو خليفته على الأرض، وهو قِمَّة خلقِه الذي صنعه بيده، يتلوّى من الجوع والألم، ملقًى على التراب، متروكٌ للمرض والفقر والجوع والسلب والنهب والعدوان، كما تُرك الكلاب والذباب والخنازير.

إذا صحّ أنَّ دفع الظلم والعدوان والنهب والسلب من مسؤوليّات الإنسان، فما العمل إذا كان هذا الإنسان طفلاً أو مريضاً عاجزاً أضعف من أن يحمل أي مسؤولية؟! هل يتخلّى عنه أيضاً ويتركه للذئاب والأفاعي؟ ما جريرته؟!

لقد كان الله في الماضي -وفي الماضي فقط- يتدخّل في كلّ شيء، ولا يَخرج عن إرادته شيء، وكانتْ كلّ حالة تدرس على حدة، كما رأينا في قصة لوط وإبراهيم، فما باله اليوم، واليوم فقط، يقف مكتوفَ اليدَين أمام ما يجري من مظالم يُندَّى لها الجبين كأنَّ الأمرَ لا يعنيه؟

أجيبوني: هل هذا من الفاعليّة في شيء؟ فالفاعليّة إنما تظهر، لا في المكرور والمطرد، بل في كسر المكرور وقطع الاطّراد، وإلاّ فلا فاعليّة، بل سلبيّةٌ وسكونٌ كسكونِ القبور.

وكما كان الله بطلَ الأبطال في الماضي فهو كذلك في المستقبل، لا المستقبل المنظور على هذه الأرض وفي الحياة الدنيا، بل المستقبل غير المنظور في الحياة الآخرة. أمّا في الوقت الحاضر فلا وألف لا: "وَلولا كَلمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إلى أجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَينَهُمْ. وإنَّهُمْ لَفِي شكٍّ مِنهُ مُرِيبٍ" (١١ /١١٠)[3]، تهديدات في تهديدات تصبُّ على هذا المخلوق المسكين الذي يوصف بأنّه سيِّد الكائنات!

***

وبعد، إذا كان الله لا ينجز وعداً، ولا يُغيث ملهوفاً، ولا يَرزق جائعاً، ولا يُروي عطشاناً، ولا يَنصر مظلوماً، ولا يواسي مكلوماً، ولا يَشفي عليلاً -وكلّ أولئك ممّا تعهّد الله به لعباده في

3 رَ: سورة فصّلت٤١ / ٤٥؛ رَ: يونس ١٠ /١٩؛ طه ٢٠ / ١٢٩؛ الصافات ٣٧ / ١٧١؛ الشورى ٤٢ /١٤.

القرآن، وأخذَه على نفسه، وتحدى به غيره- إذا كان الله لا يلبّي مطلباً، ولا يملك لأحدٍ ضرًّا ولا نفعاً، فأين إذن تتجلّى ألوهتُه؟

هل هي تتجلّى في الحجر دون البشر؟ هل هو خلق البشر للحجر، أم خلق الحجر للبشر؟ إيتوني بعلمٍ إنْ كنتم تعلمون. إنّ أثره ينحصر -إذا كان له من أثر- في الحجر دون البشر. هذا إذا صحّ أنَّ المتحرِّكَ، الذي حرّكه هو جزء من وجوده، يحتاج إلى محرِّك، وانَّ الموجود، الذي وجوده جزء من حقيقته، يحتاج حقّاً إلى موجِد.

ألمنتصر لا يحتاج إلى مَن ينصره كما رأينا سابقاً، ومع ذلك فقد نسب الله في القرآن إلى نفسه النصر. كذلك الموجود لا يحتاج إلى موجِد، والمتحرِّك إلى محرِّك، وإن كان الله يَنسب إلى نفسه الخلق والتحريك.

لله في القرآن فاعلية مطلقة، ولكنه في الممارسة على الأرض لا يفعل شيئاً. يقولون إنّه قوّة، فإن صحّ ذلك فهو قوّة معطّلة سلبيّة، إذا جاز التعبير، وقوّةٌ بالاسم لا خطر منها. وبكلمة واحدة، إنّه ألوهة بلا فاعليّة، قوّتها أو فاعليّتها في اللاّفعل، أمّا الفعل فليس من شأنها، أو قل هو اللاّفعل واللاّفاعليّة. كالأثير المالئ للكون في فيزياء القرن الماضي.

وليس معنى ذلك أنّ الله غيرُ موجود، بل أنا أؤمن بوجوده ترجيحاً لا تأرجحاً، وبطريقِ الحدس الداخلي لا بطريق العقل الذي لا يُجدي شيئاً في هذا الموضوع، وإن كانت الشكوك في وجوده تساورني كثيراً. فدليل الحدس لا يُغني شيئاً، وإن كان بلغة القلب والشعور يعني كلَّ شيء، لأنّه يسدُّ فراغاً، ويقدِّم وعوداً يعجز عن فهمها العقل، ويملأ الحياةَ بالأطياف والألوان والأحلام!

هل مات الله؟ سؤال طرحه نيتشه في أواخر القرن التاسع

عشر، وان كان ذلك في سياقٍ آخر. لقد كان الله طوال تاريخ الإنسانية الطويل، مركزَ هذا الكون، ونقطةَ الثقل فيه. وأمّا الآن فينبغي أن تتحوّل المركزيّةُ إلى الإنسان. يجب ردُّ الاعتبار لوظيفة الإنسان الأصليّة، وأن تُناطَ به مسؤوليّةُ الإستخلاف في الأرض. يجب اتباعُ أيسرَ السبلِ لتحقيق مشروع الإستخلاف الإنساني، بالمعنى الليبرالي العلماني الواسع، لا بالمعنى الديني الغارق في خدمة الله والتعبّد له.

ذلك هو المقصود بموت الله الذي أصبح مرادفاً للنزعة الفرديّة والعقلانيّة اللَّتَين تتّسم بهما حركةُ الإنعتاق في الغرب. ولكنّه لا يُلغي الله بمقدار ما يردُّه إلى أصله الإنساني، معلناً ولادةَ الفرد الجديد الذي صار إلهاً، ومؤكِداً أنّ الإنسان-الإله كان منذ البداية عنوانَ عصر النهضة ومشروع أوروبّا الأوّل، أو هكذا بدا لأنصار النزعة الإنسانية المعاصرة، ومنهم على سبيل المثال لُوكْ فِرِّي، الذي رفع عقيدةً إنسويّة صارمة تقدّس الإنسان، وترى فيه ما هو أرقى من الطبيعة العمياء، وتفوق قيمتُه الحياة[4].

من أخطر ما تتعرّض له هذه الإنسويّة هو جموحها الشديد الذي يكاد يُفرغها من كلّ مضمون. فقد اقتربنا باسم الإنسويّة الفردية "العلميّة" من إنسويّة بلا إله إلى إنسوية بلا إنسان، مثلما اقتربنا من إعلان "موت الله" الذي رفعه نيتشه إلى المناداة بتمجيد الإنسان. وإذا مضينا في هذا الطريق إلى غاياته القصوى -وكل الدلائل تشير إلى ذلك- فسينتهي بنا التسيار عاجلاً أو آجلاً إلى "موت الإنسان" نفسه في تكنوقراطيّة تافهة، ذات نزعة وضعية مقنّعة بقناع البنيويّة!

وفي نهاية المطاف لن يبقى الإنسان سوى دميةٍ تضعها

4 Luc Ferry, *Transmettre l'histoire de la philosophie,* in *Le monde de l'Education,* Janvier, 1957.

البُنيات على خشبة المسرح. وذلك لعمري أسوأ عقبى وشرٌّ مآل!!!

***

نقول في خاتمة المطاف: ليست بنا حاجة إلى الإعتماد المخزي المذلِّ على إلهٍ ما للحصول على أرزاقنا والإستمتاع بزهرة الحياة الدنيا وما فيها من مباهج.

فما حاجتنا إلى إلهٍ بلا فاعليّة، لا يضرّ ولا ينفع، ولا يُغني عنّا شيئاً في عالم من الوحوش والذئاب، فضلاً عن عوامل الطبيعة الغاشمة. فماذا فعل الله "لخليفته في الأرض"؟ ماذا جلبتْ له هذه الخلافة غير الشقاء والبؤس؟ هل أقالت له عثرةً، أو أنهضتْه من كبوة؟ هل دفعت عنه ظلماً أحاق به؟ هل لبّتْ له مطلباً؟ هل أطعمت جائعاً قبل أن يدركَه الموت؟ إنَّ كلَّ ما قدَّمت له في هذا السبيل وعوداً سخيّةً أخرويَّةً وردت بها الكتب "السماوية"، أعطتْه فيها كلَّ شيء بعد أن حرمتْه في الدنيا من كلِّ شيء.

فلولا أننا نعيش في عالم الأوهام لما استحكم فينا وَهْمُ الأوهام، وسيدُ الأوهام، وَهْمُ الرحيم الرحمن، الإله الحنّان المنّان، الذي يكشف الغمَّ ويُفرّج الكرب ويدفع الأحزان، ويجيب المضطرَّ إذا دعاه، ويأسو المأزوم والملتاع والضعيف الولهان. لا تُحصى نِعَمُه ولا يحيط بفضله عقلٌ ولا لسان.

هم حكّموه فاستبدّ تحكُّما وهم أرادوا أن يَصول فَصَالا

خاتمة الكتاب

وفي الختام، أعود إلى تذكير القارئ بأنّ كتب التفسير، فيها غثٌّ كثيرٌ لا يساوي المداد الذي أُهرق فيها. لقد فاضت قرائح مفسِّرينا في هذه الكتب، وغرقوا في أوحال لا قرار لها، وكانوا كلَّما تحرّكوا فيها قذفت بهم إلى مكانٍ سحيق. فلم يغادروا صغيرةً ولا كبيرة في القرآن إلاّ تصدَّوا لها بالعقل حيناً، وبالسخف أحياناً.

ولطالما أجهدوا عقولهم وأذهانهم في تقويل القرآن ما لم يقل، فأعطَوا اللفظ الواحد ألفَ معنى، واكتشفوا له ألف حكمة، واخترعوا له ألف نكتة بلاغيّة، وذكروا له ألف فذلكة بيانيّة، بل ألف باب في البلاغة والبيان لم تخطر على بالِ خالق الأكوان. وكانت حصيلة كلِّ هذا هراء في هراء.

أجل، إن كتب التفسير محشوّة بالسخف والغباء والهذيان والأسطورة ونثر البخور، وتفسيرِ كلِّ ما يستعصي على التفسير. فلا نقد للنصوص، ولا إعمال عقل بروح حرّ مستقلّ، بل دفاع مستمرّ، وعبوديّة كاملة، وانبطاح أعمى يُظهر مدى فراغ الإنسان وضعفه أمام النصّ.

ألنصّ، إمّا أن يورث الإنسانَ التفاهة والعمى والغيبوبة والقصور الذاتي، فيذوب فيه، ويفنى في شعابه، ويخترع له الأيدي والأرجل ؛ وإمّا أن يثير فيه الشعور بالتحدّي والعزّة والمواجهة، فيدرس ويمحّص وينتقد، حتّى يجعلَ أنقاضاً ما كان يبدو قلاعاً.

والناس في هذا السبيل بين معدنٍ خسيسٍ ومعدن شريفٍ ومعادن شتى بين هذا وذاك. أنظر إلى الغزالي كيف يَصول ويَجول في مملكة العقل. ولكنّه سرعان ما يَفقدُ صوابَه، ويذوبُ

وجداً عندما يتحدَّثُ عن هدهد سليمان، وناقة صالِح، وقومِ يأجوج ومأجوج...

إنّ المفسرين للقرآن ثرثارون حشويّون لا يعرف النقد إليهم سبيلاً. وكذلك كان مفسِّرو العهد القديم والجديد وسائر الكتب "المقدسة". إنَّ أكبرَ همِّهم جميعاً الحذلقة والفذلكة والتبرير والدفاع. وإذا تظاهروا بالنقد فإنّه نقد موجّه معروفةٌ نتائجُه سلفاً. أي: ظاهره النقد وباطنه الحفاظُ على النصّ وحمايتُه من كلِّ سوء.

إنّهم يظنّون أنّهم بهذا الموقف يُحسنون صنعاً، وما دروا أنهم بذلك يُسيئون إلى النصِّ الذي يحوطونه بالإيمان. والأنكى من ذلك أنّهم بعد أن يُفرغوا في النصّ جميعَ ترهاتهم وكلَّ ما يملكون من ثرثرة وبضاعة كلاميّة، يبادرون بالاعتذار قائلين: "أللهُ أعلم". إنّهم لا يريدون أن يقرّوا بجهلهم، كما أنّهم لا يريدون في الوقت ذاته أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، والعياذ بالله تعالى، فخرجوا بهذه المعادلة الطريفة والظريفة معاً: "ألله أعلم"!

***

ورغم أن نقد النصوص قد أصبح علماً قائماً برأسه، فمن المؤسف أنّنا لا نزال نرى الطابع الوعظي التبريري غالباً على جميع جهودنا في هذا الصدد، ولا يزال الدارسون لا همّ لهم إلاّ إبراز فصاحة النصِّ ، ووجوه البلاغة في النصِّ، والحِكَم الكامنة وراء النصِّ، ولم يذكر أيٌّ منهم مدى الفراغ واللاّمعنى اللّذَين يغرق فيهما النصّ!

فما أكثر المنقِّبين في النصوص، وما أعظم الجهد الذي يبذلونه في استبطان النصوص، وما أتفه النتائج التي وصلوا إليها بعد طول الانكباب والعكوف على النصوص، فيا لَضَيْعة العمرِ على النصوص!! ما أكثر طلاّب الهراء! فلولا طلاّب الهراء وكلِّ

بضاعة كاسدة، ما انتفختْ أوداجُ الفارغين والتافهين الذين إنما يعيشون على غباء القارئين!

ملأى السنابلُ تنحني بتواضعٍ

والفارغاتُ رؤوسُهنَّ شَوامخُ

هناك تواطؤ بين القارئ والكاتب: هذا يقذف بالهراء، وذاك يتلقّف الهراء، واكتمل الهراءُ بالهراء، يا حَسرتي على عُمْرٍ مضى في هراء يتغذّى بالهراء!!

***

وهكذا لم يعجز المفسِّرون والمتكلّمون والبلغاء يوماً عن تبرير عوار القرآن وإيجاد المخارج له بالترقيع والتلفيق والمماحكة والسفسطة وتقويله ما لم يقل. لقد فعلوا ذلك بإخلاص وتفانٍ حيناً، ولإظهار الحذق والبراعة والتكايس على الأقران حيناً. وكانوا يعتقدون جازمين أنّهم يحسنون صنعاً للقرآن. إنّهم لم يشكّوا يوماً في عصمة القرآن، فكانوا إذا وجدوا شيئاً يخالف العقل والعلم والمنطق، كذّبوا العقل والعلم والمنطق وصدّقوا القرآن. لقد اتَّهموا أفهامَهم ومداركهم ولم يجرأوا يوماً على اتّهام القرآن. وملأوا الفراغ بين العقل والقرآن باجتهادات وأقاويل وأساطير ونكت بلاغيّة... خرج بها القرآن من بين أيديهم غير القرآن!

وبهذه المخارج والتبريرات أنقذوا القرآن من كثير من المآزق وإن لم يعترفوا يوماً بأنها مآزق. إنّها مآزق بالنسبة إلى أفهامنا القاصرة ومداركنا العاجزة، ولكنّها في ذاتها عنوان الحكمة. ولذلك راحوا يبحثون عن هذه الحكمة المفترضة، وكان كلُّ غَوَّاص يأتي بدُرٍّ جديد. وهكذا ردموا ورمّموا وصحّحوا، وأخفوا وأظهروا، وكشفوا وتستّروا، حتّى غدتْ كلُّ آية في القرآن جوهرةً

مكنونة تتدفّق بالعلم والحكمة. وشكروا الله الذي فتح عليهم هذه الفتوحات، وأفاض عليهم هذه الإلهامات "ذلك فضل الله يؤتِيهِ مَن يشاء. واللّهُ ذو الفضل العظيم" (٥٧ /٢١).

***

وأعود فأقول: إنما أنا أصف ما وجدتُ في القرآن، وأقرّر ما سمعتُ منه وما رأيتُ فيه. بيدي المسبار، والميزان، والمكيال، وآلة التصوير، وجهاز التسجيل. فلستُ هنا في معرض التقويم، إنما أنا في معرض الوصف والتقرير، ولعلّ القلم انزلق بي أحياناً على غير وعي منّي فأسأت التعبير.

ما حيلتي إذا كانت الرياح تجري بما لا أشتهي وأتمنّى؟! إصلاح الأشياء إنما يكون بوصفها أوّلاً ومعرفة كنهها وعناصرها، تمهيداً لإحداث التغيير المطلوب منها.

ألخطوة الأولى هي دائماً أصعب الخطوات. وعليها تعتمد سائر الخطوات. أنْ تقلق وتتمرّد وتثور، هذا شيء عظيم، ولكنّه عظيم على حساب أعصابك وصحّتك وسعادتك، ألاّ تقلق وأنْ تسترخي ويتبلّد حسُّك، هذا أمر مريح، ولكنها راحة على حساب إنسانيّتك وتطلّعك وفضولك وسعيك إلى الأفضل والأسمى.

عقل المرء محسوب عليه كما ذكرت سابقاً، فاختر لنفسك ما يحلو، ولا أدلّ على سخف الحياة ومهزلة الوجود من أنَّ أصحاب الخيار الأوّل هم أفراد قلائل نادرون. إنّهم القادة والرادة، إنّهم النخبة، إنّهم الرعاة، وسائر الناس قطعان سائمة، آثرت أهون الأمرَين، وأقل الضررَين، وثاني الخيارَين، ففازت بالدارَين!!

أرأيتَ إلى قانون السخف كيف يصول ويجول ويختال لينفرد بالساح وحده؟ يريد لينقضّ على العقل وينقُض قانون العقل؟ يريد

ليطفيء نور العقل والعقل مُتِمٌّ نورِه ولو كره الجاهلون. يريد ليقضي على البرعم، والبرعم يأبى إلاّ أن ينمو ويكبر ويتعاظم، وما ذلك عليه بعزيز!

ما أفظع أن تكون إنساناً ثمّ لا تقلق، إذن أنت لست بإنسان، أنت قدّة من الحجر. ألإنسان الذي لا يقلق هو أشبه بالبهيم. فَاقْلَقْ ولا تخفْ. إنّك على صراط مستقيم. فحذارِ أن تَحيد عنه أو أن تريم.

تباً للوجود إذا لم يفجِّر في الإنسان قلقَ الوجود، والإحساسَ بالدهشة أمام الوجود، وإذا لم يقتنصِ الشرارة التي تنطلق من الأتُّون المتأجِّج في ضمير الوجود، حتّى يلفحه اللهبُ ويكتوي بنار الوجود. لقد اقترب من المنطقة الغامضة للإبداع فانثالتِ المعاني وتدفَّق الشلال وتدفق الوجود، وأوحى إليه ما أوحى من حقائق الوجود. هذا ما يفعله القلق في النفوس الكبيرة عندما تهتزّ وموسيقى الأكوان تعزف أروع ألحان الوجود. فمَن لم يقلق فهو إنسان في قلبه مرض نسي العهود، أو لعلّه بما قدّمتْ يداه مُسِخَ قرداً من القرود، بل هو شرٌّ مقاماً. إنّه الصخر الجلمود!!.

فهرس الكتاب